

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



GENERAL LIBRARY





الجمعية التاريخية لخرجي كلية الآداب
بجامعة الإسكندرية

دراسات في التاريخ اللويسي

الأسس التاريخية لمستقبل لوبيسا

تأليف

مصطفى عبد الله يعقوب

إسائه في التاريخ «جامعة الإسكندرية»
«بلوم في التربة وعم النفس» القاهرة»



الجمعية التاريخية لخريجي كلية الآداب
بجامعة الإسكندرية

المجلد
الطبعة
نومبر ١٩٥٢

دراسات في التاريخ اللو بى

الأسس التاريخية لمستقبل لوبيكا

تأليف

مصطفى عبد القادر

ليسانس في التاريخ «جامعة الإسكندرية»
دبلوم في التربية وعلم النفس «القاهرة»

5276

مطابع عابدين ٦ ميدان اسماعيل
تلفون ٢١٠٥٦ - الإسكندرية

١٩٥٣

DT
224
.63

چند لفظی عربی و فارسی

و کلام

و کلام

و کلام

مکتبہ اسلامیہ
لاہور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وقل رب زدني علماً

قرآن کریم

189166- LBIC 2010/21

~~D 36~~
~~B 33~~

الاهداء

إلى لوبيا وطننا المحبوب الذي ضحى من أجله المجاهدون ، وجاهد في سبيله
المهاجرون ، واغترب المغتربون ، حتى نال استقلاله في ظل ملكتنا المفدى
السيد محمد إدريس المهدى السنوسى ملك لوبيا المعظم ومزج مجدها ومناط آمال
شعبها ، أقدم كتابي .

المؤلف

مقدمة

قلم المؤرخ الجليل الأستاذ عبد الحميد العبادى أستاذ التاريخ
الإسلامى وعميد كلية الآداب بجامعة اسكندرية سابقاً
وعضو المجمع اللغوى بالقاهرة .

من يصع سوات مضت شر الأستاذ مصطفى نعيو كتاباً أسماه «المجمل»
فى تاريخ لوبيا ، وطلب إلى تصديره ففعلت وقلت فى كتابى التى صدرت بها أن
الأستاذ نعيو شاب عربى يتسم سمات العرب الأصيل ، فهو هادى الطبع ،
دكى القلب ، وقلبه ينطوى على آمال كبار

وهادى اليوم أقول أن هذه الآمال الكبار قد بدأت تتمتع شيئاً فشيئاً ،
ونأخذ طريقها إلى الوجود الفعلى رويداً رويداً ، وآية ذلك هذا السفر الذى
وضعه صاحب «المجمل» ضمنه دراسات هامة عن لوبيا ، لم يتسع «المجمل»
لإحتوائها وتفصيلها .

...

...

...

وهدف الأستاذ نعيو من هذه الدراسات إعمالاً هو رسم الأسس التاريخية
لمستقبل لوبيا ، وتلك لعمر الحق ، الخطوة المثلى والطريقة المستقيمة ، فحاضر
كل أمة متأصل فى ماضىها ، كما أن مستقبلها موصول بحاضرها وما من أمة
أرادت النهوض ، قبلت نهضتها على أساس من تفهم ماضىها والاهتداء بهديه ،
إلا استقامت لها الأمور ، وكتب لها النجاح والتوفيق ، وما من أمة ارتجلت
أسباب النهوض دون الرجوع إلى عبر الماضى ودروسه ، إلا التوت عليها

المقاصد . وراحت تنخبط في دياجير الخيرة والإضطراب ، فلما تحطفتها الطير
أو هوت بها الريح في مكان صحيح .

إن التاريخ معلم الأمم ، ومرشد الساسة والقادة ، وعون المصححين .

يشتمل هذا الكتاب على دراسات حسن . الأولى في ضبط كلمة «لوبياء»
أهى بالواو أم بإيساء ، وقد انتهى المؤلف بعد تحرى النصوص القديمة
والحديثة إلى أن الأصح أن ترسم وتلفظ بالواو .

والدراسة الثانية فيها عرض واف لسيرة السيد محمد بن عيسى السوسى الكبير
مؤسس الطريقة السنوسية وناشرها في ربوع المغرب والحجاز وخاصة في لوبيا
ومن هذا العرض نقبر أن السيد السوسى الكبير كان بحق شخصية من أعظم
الشخصيات الإسلامية المصلحة في القرن الماضي ، ولقد دلت الحوادث من
بعد على أنه كان بعيد النظر ، موقفاً في اختيار طريقة الإصلاح ، وانه
تسكب الطريق التي ركبها غيره من دعاة الإصلاح ، فعصى قدماً حيث تعثروا ،
وحذر حيث وقعوا ، وكان من الموفقين . وتناول الدراسة الثالثة الأسس
الجغرافية والتاريخية للوحدة اللوبية . بيدل المؤلف على أن لوبيا قطر واحد
متناسك الأجزاء ، لا كما يذهب إليه ذوو الأغراض من النحات الأجانب ،
ولقد أجاد المؤلف النقد وأحكم الاستدلال .

وفي الدراسة الرابعة يستوفى المؤلف الكلام على استعداد لوبياء لمستقبل
بحرى باهر ، وذلك لامتداد سواحلها امتداداً شامعاً ، ولما فيها البحرى العظيم
ولاسيما في عهد الأسرة القره مانلية وهو يهيب قومه إلى العمل على استغلال
هذا الاستعداد ، فالبحر سبيل عظمة الأمم ، وطريقها إلى القوة والإزدهار .

والدراسة الخامسة عبارة عن بحث شيق طريف تناول فيه المؤلف صفة
لوبيا شجرة القوام ، وهما ينتقل المؤلف من الكلام على البحر وعلاقة لوبيا

البحرية بالأمم الأخرى قديماً وحديثاً ، إلى الكلام على البر وعلاقة لوبيب من طريق تجارة القوافل . بشعوب السودان وأواسط افريقية ، ويرينا كيف ازدهرت هذه العلاقة التجارية في الماضي وكيف يستطيع قومه احياها واعادتها سيرتها الأولى بالعمل المتصل والجهد الجهد .

هذه خلاصة بحوث هذا السفر القيم . ولقد بذل المؤلف جهداً عظيماً في إعداده ، فأطلع على ما وسعه الإطلاع عليه من المصادر العربية والأجنبية ، وثق كانت المصادر العربية قاصرة في هذا المصير ، فلقد وجد المؤلف العوض في المراجع الأجنبية وخاصة الإنجليزية ، فأطلع عليها وأخذ منها ما اقتنع بصحته وصوابه . ونقد ما استحق النقد والتجريح

...

...

...

بارك الله في هذه الجهود ، ونفع بها الدولة اللوية الناشئة ، وسدد حظي القارئين بأمرها وأمدحهم بروح منه ٤

عبدالمجيد العبادي

١٠ شوال ١٣٧٢ هـ
١٩٥٢ هـ ١٩٥٣ هـ

دبل الاسكندرية في

كلمة الجمعية التاريخية

للمكنون محمد عبد الرزاق شبر

استاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة ابراهيم بالقاهرة

الاستاذ مصطفى بعبو يقدم اليوم دراسة تاريخية قيمة جديدة بأن ترفعه إلى مصاف المؤرخين الأصلاء وجديرة أنصاً بأن تكون باكرة لدراسات أخرى كثيرة قيمة . وحده للدراسات التاريخية كعمل بتحقيق الآمال المعقودة على جهوده . وقد صحى سنوات كثيرة ثم استمر اتصالاً بعد ذلك استمراراً يتيح لي أن أقول عن معرفته بقبليته إن تاريخ بلاده محور دائم للنشاطه العلى . بل انى لا جزم أن نشاطه السياسى - إن كان - ليس إلا مظهرأ من حبه لتاريخ لوبيا ومن اهتمامه بماضيها ومن اتصال هذا الماضى المجدد بالحواصر المرتقب ومن حينه الدائم أثناء اقاماته الطويلة بمصر إلى لوبيا . وهذا الكتاب ثمرة من ثمار الحب للوطن .

وبراعة المؤلف تنحى في اظهار الدعائم الاساسية التى قامت عليها النهضة اللوبية في أول العهد السنوسى . وكتبه هذا يسجل فعلا الاهداف الاساسية التى حددتها السنوسى الكبير منظرته العبقريّة . والكتاب إلى ذلك يتبع ما بدله المصلح الكبير من جهود في سبيل الوصول إلى الاهداف . والكتاب دراسة تاريخية لمناهل الحيوية في ماضى لوبيا القريب وهو في نفس الوقت يحمل في ثناياه توجيهاً سليماً إلى أهداف جليلة مدعومة بالدراسة التاريخية . ومن فلاسفة التاريخ من يرون أن تاريخ أى أمة يجب أن يعالج تحت ضوء الحاضر واستغناء فائده وأن الماضى يجب أن يوصل بالحواصر صلة قوية على نحو ما تتصل شخصية الأمم والأفراد والكائنات .

ومؤلف قد انجى هذا الاتجاه وآمن بأن الأمور تصالح الآن بما صلحت به
أوائلها قديماً وبأن العهد الجديد يجب أن يحتذى مثل الاوائل القيمة وهو لهذا
يهيب به أن يواصل جهود السلام الصالح وأن ينتج به لامة افلاوية الى نفس
الاهداف لكي تحيى أطيب الثمار من مواصلة السعي في اتجاه موحّد لأطول
وقت ممكن .

وهذا الوصل بين الحاضر والمضى على اسس علمية سليمة هو الذى يجعل
الكتاب قيمة حقيقية من حيث هو دراسة اساسية ومن حيث هو برءمج
سلم لليوم والغد . وهو الذى يجعل الجمعية التاريخية المكندرية ترحب بهذا
الكتاب وتعتبره وقد لا يكون لهذه الكلمة المواجهة محل هنا نعقب كلمة
استادنا ورئيس جماعتنا عبد الحميد الهادي وهو عميد المؤرخين الاسلاميين
اليوم ومرجعهم الموثوق به في اجرائهم ، إلا أن صلتى بأولاف وتقديرى له
يشفعان لى في تسجيل "شاء عليه في هذا المقام بأداتى

محمد عبد الهادي شعيرة

مقدمة المؤلف

في صيف سنة ١٩٤٧ أحرحت كتابي الأول ، المحمل في تاريخ لوبيا من أقدم المصور إلى العصر الحاضر ، وهو كما يتبين من عنوانه لم يكن إلا عملاً متواضعاً قصدت منه رسم الخطوط العامة لتاريخ بلاد لوبيا . ثم أخذت أوالى البحث شكل مفصل لهذا التاريخ المحمل وقد أتحت لي ريادة مدينة لندن في صيف سنة ١٩٥٠ فرصة التردد على مكانها العامة والخاصة والترود ببعض المراجع الهامة في هذه الباحة مما ساعدني على السير في مهمة البحث التاريخي التي استهدفتها والتي أرجو أن أتقدم شمرتها الأولى في القريب العاجل . وكان من الطبعي أن يتمرغ من هذا البحث الرئيسي موضوع أو موضوعات قائمة بذاتها لها طابعها الخاص في تاريخ لوب وحياة أهلها بشكل يلفت نظر الباحث لحرصت على تسجيلها والعمية سحتها واعطائها بعض الاهتمام الخاص وهماي تخرج في هذا الكتاب بعد أن أحصيتها للبحث العلمي والطريقة المبهجة .

على أني لم أقل الكلمة الهامة في كل موضوع من هذه الموضوعات ولم أنظر إليه إلا نظرة الطائر راسماً الخطوط العامة ولو أني حاولت استيعام كل موضوع حققة لأصيح كل موضوع كتاباً خاصاً بذاته . وقد أتبع في كتابي هذا الطريقة التي سرت عليها في كتابي الأول ، المحمل في تاريخ لوب ، جاعلاً الصدق رائدي والحقيقة نعتي في مناقشة الأحداث التاريخية فإن أصبت في ذلك فالحمد لله على توفيقه والشكر لاستادى الجليل الاستاد عبد الحميد العادى الذي أعز بقراءة الكتاب قبل طبعه وترويضى بالكثير من ارشاداته وملاحظاته النقيمة مع شرف تقديمه إلى القراء ولاستادى الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة الذي راجعت معه مخطوطة الكتاب وقد أعطاني الكثير من وقته وارشاداته حتى وفقت في احرار هذا الكتاب بفصل حسن توجهه وعابته ورعايته للكتاب ومؤلفه . وإن كنت قد اخطأت بالحقيقة قصدت ولاشيء غير الحق أردت وإعما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما موى .

الاسكندرية / شوال سنة ١٣٧٢

(يوليو سنة ١٩٥٣)

المؤلف

لویپا

لوياء وليست لييا

حسناً كلمة «لياء» المصادر العربية تقدمه بذكرها «لأ» و «لا» — أحمد ركي
 يأخذ بهذا الرأي — المجمع القنوي في القاهرة يعتمد كلمة «لوياء» في معجمه البصري —
 اختلاف كلمة هذه الكلمة بأحلاف العرب «لوياء» وبأحلاف «لوياء» في اللغة العربية .

ما زال الكثير من الكتاب يستعملون كلمة «ليياء» بدلاً من «لوياء» عندما
 يحى ذكر اسم هذا القطر العربي وهم في ذلك إما مدعون بحكم العادة وانتشار
 هذا الخطأ نمشياً مع ما جرى به القول من أن الخطأ المشهور حير من الصواب
 المهجور وإما أنهم في استعمالهم هذا يعتقدون صحة هذه الكلمة «ليياء» وعلى
 كل فإن الأدلة العلمية المتعددة تدفعنا إلى تحلئة هذه الكلمة وتحتج علينا تصحيحها
 بكلمة «لوياء» وضرورة الأحذ بها ومحاولة النعود عليها وإلا لئس الخطأ على
 نخلته وما سميها إلى الحقيقة ولا اهدئت بالتالي إليها ولوقفت المجهود العلمي
 الذي يبحث عن حقيقة الأشياء وصحتها ونشرها حتى يتم استعمالها ويتعود
 الخياع عليها فتضمن بذلك النقاء على أنها حقيقة نائنة إلى أن يأتي من ينقص
 على أمس حقيقة . وقد سبق التفرص لهذه التسمية ووجوب استعمال «لا»
 الصحيح لهذا الاسم العربي في كتاب «المجمل في تاريخ لوياء» (١) إلا أن ما أثير
 حول هذه التسمية من جدل وأحد ورد وتأيد ومعارضة جعل من الضروري
 تناول هذه الكلمة الصحيحة شيء من العناية حتى يتبين للقراء صحتها بعد أن
 كانت الإشارة إليها غارة في هامش الكتاب السابق الذكر . ولا عبرة بأن أهل
 البلاد ينطقون «ليياء»

ونرجوع إلى المصادر العربية القديمة التي ورد فيها ذكر هذه الكلمة نجد

(١) مصطفى عبد الله بيرو . — المجمل في تاريخ لوياء . ص ١ - ٢

تؤيد صحة كلمة «لوبياء» فهذا ابن عبد الحكم في كتابه «فتوح مصر وأخبارها» يذكرها لا بالواو لا بالياء فيقول «وكان البربر بفلسطين وكان ملكهم جدوت فلما قتله داود عليه السلام خرج البربر متوحشين إلى المغرب حتى انتهوا إلى لوبية ومراقبة...» (١)

وهذا ابن رسته في كتابه «الآعلاق النفيسة» يذكرها لا كذلك بالواو لا بالياء فيقول «ثم يصير في عمل لوبية وهي كورة تجمرى بحرى كور الأسكندرية... وهذا المقربرى في خنطه وجلال الدين السيوطى في كتابه «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» يذكرها بالواو كذلك

وأما شيخ للمروبة المرحوم أحمد زكى المعروف بتضلعه في اللغة وفقهها والتاريخ الإسلامى وحوادثه ونما له من المؤلفات والشطط العلمى الذى خلده اسمه بين الباحث والمدققين فقد كتب بخصوص هذه لكلمة في قاموسه (٢) الذى أخرجه ما يأتى «لوبياء اسم اصحراء تفصل ديار مصر وإيالة طرابلس العرب وتسمى عند الإفرنج *Al Lybia* وصحة اسمها بالعربية لوبيا كما وردت في كتب الجغرافية العربية وفي طبقات الأطباء وغيره لا بالياء كما بقده المترجمون مراعاة للفظ الفرنساوىين بها مع أن لصواب في تعريب حرف الياء اليونانية «*l*» هو الواو كما هو في أصل اللغة اليونانية وبها سمي البسات المعروف باللوب»

هذا وقد تعرض المجمع اللغوى «للقاهرة لهذه الكلمة واعتمدها في معجمه الجغرافى على أنها «لوبياء» وقد ساءم في وضع هذا المعجم الأساتذة الأعلام الشيخ السكندرى والأب اسئناس الكرملى والدكتور المستشرق ليمان إلى

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها - ص ١٧٠ - (يدرسه ١٩٢٠ م)

(٢) أندركى - قاموس الجغرافية العربية - ماغرب والفرساوى - ص ٣٣ - (الطبعة

الاميرية سنة ١٨٩٩ م)

من وراء المصريين المشهور لهم بالدقة العلمية وطول الساع
 وقد استجاب لهذا الصحيح الكثير من المؤلفين الذين
 في مقدمتهم العالم الأثري الأستاذ
 سلام حسن في ده سوغته شريحة ومصر القديمة التي بدأ في استخراج أجزائها
 سنة ١٩٤٠ وغيره من مریدی العلم الصحيح والبحث عن حقائق الأشياء
 ويح حوا عما أهم عامة الكتب إلا بعد أن تأكد لم صحة كلية دلويا .

والغريب أن هذه الكلمة قد ما صادفت من تعثر في اللغة العربية قد لاقت
 الكثير من التعريف والتبديل في اللغات الأوربية إذا اختلف رسمها باختلاف
 هذه اللغات ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل كان رسمها أحياناً يختلف
 باختلاف الكتب في اللغة الواحدة وإذا كان هناك ما يبرر قبول اختلاف
 كتابتها "خداة" "الغاب" الأوربية ويطبق أهلها بل اختلاف كتابتها في
 لغة واحدة "عوا" إلى الحب وتساو، فمعص المؤلفين من البريطانيين
 "معص" "البحر" كتبها "Libya" (١) وقد يختلف رسم
 "منع" "تصمها" مجموعة واحدة تناول موضوعاً واحداً من
 أهمه "تشد" "في حال" في المجموعة العلمية (٢) التي أخرجها بعض رجال

(١) من هذه المؤلفات :

- A — R. L. Playfair: Travels in the footstep, 187
 B — A. J. Cachia:— Libya under the Second, Tripoli 1946.

(٢) من هذه المؤلفات :

- A.— David Randall:— Libyan Notes, London 1901.
 B.— Eric Bates:— The Eastern Libyans, London 1914.
 C.— O. H. Little:— Geology of Cyrenaica Part Handbook on
 Cyrenaica, Cairo, 1944 1947. (٣)

الإدارة البريطانية لبرقة الاشتراك مع بعض الإحصائيات من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٧ .

وبالمثل اختلف المؤرخون الإيطاليون في كتابة هذه الكلمة فبعضهم كتبها *Libya* كما هي الحال في المجلة التي كانت تصدرها *Libya* الإيطالية^(١) أما دائرة المعارف الإيطالية فقد كتبتها *Libia* كما هي الحال في الجزء السادس والعشرين منها . وأما المؤرخون الأمريكيون فقد تعودوا كتابة *Libya* كما هي الحال في كتاب *La Civilisation italienne en Lybie* لمؤلفه الأستاذ *Depois Jean*

هذه بحالة قصيرة نوضح لنا ضرورة الأخذ بكلمة *Libia* وفي ذلك تصحيح لاسم هذا البلد العربي كما نرى مسمى ما تعرض له اسم هذا البلد من اختلاف باختلاف اللغات الأوروبية بل وباختلاف الأفراد أنفسهم .

• • •

(١) (العدد ثلاث مئة الثالثة روما، ميلانو ١٩٤٧) *C. Rivista Della Tripolitania*

<p>كانت طريقته القيام بنة ليست لدروشة المريد وجذبة كانت معاملها كبيرة جده أعمال مجتهد بخالص نية لو كان عن شيء لغير الله في إذ لا يدوم سوى الذي هو نافع ومن الكرامة للولي نجاحه والمرؤ لا يعجبك منه ما سمى فاذا استوى عمل وحنن عقيدة إن العقيدة لا يصح يقينها «إذا أحب الله باطن عبده وإذا صفت لله نية مصلح</p>	<p>نبوة لآلآة الأمر ضاح بالف أو بالرقص أو بصياح أحياء دين وانتشار صلاح للخير متصر بغير سلاح أعماله ما كلت بنجاح للمس مرتفع عن الأرباح في النصح بالافتناع والإفصاح بن ماوى في السعى من اصلاح كان النجاح حليف كل طامح إلا بفعل ظاهر ومُصراع ظهرت عليه مواهب الفتحاح مال العباد إليه بالأرواح</p>
--	--

من قصيدة «لشاعر الوطن» الأستاذ أحمد رفيق الهدوى.

الحوادث التي أجمع السكل على اعتبارها في المسكاة الأولى من الأهمية بالنسبة للحياة البشرية والخطر إليها على أنها عامل هام في تطورها سواء أكان هذا التطور في صالح بعض الشعوب أم في غير صالح البعض الآخر . ومن هذه الحوادث السائرة بالفلسفة لشعوب أوربا انتشار الروح القومية بينها على أثر قيام الثورة الفرنسية وما ترتب عليها من ظهور دول جديدة للوجود ما كان يعرف لها اسم أو حدود . ومن هذه الحوادث أيضاً ازدياد النشاط الاستعماري الأوربي المعروف بحركة الامبرياليزم Imperialism ، وما ترتب عليها من تنافس بين الدول الأوية واصطدام مصالحها بعضها مع بعض من أجل كسب مناطق النفوذ في العالم وخاصة في بلاد الإسلام منتهزة ما حل بتركيا (الرجل المريض The Sick Man) من ضعف عام وتحلل في كيائها جعل الدول الأوربية تأمن جابها . ومنها كذلك اهتمام الفكر الأوربي إلى الاستفادة من البحار كقوة محركة واكتشاف الكهرباء وما ترتب على هاتين القوتين الطبيعيتين من اختراع في الآلات واقتلاب في عالم الصناعة والتصنيع ، كان له أكبر الأثر في تقدم الأوربيين وترجيح كفتهم على أعدائهم المسلمين المسلمين عندما استهدف الآخرون لخطر التوسع الأوربي وحاولوا صدّه بما توارثوه عن آباءهم من طرق حربية لم تعد مجدية أمام ما جد في فنون الحرب مما أتاحت الفرصة للأوربيين للقيام بأعمال عنيفة تنافي والشعور الإنساني العام وقد أخذتهم نشوة الانتصار ورأوا فيها فرصة لشفاء ما في صدورهم من حقد دفن توارثوه عن أجدادهم يوم أن زحف العرب من شبه جزيرتهم يكتسحون معالم الامبراطورية البيزنطية وينزفون أوربا نفسها وينزعون السيادة من أهلها ويوم أن فشل الأوربيون في تحقيق مآربهم عندما حملوا شملهم وقاموا بما عرف في التاريخ بالحروب الصليبية ولكن وقوف صلاح الدين لم بالمرصاد وخلفائه من بعده قضى على جهودهم المشتركة .

كان لابد أن يكون لهذه الحوادث الإيجابية التي شملت شعوب أوروبا رد فعل في العالم الإسلامي بعد أن طالت رقدته وبدأت مصر تتحرك وتستيقظ على أثر تفاقم بذور الحرية التي خلقتها وراءها الحملة الفرنسية بعد جلالتها عن مصر فكانت نهضتها في عهد محمد علي وخلاصها من نقابا العهد العثماني المملوكي الاقطاعي ومحاولتها قيادة الشرق العربي في هذه الوثبة التي قامت بها إلا أنها سرعان ما اصطدمت بالنعوذ الأوربي وتدخله إذ رأت فيها دول أوروبا الاستعمارية خطراً يهدد مشروعاتها التوسعية فسعت إلى الحد من وثبة مصر والقضاء على نهضتها وكان لها ما أرادت بفصل ما لها من قوة وتفنن في الحيل والدسائس في الميدان الدولي .

وإذا كانت هذه المحاولة التي قامت بها مصر في عهد محمد علي قد فشلت فإن اليأس لم يتطرق نهائياً إلى نفوس العالم الإسلامي وقد اشتدت عليه وطأة الحركة الاستعمارية الأوربية وبدأ يرى بلاد الجزائر رغم تضاعفها المستعمرات تقع فريسة للاستعمار الفرنسي الذي أخذ يهدد بقية شعوب الشمال الأفريقي . ولم يجد مفكرو العالم الإسلامي وسيلة تنقذهم من هذا الخطر الداهم إلا الرجوع إلى دينهم يلتمسون منه العون والمساعدة وسرعان ما وجدوا فيه ضالهم المنشودة وأيقنوا أن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن ما أصابهم من عن هو نتيجة تفریطهم فيما بين أيديهم من دستور سماوي محكم وأن الله الذي تعهد للؤمنين منهم بالصبر في كتابه الكريم حيث قال ، ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فاتبعنهم من الذين أجمعوا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين . وكما قال في موضع آخر . إن تصروا الله ينصركم ، وإنما تركهم لحصيرهم لأنهم حادوا عن السنن الأولى فقام بعض المفكرين من أصحاب العقول النيرة الذين أثارهم ما آل إليه حال العلم الإسلامي وبدأوا يدعون إلى ضرورة تخلص الدين الإسلامي مما علق به من شوائب والعودة بالمسلمين إلى كتاب الله وسنة

نبيه الكريم إذ فيها اعزاز للسليين وصمان نصرهم كما كان الحال في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده ول في حركة الإخوان المسلمين في الأعوام الأخيرة ما يقرب إلهم تلك الشوة الدبلة التي عمت العالم الاسلامى في القرن لتاسع عشر وكان من أهم هذه الحركات الديببة الاصلاحية التي طهرت خلال القرن التاسع عشر الدعوة الوهابية في نجد والحركة السنوسية في ليبيا والدعوة المهديية في السودان ونشاط بقية الطرق الأخرى في اشتهال الإفريقي وقيام حركة الجامعة الاسلامية وكل هذه الحركات الديببة وإن اختلفت الوسائل كانت ترمى إلى هدف واحد هو صد الخسر الأوربي عن العالم الاسلامى والعودة به إلى أيام السؤدد ما ستهص شعورهم ودعوتهم إلى التمسك بما في قرآهم من أحكام وسنة بينهم من تشريع وكانت أهم هذه الحركات جميعها الحركة الوهابية لصاحبها محمد بن عبد الوهاب والحركة السنوسية لمؤسسها السنوسى الكبير وحركة الجامعة الاسلامية التي وصع بذورها حكيم الشرق حم ل الدين الافغانى وقد تعهد هذا السلطان عبد الحميد الثانى إدو حديقها خير عون له صد أعدائهم من الأوربيين.

طهرت الحركة الوهابية في نجد واتحدت من شه جريرة بلاد العرب ميداناً لنشاطها إلا أن اصطدامها بالعثمانيين واقتربها ببعض اعمال لمصب جعل الكثير من العلم الإسلامى لا يعطف عليها ويضطرب إلهم نظرة الشك والارتياب أما حركة السنوسى الكبير فقد ظهرت في صحراء ليبيا وإن وضع بذورها الأولى في الأراضى المقدسة بالحجار وقد أتمع السنوسى الكبير الطرق السلية في الوصول إلى أهدافه وتحمشى الكثير من مواقف الاصطدام أبقاء على قوتهما إلى اليوم المعلوم ولم تحاول طريقته الاصطدام بغيرها إلا عندما أجبرت على ذلك أمام زحف النفوذ الفرنسى الذى أخذ يهدد نشاط الدعوة السنوسية في بلاد السودان وعندما قامت إيطاليا فيما بعد بالاعتداء على ليبيا وغزو أراضها. وإذا كانت حركة الجامعة الاسلامية قد عم انتشارها في جميع العلم الإسلامى

ووجدت لها أنصاراً في كل البلاد فإنها لم تصل إلى هذه النتيجة إلا بفضل نشاط الطوائف الدينية خصوصاً في الشمال الإفريقي وعلى رأس الجميع الطائفة السنوسية التي وقف مؤسسها ومن بعده بنوه يسدون هذه الحركة لما فيها من تقوية لتحالفه الإلامية الملاد الأخير للعالم الإسلامي من الخطر الأوربي الزاحف . وقد وضع لذلك السنوسي الكبير سياسة دينية قائمة على أسس مدروسة فيها ما يكفل للشعوب الإسلامية حريتها وعزتها . فمن هو مؤسس هذه الطريقة الدينية العملية وما هي أهم أهدافها وكيف استطاع أن يسير بها في الطريق السوي لتحقيق أهدافه الإصلاحية وما أثرها في حياة الملاد ؟ هذا بعض ما سنحاول الكشف عنه في الصفحات التالية .

أما عن نسبه فهو السيد محمد بن علي السنوسي الخطاط الحسني الأدرسي . وردا كان المؤرخون قد اختلفوا في تحديد عام ولادته إلا أنهم أجمعوا على أنها كانت فيما بين نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر (١) كما أجمعوا على أن ولادته كانت في قرية الواسطة بالقرب من بلدة مستمام Mustagham Mustagham بلاد الجزائر من أسرة شريفة النسب ترجع في أصولها إلى البيت السنوي الشريف ومراجعة سلسلة الأنساب الحاسية المعلقة على قبره

(١) يرى السيد أحمد الشريف في كتابه «الأحوال القديمة في معمعة الطريقة السنوسية»

أن مولد السنوسي الكبير كان يوم الاثنين ربيع أول سنة ١٢٠٢ هـ - ١٧٨٧ م . أما دائرة المعارف البريطانية فنشرت احلاف المؤرخين في تحديد سنة مولده بذكر الاعوام التالية ١٧٩٩ ، ١٧٩٢ ، ١٧٩٦ ، ١٨٠٣ . وأما دائرة المعارف لاسلاميه فتذكر ان ولادته كانت في سنة ١٧٩١ م . وفي دائرة معارف الديانة والفوائد Encyclopaedia of Religion محدولادته كانت في سنة ١٨٠٦ م . وفي مؤلفات الاستاذ رينشرد مجد ولادته كانت في سنة ١٧٨٧ م .

بالجنوب نجد أسماء أجداده الكرام الذين يصلونه بالبيت النبوي الشريف (١)
 فهو السيد محمد بن علي بن السنوسي بن العربي بن حموي بن عبد القادر بن محمد بن
 يوسف بن عداقة بن خطاب بن علي بن يحيى بن راشد بن مرابط بن مندا من
 ابن عبد القوي بن عبد الرحمن بن يوسف بن ريان بن زين العابدين بن يوسف
 ابن حسن بن إدريس بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عداقة بن حمزة بن
 سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن علي بن عمران بن إدريس الأصغر
 ابن إدريس الأكبر بن عداقة الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط
 ابن (عبي بن أبي طالب) وعاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبدراسة هذه السلسلة النسبية يتبين لنا صحة شرف نسبه كما يتبين لنا اتجاؤه
 إلى الإدارة الدين سبق لهم تأسيس دولة على يد إدريس الأكبر في مدينته
 وليلى عمراكش في سنة ١٧٢ هـ والتي نقل مركزها ابنته إدريس الأصغر من
 بعده إلى مدينة فاس العاصمة الجديدة لدولتهم . وقد طلت دولة الإدارة تحكم
 البلاد طيلة قرون من الزمن إلى أن نعلب عليها وعلى ما تفرع منها من دويلات
 أخرى الأمويون في الأسلس في القرن العاشر الميلادي والفاطميون قبل
 مجيئهم إلى مصر وترتب على ذلك انتشار أفراد أسرة الإدارة في كافة بلاد
 المغرب والأقطار المجاورة . ومن إدريس الأول مؤسس دولة الإدارة أخذ
 السيد السنوسي الكبير لقبه والإدريسي، كما أخذ لقبه الخطابي من جده خطاب
 ابن علي . أما لقبه السنوسي فقد استمده من جده السنوسي بن العربي الذي
 يقال أنه قد أخذ بدوره هذا التلقب من قبيلة بني سنوس إحدى قبائل تلمسان
 بالجزائر وقد نزل بجوارها . وهذه القبيلة بدورها قد اكتسبت هذا الاسم على
 ما يقال برواها إلى جوار جبل يسمى واسنوس ، بالجزائر . على أن عائلة

السوسى الكبير كانت في بلاد الجزائر وما زالت تعرف بعائلة الأطرش وهو لقب عرف به السيد العربي الأطرش الحد الأكبر للسوسى الكبير . أما اسم والدته فلم يصل إلينا فيما كتبت له المصادر التاريخية

وإلى جانب ما عرف به السوسى الكبير من شرف النسب عرف كذلك بشهرة عائلته العلمية والتفرغ إلى كل ما يمت إلى العلم صلة . فالتاريخ يحدثنا بأن جميع أفراد عائلته قد انتسبوا إلى العلم سواء في ذلك والده أو أعمامه بل إن الكثير من سيدات بيته قد عرفن بهذه الناحية العلمية كذلك . وإلى عمت السيدة فاطمة يرجع الفصل الأول في نشأة السوسى الكبير نشأة ديدية وتعليمه المبادئ الأولى من العلوم المختلفة لما كان لها من دراية في هذه الناحية أهلها للانقطاع للدرس والتدريس والوعظ والإرشاد وكانت حلقاتها العلمية يتردد عليها الكثير من الرجال . وبمثل كانت جدته لآية على خط كبير من العلم وإن لم تحل للتدريس أما أبوه السيد على فقد توفى شاباً في الخامسة والعشرين من عمره وقد عرف في شبابه بفر وسيته ومراوثة أنواعها المختلفة إلى جانب ما عرف عنه من ميل للعلم ودراسته . وعى أثر وفاته قامت عمته بالإشراف عليه وتعهده برعايتها فأحسنت القيام بالمهمة وعرفت كيف تنهى له أسباب النجاح .

هذه العناية بريئة عن الدشأة العائلية للسيد السوسى الكبير وهي مع احتصارها أشد ترويحاً لها صورة واضحة عن بيته العائلية التي بدون شك قد تركت لها أثراً واضحاً في نفسه كطفل ومن ثم كشاب يتلقى العلم ويعد نفسه بمهنة حياة أحد يرسم معالمها ويحدد أهدافها وخطواتها الضرورية . أما عن حالة بلاده الجزائر بصفة عامة فقد كانت تعاني ارتباكاً عاماً بسبب سوء حكم (الدايات) لها وضعف سلطتهم ، أطمع فيها الاجبي وعرضها للغزو الفرنسي فيما بعد . وكان من الطبيعي أن يكون لهذه الحالة أثرها السيئ في نفسه وأن تعثره الارومات النفسية من وقت لآخر بسبب ما يراه من حالة سيئة أخذت

تعم البلاد وسبب ما في هذه الحالة مما يتعارض وما شب عليه وتلقته من مبادئ على يد أفراد بيته وأقاربه كل ذلك ترك أثراً كبيراً في تطور حياته فيما بعد. والسنوسى الكبير وإن كان جـزائرياً في نشأته إلا أنه يلتصق إلى البيت النبوى الشريف فهو حيث يحمل ينزل بوطنه فقد أوقى أهل البيت القدرة على اعتبار العالم الاسلامى كله وطناً لهم وطناً لحاوا إلى أطرافه أو رجعوا إلى مركزه بحسب ما يتعرضون له من الاصطهاد .

بعد أن تلقى السيد السنوسى الكثير مبادئ العلوم في أسرته وعلى يد عمته السيدة الزهراء حاضرة التحق بأحد معاهد مدينة مارون MARIUN بالجزائر للاستفادة العلمية حتى إذا أتم علومه بهذا المعهد ذهب إلى مدينة فاس للانحاق بجامعة القرويين بها حيث كانت تأنى وفود الطلبة للانحاق به من كافة أنحاء بلاد المغرب لما يتمتع به من مكانة ولما كان لأساتذته من شهرة خاصة ويكفى القول أنه في مهمته العلمية كان لا يقل عن الأزهري الشريف بالزهرة وجامع الزيتونة بتونس . وهاك أحد السيد السنوسى الكبير يدرس التوحيد والعقيدة والتفسير وبقية المواد الأخرى التي كان يدرسها طلبة العلم في ذلك الوقت . وإذا كان السيد السنوسى الكبير أثناء دراسته العلمية بجامعة القرويين بنفس قد عرف التصوف بتقليده على يد الشيخ أحمد التيجاني صاحب الطريقة التيجانية (١) فإنه بدون شك قد استعرض في ذهنه تدرج أسرته القديم عندما كان الإدارة يسودون ويحكمون وعندما حللوا مجدهم التاريخي بقائمة دوائهم وتأسيس عاصمتهم فاس ورأى معه يدرس في الجامع الكبير ابني أمشاه

(١) أمشاه شيخ أحمد التيجاني في سنة ١٠٧٠ هـ في نهاية القرن الثامن عشر. وإليها يرجع أكثر تفصيل في نشر اثنين لألـامى في عرق أفريقي. وهو متفرعة من الفرقة العلوانة التي ظهرت بوجود في القرن ثالث عشر لملاي . وفى شيخ أحمد التيجاني في ١٧ شوال سنة ١٢٢٣ هـ .

أجداده كما درس معه ومن قبله آلاف غيره من الظلم . ولا شك أنه قد حاول تفهم الأسباب التي أدت إلى أليم دوائهم فيما بعد وقارن أيهما الأخيرة بما كان يراه من تدهور في بلاد المغرب بصفة عامة وبلاد الجزائر بصفة خاصة بما جعلها فريسة سهلة للعدوان الفرنسي فيما بعد إذ أنها كانت أولى البلاد الإسلامية في بلاد المغرب خصوصاً للاستهجار الأوروبي بعد تجربة الفرنسيين الفاشلة في مصر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ولا شك أن هذه التأملات النفسية قد أوجدت عنده شيئاً من الإيقص وهو يقدر بين حال المسلمين في ماضيهم الذهبي وحاضرهم الذي تعصف به الأفار ولا شك أيضاً أن تلك التأملات النفسية والمقارنات التاريخية قد شعلت جرماً كبيراً من تفكيره إن لم يكن كله ودعته إلى ضرورة الاهتمام إلى الأسباب التي أدت إلى هذا التدهور الذي حل بالمسلمين وسرعان ما تنح في تشخيص حالة المسلمين لعامة وتحديد أسباب تدهورهم مما ساعده على وضع الخطوات الأولية للإصلاح الدائم ولكنه قل أن يقوم بتحقيقها عملياً رأى من الضروري القيام برعاية الأراضي المقدسة حيث مهبط أوحى وحيث عرف الإسلام قوة الأولى حتى يستمد من ذلك قوة له وحتى يمد يده بحجة ما استواه من آمال إصلاحية شاملة رأى أهم سنلزمه بالكثير من الصبر مع الاستعانة بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف ولا يحب في أن يقوم السيد السنوسي الكبير بهذه الرحلة فإن أولئك الذين سبقوه في الدعوة إلى "عمدة الإسلامية الصحيحة" وتخلصوا مما علق بهم من حرافات وسع قد سبقوه أيضاً في القيام بمثل هذه الرحلة . فبالأراضي المقدسة بالحجاز أثر روحى قوى في النفس لا يعرفه إلا أولئك الذين قدر لهم مثل هذه الرحلة وخاصة المتصدين منهم للحركات الإصلاحية ومن أجل هذا شرع الإسلام فريضة الحج على القادرين عليها من المسلمين .

ترك السنوسى الكبير مدينة فاس فى الثلاثينيات الأولى من عمره قاصداً
الحجاز ماراً بجنوبي الجزائر إلى مدينة قابس بتونس على ساحل البحر الأبيض
المتوسط ومنها إلى مدينة طرابلس الغرب قبللة مسراته فمدينة بنغازى سالكا فى
رحلته هذه طريق الحج المعروف وهو يهدى إلى فكرته الإصلاحية الجديدة
بدعوة الناس إلى العمل على تفهم عقيدتهم الدينية الإسلامية الصحيحة والتمسك
بها حتى يكون لهم فى ذلك خير منفذ لهم ولتراثهم التاريخى المجيد . ولقد كان
التوفيق حليفه منذ بداية رحلته هذه إذ استطاع أن يستميل إليه بعض
الأشخاص فكانوا له خير رفقاء فى رحلته هذه ثم خير رواد لدعوته الإصلاحية .
استمر السيد السنوسى الكبير فى رحلته هو ومن التحق به حتى وصل
إلى مدينة القاهرة وهناك أقام بعض الوقت وقد راودته فكرة الالتحاق
بالأزهر الشريف واتمام ما بدأه من دراسة عليية ولكنه اضطر أن يستجيب
لما فى نفسه من رغبة ملحة فى صرووة القيام بفريضة الحج وزيارة قبر صاحب
الرسالة ولهذا لم تطل إقامته فى القاهرة أكثر من عدة أسابيع وكان له فيها
وجده من روح معادية من جانب علماء الأزهر ما أسرع به إلى اتمام رحلته
هذه . وجد السيد السنوسى الكبير من علماء الأزهر نفوراً قوياً وبدأ هو لم
شاباً يحاول الخروج عما ألفه العلماء من دعة وراحة وتسليم مطلق للحاكم المستبد
إلى جانب جمودهم وضيق أفقهم العلمى الأمر الذى لا يتناسب ومكانة الأزهر
الدينية وما تحتمه عليه مكانته كأكبر جامعة اسلامية يقع عليها عبء ارشاد
المسلمين وتصيرهم وقد استطاع محمد على والى مصر أن يسيطر على علماء الأزهر
ثم أن مهدوا لولايته على مصر ولم يكن والى مصر ليرحب بالسنوسى . ولعل
موقف علماء الأزهر منه موقف موعز به . كل هذه الأسباب عجبت بتركة
للقاهرة وسفره إلى الحجاز وهناك عاش ست سنوات وهو يدرس فقه الدين
الإسلامى على يد صفوة مختارة من علماء مكة المكرمة والمدينة المنورة دارساً

لمشاكل المسلمين متصرفاً لأحوالهم كلها أفضل موسم الحج وكلما طالت اقامته بالأراضي المقدسة ازداد فهمه لداء المسلمين وراد دقة في وصفه للدواء الباع وهو في أسماء كل هذا لم يكن وطء الأول الخرائط وما ازداد به الحين اليه عاد إلى الجزائر حوالي سنة ١٨٢٩ وبقي هناك حتى سنة ١٨٣٣ ثم عاد مرة أخرى في هذه السنة الأخيرة إلى بلاد الجبل لإتمام ما بدأه من أعداد نسبه بالوسائل اللازمة لحركته الإصلاحية وربما كان السيد السنوسي الكبير قد رأى من الضروري تحاشي الاصطدام بالفرنسيين وقد غروا بلادهم وهم في عقوان قوتهم الساطنة فمن أن يعد الأمر عدته حتى لا يعطوهم فرصة القضاء على دعوته الإصلاحية. ثم إنه التي كانت تهدف إلى توحيد كلمة الاسلام أمام خطر الأوربيين الراحين. ولا شك أيضاً أن لملفات الفرنسية قد وصفتها أثناء دعوته هذه ورأت فيها ما يهدد كيانها إذا استجبت شأها بديد أصاره ومريديه فاجأت إلى تصديق الحاشي عليه وهكذا وجد السيد السنوسي الكبير نفسه مدد اللحظات الأولى لدعوته الإصلاحية قد بدأ يصطدم بالأجنبي الغاصب القوي ففصل الابتعاد عن الأتباع واختار الأراضي المقدسة مبعأ له في هذه المرة كدراك. وأحد بعد نسبه بتمام هذه الرحلة البرية الشاقة. وهكذا كانت حملة الفرنسية على الجزائر أقوى محرك لشعور هذا الشعب الطموح والبداهة في حكمة الدعوة لإصلاح حال المسلمين بعد أن وضع يده على سر تدهورهم الذي أطمع الأجنبي الغاصب فيهم.

وفي رحلة السيد السنوسي الكبير إلى الأراضي المقدسة أصبح معه من أهل المغرب كاحوان له لارموه طوال اقامته التي استغرقت هذه المرة ثمان سنوات واطب في أثناءها على الدرس والتحصيل على يد أساتذة مكة وفي

مقدمتهم السيد أحمد بن إدريس الفاسي الرئيس الرابع للطريقة القادرية المراكشية (١) التي تهرعت بدورها عن الطريقة الشاذلية (٢) وقد أصبح السيد أحمد بن إدريس فيما بعد المؤسس الأول للطريقة المعروفة بالطريقة الإدريسية أو الطريقة القادرية الإدريسية وكان التجارب العظمى والروحي قوياً بين السيد السنوسي الكبير وأمتاده حتى إن السيد أحمد بن إدريس عندما وجد نفسه مجبراً على ترك بلاد الحجاز والالتجاء إلى اليمن أمام ما أثاره في وجهه علماء هناك من معارضة قوية له ورميه بتهمة محاربة المذهب المالكي وقد جاءت به منة الرسول احترام السيد السنوسي الكبير لمحبته في هذه الأرحام لم توسمه فيه من تجاوز روحى فصلاً عن فهم كل منهما ثم وقد رفقها كذلك السيد الميرغني أحد التلاميذ المدحجين بالسيد أحمد بن إدريس وهذا الذي يبين عيش السيد السنوسي الكبير عامين مواصلة التدريس والتحصيل على يد أساتذته وأجداد في رفقة السيد الميرغني خير مشجع له على تحمل آلام التبعة واسعة عن الأهل والأوصان حتى إذا انتقل السيد أحمد بن إدريس إلى جوار ربه قام من بعده تلميذه السيد السنوسي الكبير والسيد الميرغني بتبنيهم أساعه :

(١) هذه الطريقة تأسست من طرف الشيخ أحمد بن إدريس الفاسي في القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) وقد دخلت الطريقة القادرية إلى بلاد المغرب في القرن الخامس عشر على أيدي مهاجري واحدة توات Tawat في المغرب ومرت من مرابو الزعيم المراكشي رشيد على الكيلاني صاحب درر المروقة في المراكش من أجداد مؤسس هذه الطريقة وهو يعيش الآن لاجئاً عند الملك عبد الحميد بن السعود في عاصمته الرياض

(٢) من أهم طرق دينية في الشرق الأوسط ومنها فرع كبير من يعرفه الديوبندية وكان مؤسسها أبو الحسن شاذلي من رجال القرن الثالث عشر الميلادي (البايع الهجري) .

طريقتين فرعيتين هما الطريقة الميرغنية التي أخذت تشق طريقها في السودان
المصري الاثني عشرى فيما بعد والطريقة السنوسية التي تولى زعامتها الأولى السيد
السنوسى الكبير وهناك فوق جبل أبى قبيس في مكة المكرمة أنشأ السنوسى
الكبير الراوية الأولى لطريقته السنوسية الجديدة ويمكن اعتباره سنة ١٨٢٧
بداية ظهورها بمرحوش . ونفص ما بدله من جهود موفقة في سبيل طريقته
الجديدة صادف اقبالا من أهل البحار وما رلنا إلى يومنا هذا بعد تعاليم
هذه الطريقة منتشرة بين أفراد قسمة حرب البصرة أطبقها فيما بين مكة وأديرة
بحداء البحر . وقد ما رلنا يواظب أفرادها على الاعتراف بالشفعة لمبادئ
هذه الطريقة ويعبرون عن شعور ولائهم لها بدفع الزكاة إلى الروايا السنوسية
المنتشرة هناك وما رلت راوية أبى قبيس لى نزل من فوق جبل أبى قبيس
على الحرم المكي ، عامرة إلى يومنا هذا تحت أشرف شجرتها .

...

...

...

عمر أن عبد المجاح الذى صادفه السيد السنوسى الكبير في "تتبع القبايل"
الحجازية البدوية حوله قد أثر عليه حميد الآخري فبدأوا بإصروا به **عبد**
كما دعوا أسنائه السيد أحمد بن ادريس من قبله وبدأت "سلطات تعاليمه"
كذلك تساردها اشكوك ونحسب لنشاطه ألف حساب مدفوعة في ذلك مما سبق
لنا أن عاتيه من حشرات نشاط الرعيم المصلح محمد بن عبد الوهاب وحركته
الوهابية ولهذا رأيت لعمري على الحسد من نشاطه وتقييد دعوته الإصلاحية
مما لا يخطر تنويعه وقد ساعدها على ذلك ما قدم به علماء مكة من معارضة
قوية له بحجة تنسبه بشيخ الجندب في أمته الاسلامي كما أن أشرف مكاتبهم
بدورهم في حصر هذه المصاعب خوفاً على مكاتبهم بين الشعب . وهكذا
تعالمت هذه تيارات ثلاث بما لها من مدد رمنية ودينية . عند ذلك

لم يجد السنوسى الكبير بداً من ترك الحجب ، كما فعل أسنده السيد أحمد بن إدريس من قبله وولى وجهه شطر بلاد المغرب في سنة ١٨٤١ م مستحثاً معه بعض أتباعه . وبعد أن أقام عدة شهور في مدية القيصرية لم يسلم فيها من مهاجمة علماء الأحرار له وأصل رحلته غرباً إلى واحة سيوة حيث اضطر أن يطيل فيها أقامته بعض الوقت لما ألم به من مرض ومع أن هذه الفترة التي أقامها في واحة سيوة كانت أشبه بفترة استجمام له إلا أنه استعمل في تعليم أهلها وتلقينهم مبادئ دعوته الإصلاحية الجديدة . وهكذا كانت تلك الأيام أوسع المعدودة التي أمضاها في واحة سيوة كإسهامه في تدوير الدورة السنوسية بين أهلها وترك هبة تعهد لسنوات المقبلة . ثم وأصل سيره غرباً بالطريق الصحراوي حتى وصل مدينة طرابلس الغرب في السنة الثانية وهو - كما استراح بعض الوقت قبل أن يستعد لمناخه رحله نحو تونس ولكن الأحمار جهده وهو في طريقه إلى مدية قاس بالانتصارات الجديدة التي أحرزها الفرنسيون في بلاده الحمرائر وسطهم "سادة عاين" فرأى من الصروى "القفص" عبر متابعه رحلته هذه والعودة مرة أخرى إلى مدينة طرابلس الغرب ولكن لم يبق فيها هذه المرة من وأصل سيره إلى مدينة بنغازي حيث انتهى به المقدم في إقليم برقة .

لا ندرى عما إذا كان "سيد السنوسى الكبير قدس" في أقامته البهائية في إقليم برقة محرراً أو أنه أحار هذه الإطاعة لما توفى في هذه البلاد من أسباب وحد فيها خير معين له في دعوته الإصلاحية الجديدة . واقع أن هذه النقطة هامة بالنسبة لتاريخ الحركة السنوسية من حيث ولما يجرى البلاد من جهة أخرى وعليها أن نقف عندها محاولين تفسيرها وإن كانت الأدلة متوفرة لتأييد كل من القولين .

وجد السيد السنوسى الكبير الطريق إلى بلاده الجزائر مقلداً بسبب تقدم

الفرنسيين فيها كما تبين له بعد أن وصلته أخبار هذا التقدم خطر متابعة السير إلى الحرة - إثر رد في ذلك معامرة معه وقد كانت نتيجةها القضاء على حركته لاصلاحه ساشنة التي لم تكن قد قويت بعد لتقف أمام مثل هذا التيار الأولي أقوى وهو في عصف سطوته وادى لن يترك أمامه أي مجال للنشاط. أما مدينة طرابلس فقد كانت كذلك في حالة من الفوضى والارتباك وقد عاد إليها سلطان العثمانيين من جديد بعد انقضاء عبي سلطنة الأسرة القره مانلية ووزع سبيبه السلاط من أفرادها ولا شك أن الأتراك وقد عاينوا حديثا إلى طرابلس لن يتركوا له ولا مثله فرصة انقسام بأي نشاط ربما كان من ورائه السعي إلى تنظيم أي مقاومة شعبية لسيادتهم وهماء استعمار هذه الولاية بعد أن فتدوا الساعقة عليها طبعه حكم الأسرة القره مانلية أه في الجهات المجاورة مدينة طرابلس العرب فلم تكن الحملة بها بأحسن عما كانت عليه في المدينة نفسها من كان في بعضها من العوامل الأخرى ما يريد المضاعف أمام حركته التي كان يحشى عليها المعرض لأي ضغط قوي وهي ما رأت في الدور الأول من نموها وقد كفاه ما عاناه في مكة نفسها في سبيل المحافظة عليها .

أما بلدة طليتين التي أقام بها بعد تركه لمدينة طرابلس العرب وتعرف فيها بعائلة ابن بركة من قبيلة الفوائير المشهورة بالشرف والعلم والودع فقد حاول أن يتحد منها مقاما له وأن يقيم بها رواية له إلا أنه اضطر أخيرا أن يرجع عن محاولته هذه وأن يواصل السفر إلى الشرق . وإذا كان بعض كبار السن من إحدى طليتين الذين ما زالوا على قيد الحياة يظنون ذلك سماع السنوسي الكبير لصيغة حبا المريق الفيتوري المعروف بصلاحه ونفواه والذي طلب منه أن يترك طليتين ويذهب إلى واحة الجعوب لسماء راويته هناك ، وإذا كان مرددو هذه الرواية يرون فيها تعليلا لا يبطال ما انتواه السيد السنوسي الكبير من إقامة في طليتين واتحادها مقرأ حركته إلا أننا نستطيع أن نقول أن السيد

السومى الكبير قد استطاع أن يفهم جيداً ملحة طلبين وما يسودها من ظروف خاصة بحكم وجود قبر الولي الصالح عند السلام الأحمر الميتورى به وما كان له من أثر قوى فى نفوس أهلها بما قد يعرض دعوته إلى الاحتكاك بهم إذا شيد زاويته هناك واتخذ منها قاعدة للتشجير نظريته الجديدة لهذا فصر الرحين عنها والاعتماد على أى اتصال توفيراً لما كان سبيله من جهود فى مكافحة تيارات قد تشعل عن صميم دعوته الإصلاحية أى كانت أعم وأشمل وقد تشعبه عن توجيهها الوجهة الصحيحة السليمة .

بعد أن ترك السيد السومى الكبير يد طلبين مصطاحاً معه الشبح عمران بن ركة أجه شرفة ماراً سدة مسراه . فما مرة بها راوده لتذكير فى أن يتجدها منسأماً له إلا أن طسروها لم تكن بأحسن حالا من ملحة طلبين يد سبقتة إله الطريقه المديه لمؤسسها محمد بن حمزة طهر المذنى والتي بصت فى ذلك الوقت أوح قوتها وقد اتخذت لها من باده مسرانة قاعدة له حيث يقوم قبر مؤسسها السابق الذكر لقد كان السنوسى الكبير مسأداً فى تأسيس طريقتة ودعوته الإصلاحية ولذا كان كثيراً ما يتجنب مواطن الاصطدام لا يسمم فى عقيدته الإصلاحية ولا يقصو . عم نصب نفسه له مرعية ولكن توفيراً لجهوده وعدم تشييب وهي مرات فى دور التكوين حتى يصغر سلامة الأسس القويمة لدعوته الإصلاحية واستعداداً للمستقبل الذى سيتطلب منه الكثير من الجهود بعد أن يشتد ساعد حركته ويتبأ لها اكتساح ما يعوق نجاحها هذه كانت سياسة السنوسى الكبير فى تأسيس حركته الإصلاحية وهذا ما يمكن أن نعلن به كثرة تنقلاته ونقل مركز دعوته من مكان إلى مكان آخر حتى إذا جاء أنه من بعده ووجد من قوة حركته ما شجعه على تعبير هذه السياسة فمن ذلك وأحرر النصر فى الكثير من المواقف

تابع السيد السنوسى الكبير سيره نحو الشرق وهكذا وحد نفسه بجراً

على اتخاذ رقة مقاماً له بالطريق إلى المغرب وبلاد الجزائر والدلت مسدود
أمامه باحتلال انفرنسيين بلادها كما أن الحالة العامة في لوبيا العربية ليس فيها
ما يشجعه على الإقامة بهم والاعتماد عليها كقاعدة لدعوته الإصلاحية الجديدة
لما كان مسودد من ظروف سياسية واجتماعية أما التفكير في الذهاب إلى
الاهرة فلم يكن هناك ما يشجعه عليه بل كان هناك ما يدفعه إلى الاعتقاد في
عنته من هذه الخفولة وقد سبق لنا أن ذكرنا أن علاقاته لم تكن طيبة مع
محمد عي والى مصر في ذلك الوقت فضلاً عما كان يصحبه له بعض علماء الأزهر
من عداوة انحدرت شكل المهاجرة والانتقام الديني أما العودة إلى بلاد الحجاز
من جديد فلم يرتفع له إليها خبرته السابقة بأحوالها ولهذا فصل الإقامة في إقليم
برقة وكانت ظروف هذه البلاد وأحوالها مهبطاً لسول دعوته الإصلاحية
والتقى لهما سلاماً جهوده وحميتهم من الوجات العنيفة التي قد تعرضوا
لها هناك أحسن الاستجابة الكبر احتسب الثروة الضالحة لوضع بذور
حركته لمشاركة فكان التوفيق حليماً وكان الانتشار الباسع لدعوته . وهكذا
احتار هذا المصلح الكبير وصمته وبحول دعوته .

وإذا كان الموقع الجغرافي لشبه جزيرة رقة قد لعب دوراً هاماً في
ترويج هذه البلاد وحياة أهلها فإن أثره كان أوضح ما يكون في قيام الحركة
الانوسية وانتشارها فيما عدوى ببرورها في البحر الأبيض المتوسط وعزلتها
عن ذلك ليل سبعة كيلو متر من الأراضي الشبه صحراوية قد كانت في أم
من طمع محمد عي والى مصر الذي أخذ يعمل على توسيع رقعة ولايته
بالتوسع في السودان وبلاد الشام ولا شك أن محمد عي قد ربما ينظره إلى
بلاد المغرب وحاول أن يرث الدولة القردماطية المتداعية في ذلك الوقت وما
تفكيره في مساعدة انفرنسيين في الحملة على الجزائر إلا دليل على هذا الانحياز
والتفكير في شأن لوبيا . وإذا قدر لمحمد عي النجاح في فتوحاته ببلاد الشام

وطال به العمر بعض الوقت لكان من المرجح أن يتجه نشاطه الحربى فيما بعد نحو المغرب وليسط نفوذه على برقة بل كل الأراضى اللوية كما فعل ولاية مصر من ملوك الصالة الذين سبقوه فى الحركة الاستقلالية بمصر وتأمين حدودها بالاستيلاء على ما يجاورها من البلاد الملاصقة . وهكذا كانت هذه العرلة الصحراوية من جهة الشرق وقيام الدعوة السنوسية فى برقة فى الوقت اسى بدأت فيه جهود محمد على التوسعية فى الابهيار خير واق لها من خطر محمد على وأطاعه . وبرقة من العرب تفصلها أرض شبه صحراوية كذلك عن طرابلس العاصمة التى عاد إليها النفوذ العثمانى فى أقرى ما يكون بعد اهبيار حكم الأسرة القره ماندية وعودة البلاد لحكم العثمانيين . وكان لبرقة فى هذا المعد خير حام لها من الحكم العثمانى المشر الذى كان أوضح ما يكون فى طرابلس العاصمة . وإذا كانت اسبادة العثمانية قد عادت إلى لوبيا بأحدها بعد روال حكم الأسرة القره ماندية فإن ذلك لم يكن واحداً تماماً فى جميع أنحاء برقة بل اقتصر على المدن الساحلية بصفة خاصة ولم نصل إلى ما كان عليه الحال فى المدن الساحلية الأخرى بلوبيا الغربية بحكم قربها من العاصمة حيث مركز السيادة العثمانية .

أما أهلى برقة فقد كانوا وما زالوا من أمم الخاضعين للنظام القلى إذا استشبا المدن الساحلية . وإذا كانت القبائل العربية التى عزت البلاد وأقامت فيها قد احتلضت بما سقها من عناصر بربرية وعيرها فإنها على العموم قد احتفظت بحياء الساطع الأمير المعقدة . وإذا كانت هذه القبائل العربية قد اعتنقت الدين الاسلامى منذ قرون متدولة قبل مجىء السنوسى الكبير إليها وتأثيره فيها بدعونه الاصلاحية إلا أنها بحكم الزمن ونوالى الدين وتكاسل الأئمة المسلمين فى مهمتهم قد حادت عن الأصول لصحيحة للعقيدة الاسلامية كما حدث لغيرها من أهالى البلاد الأخرى بما جر البلاء على العالم الاسلامى الواقع أن السبب السنوسى الكبير قد وجد أهالى برقة مؤلفين من البدو

المسلمين ورآهم في عقيدتهم الدينية مقدسين لا عن فهم حقيقى ولهذا لم يكن السنوسى الكبير يدعو شعباً وثياً ليفهمه حقيقة دينه ويصره بما جاءت به تعاليم هذا الدين فهو كان في حركته مصلحاً ومرشداً ولم يكن داعياً لعقيدة جديدة لم تكن معروفة قبلاً بحيث بل كانت مهمته العودة بالأهالى إلى أصول الدعوة الاسلامية الصحيحة وإزالة ما علق بالمعتقدات شوائب. وإذا كان السنوسى الكبير قد وجد على رقة ماذرين في غيابات الصلال معرضين لخطر الاصحلال السريع من الوجهتين الدينية والخلقية فأراد أن يلتصقهم من هذه السقطة ، كما يقول الرحالة أحمد حنين في كتابه (١) ون هذا الوصف بعض ما كان يشترك فيه أهالى برقة مع بقية البلاد الاسلامية الأخرى إلا أن السنوسى الكبير رأى في المجتمع البرقاوى خير فرصة لإجراء تجربته الإصلاحية لما امتاز به من قوة في عدد السكان لا تتطلب جهوداً كبيرة وأشخاصاً كثيرين وزمناً كبيراً. كما كان هذا المجتمع أكثر نجاساً في تكويبه الجلسى وحلوا من الأقليات التى تفت دائماً في عصم الحركات الإصلاحية. وهكذا كانت هذه البلاد خير حقل لإجراء هذه التجربة الإصلاحية حتى تكون نتيجة العمل فيها مقياساً يستفاد منه في نشر الدعوة الإصلاحية في البلاد الأخرى.

لم يكن يحى السنوسى الكبير إلى برقة من بلاد المغرب الشىء الجديد بالنسبة لأهالىها وكان الجديد هو دعوته ولم يقبل أهل برقة هذه الجدة إلا بعد دخولهم في الدعوة فكثيراً ما رأى بدو برقة العالم وهو في طرهم كل شخص يستطيع القراءة والكتابة وكانوا يهدون إليه بترية أولادهم ويستعينون بما يقدمه لهم من إرشادات كما كان يقوم بتعليمهم القواعد الاسلامية حسب فهمه لها

وأستعدادهم لقبولها كما عرف بدو برقة كذلك المحكم، *murakkar*، الذي كانوا يعطون به أمر الحكم غيا يقوم بينهما من حصومات وسدعات كما كان يقوم سويو ينفذ في السياسات وهو في لغة رجل غرب عن البلاد وأهلها وقد كانوا راعون مربي راحته وعدم محابته لأهل طرف من المتخاصمين كما أنهم عمهوا بومة آخر من الرحى هو المراط الذي أشهرهم بالتدين واستعدادهم فعبه، صاحب العيون منه في المساء وكانت بلاد المغرب أحراراً المنخفضة عند قارة برقة بها السوسى العلماء والمحكمين والمراد حتى من محيى لسوسى الكبير، وبديته، يعود الاصلاحية الجديدة وقد وجد منهم اثنين قد اشتهروا بين سناش كان أحدهما أحمد بن عبد الله السقورى *Isakkur* وكان يعيش في الخيمت العربية من برقة أما الآخر فهو المرتضى هر كاش وكان يعيش في طرف الشرق من الخيال لأحضر وكان كل منهما يقوم بتعليم أبناء القبائل المحولة له وفصل المنزعات بين الأهالي وقد أصبح كل منهما من أنصار لسوسى الكبير وقد نولى أحفاد كل من هذين الشجعان رئاسة بعض الروايف السوسية في بعد ولو وقع أن قاتل برقة مديته كثير أهولاه ارجح لأنه رغم ما كان عليه بعضهم من جليل إلا أنهم علموا القتل عدوة احترام نعم وغرسوا في نفوس أترادها محبة الدين وتعمير على المحبة على هذين الأسس يستمرار، وهكذا كان في نشاط مثل هؤلاء الرجال على ما فيه من حسن حير محمد لسر دور الدعوة السوسية الاصلاحية بين قبائل برقة لأن أصولها قد تعلمت في نفوسهم بفضل جهود مثل هؤلاء الرجال أو على حد تعبير الأستاذ ايفز بريتشرد قد انعرت في عظامهم، *„It is planted in their bones“* (١)

جاء السوسى الكبير إلى إقليم برقة وقصد الجبل الأحضر الدات وهناك

فيما يعرف الآن ببلدة داسماء، حيث قبر الصديق المعروف رفيع الأوصاف
اتخذ السنوس الكبير معه له ودا في وضع أساس راوثة الأولى في لوبيا
سنة ١٨٤٣. ولم يكن اختياره ل... سنة اعتصاماً براء على داسة وتفكير
عميق. وفي من حيث الحاج فنيب و... والخصرة لدقة شيء يجمع
عيب وصفه... من حيث الموقع وفي توسعها في الحبل أنحصر بمكانها
أن أثرت عليه سهولة رحيل أصحاب على اتصال دائم ببقية مراكز الحياة
الأخرى كما أن قبر... من أطلال قريتنا المعروفة آنك بشجرات حمراء
يستطعمون استغلال أحجار هذه الأطلال في تشييد مبانيهم وسرعان
ما أردموا مثل هذه الراوثة وأصبحت تراثاً لهم جميع الروايات الأخرى
التي شيدت فيما بعد.

...

...

...

وساء هذه الرواية بعد صدور الأول من دعواه في لوبيا أي كانت
بداية الحقبة الأولى في مسيرته الإسلامية التي حثها بحركته الإصلاحية
ذلك أن سيد السنوس الكبير قد أعجبه الخلة بما كان في آل أبيه لعدم
الاسلام حتى أصبح هذه طريقة السنوس في داره وعنده بركة لكل من
عقب من السنوس في دارية وهو... إلى عهد قريب وقد شهد
بفسه كيف سقطت البلاد حين انزاعه في أسوأ الظروف وأصبحت
صحفة... ركة الاستعمارية الأوروبية التي أحبطت مركز جهودهم في القدرة
الآن... طيبة القرن التاسع عشر ولم يكن السنوس الكبير وشخص العدي
السنوس ثمة من هذه الحوادث دون أن تشير اهتمامه أو يلتفت إلى
التعكير فيها ومحاولة إيجاد مخرج منها ولم يكن ذلك من الصعب عليه
بحكم مسه ولسانه ونزيبته وثقافته وطموحه ورحلته المتعددة التي ساهمت

كثيراً في توسيع مداركه وفهمه الدقيق لحمل المسلمين عامة لذلك كان موقفاً في تشخيص الدواء الساجع لهذا الداء الاستعماري الأوربي الذي أخذ يهدد كيان العالم الإسلامي . رأى السيد السنوسي الكبير الأناجحة للعلم الإسلامي بما يمايه من أزمات شديدة إلا بعودة أمته للإسلام الصحيح الذي كفل لهم العزة يوم أن كانوا خير مسلمين عرفوا على عقيدتهم متمسكين بتعاليمها على هذا الأساس قام يدعوا لقبائس في برقة ويشر يذهباً بحركته التي نادى بضرورة العمل بالقرآن الكريم واستنة المحدثه الشريفه وعدم الاكتفاء بالأدكر والأوراد . الاعتقاد على مجرد الملاوة والذكر دون العمل الحدي ومراعاة أحكام الشرعة الإسلامية في لأعمال الخاصة والعامة كما كان العهد في أيام الرسول والخلفاء الراشدين من بعده . وإخلاصه أن السنوسي الكبير كان يرى ضرورة قيام الحكم في البلاد الإسلامية على أسس إسلامية شرعية صحيحة في ظل أمام عادل يجمع بين الزعامة الدينية والزعامة السياسية جماً فعلياً .

...

...

...

ومع أن الطريقة السنوسية التي وضع أسسها السيد السنوسي الكبير سنة ١٨٣٧ تعتبر من أحدث الطرق الدينية بالنسبة لربيلاتها الأخرى التي بلغ عددها ثمانية وثلاثين طريقة دينية إسلامية (١) ، إلا أنها تعتبر من أهم وأجمع الطرق الدينية عامة فإبها عمت كل أشبال الإفريقي بصفة خاصة حتى أصبح نشاطها فيها بعد خطراً على السياسة لاأورية التوسعية ومع

أن قارة أفريقيا قد عرفت الكثير من هذه الطرق الدينية الصوفية التي كانت نتيجة لحركة الإحياء الديني العامة التي عرف بها القرن التاسع عشر ولا أن الطريقة السنوسية كانت أكثرها نجاحاً في ليبيا والبلاد المحاورة لها ، وهذا ما دعا فرنسا لنم إيطاليا في عهد إلى لتحويل من حركة السنوسية الكبير وإباحت طريقته وتصويرها بصورة المهدد لتتقدم الأوربي في قارة أفريقيا المنظمة وهذا أيضاً ما دعا الأستاذ ايفير برينشرد أستاذ علم الاجتماع بجامعة أكسفورد بالانتماء إلى أن يدعو إلى عدم التمييز من شأن هذه الطريقة وأنشأها في الأونة الحاضرة ثم يقول : كل الدول الأوربية بما فيها نحن أنشأنا في هذا الوقت قد صدر عدد أضع السنوسية وقوتهم الحربية فوق قدرها. (١)

وربما كان من أسباب النجاح الكبير الذي أحرزته الطريقة السنوسية أن مؤسسها السيد محمد بن علي السنوسي قد انخرط قبل تأسيسه لهذه الحركة في عدة طرق دينية كالطريقة الشاذلية ثم أتته بمراكش والطريقة الشاذلية والصريقة الحاصرية والصريقة التدرسية ثم إقامته بحجاز وتلمذ على يد الشيخ أحمد بن أدراس مؤسس الطريقة الأدرسية التي اشتقت تعاليمها من الأئمة الشاذلية ومن ثم من كل هذه الطرق واستطاع أن يفتن بها أحسن ما فيها وأنس مبادئها ثم قام بحركة الخلط بين بعض قواعد هذه الطرق ولكنه كان في التحاقه بها دارساً لها مختاراً منها ما يصلح أن يكون أساساً قوياً للطريقة عممية مستطيعاً به أن يصعد بالملتزمين إلى عهد الرسول والخلفاء الراشدين مع الاستفادة من جد في عالم من تقدم في الحضارة والمدنية في لوائح

(١) المصدر السابق ص ٢٨

"All the European Powers, including ourselves, at this time greatly overestimated the number of Sanusi adherents and their military strength."

الرأفة والاقتضائية وظل عبداً عنه وأمر شاعراً

ومع أن كل هذه الترويضات كانت في أصلها، إلا أن الطريقة

للموسيقى قد تم من أكلها ثم كان لا يهتم بها على القرون الكريم والسنة

الخامسة كعبد بن ساسين فتأريخ الإسلامى *the Order of the*

the Order of the *the Order of the* *the Order of the*

وإذا كان الأستاذ ائمة من شيوخه في "السير الكبير" يفتون في هذين

الأمسين كعبد بن ساسين لا يهتم بها فتدب الصواب في قوله هذا لأنه شكر

على أن يوسى الكبير لم يترك في نفسه إلا جماع كبري آخر من التأريخ

الإسلامى بعد أن حوّل به إلى أن الكبرياء في المحبة لأن في هذا

قما سماً وهو أن عده سوسين كبري من قدام غير نتج من الاحتجاز

وعدم الاعتزاز بغيره في أن ليس عده ذلك بغير التبعين كانوا يرمون

أن باب الاحتجاز قد أضحى بعد سنة ٢٥ م أن هذا ثلاثة الأربعة المشهورين

والعربية من أمته في ذلك بغيره في أن عده سوسين كبري من قدام غير نتج من الاحتجاز

أدائه من المصادر الأربعة خارجاً في أن في ذلك بغيره في أن عده سوسين كبري من قدام غير نتج من الاحتجاز

المصادر بغيره وحاله إلا بغيره من قدام غير نتج من الاحتجاز

اعتبر تشريعاً وإلا في ذلك بغيره في أن عده سوسين كبري من قدام غير نتج من الاحتجاز

لغيره في ذلك بغيره في أن عده سوسين كبري من قدام غير نتج من الاحتجاز

E. Evans-Pritchard: — The Place of the Sana'iya Order in the History of Islam

٢- المصدر السابق ص ١٣

"Some of the ... the Sana'iya ... two sources ... to ... he made use of what amounts to Analogy."

كان السنوسى الكبير مسكياً فى مدحه أسوة بما هو عليه سواد الشبان
الإفريقى إذا استقبيا أهلى لناسا فى المملكة المصرية حيث نفيهم من بلادهم
امذهب الشافعى وقد حر عليه قيامه بالاجتهاد عداوة من عدمه الاسلام
فى القاهرة والحجاز فى ذلك الوقت إذ رأوا فى حركته ما يحذرهم عن الشرط
وهمعان لظفر فيما عليه العار الاسلامى من ضعف عام وكن شطه يقابى
وما عودوا عليه أنفسهم من دعة وراحة عير رطبين لما يترتب على ذلك من
تخلف خطيرة مست كمال شعوب الاسلاميه فهم لا يهتمون لشيء ما دام الخضر
بعيداً عن أشجع عدم وما دامت أرباب الرأى مضموية لهم فى المرتبات لئى
يتقاصروا ولا يوافق الخيرية أى مدعونهم ، وإلا كن هناك من مدعاه
من كان مؤمناً ببحر كماله السنوسى الكبير وقائماً بالعلم الاسلامى إلا أن روح الحسد
المسكوتة من عداوتهم بدأت عليهم أن يفتروا بالخصم لأخيه ويستكثروا
أن يكون ذلك على يد غيرهم حدة وصأوا أن لا يكون لهم فى شيء يد شأ
و اد فى هذا الحسد ما كن عليه السنوسى الكبير من روح وانه وطموح
كبر واستحقاق بالمصعب وكبر مناصب من على اقدمه من مدعاه
المدرسة بقوته من علماء القاهرة والحجر وأمنه لانهام بكبره للاحاد
شأن كل المتسلمين الذين استهدوا المش هذه الاسماء كلها طبعهم واحد
و ليس بمحموده شيخ فى القيد سديد و تفتق دعوته وصحة كل هذه
التهائمات أشبه به و دعه فى مجال من الشبان
من أبرز المعارضين به من عدمه "قاهره" شيخ عليل الحروف لدى أحد

فتوى في حق السنوسى الكبير ولكنه عاد فسحبها عندما تأكد من عدم صحة ما وصله من أخبار عنه. (١)

وكان أهم ما وجه إلى السنوسى الكبير في دعوته من اعتراض إلى جانب فتحه باب الاجتهاد بتناول مسائل صميرة تافهة رأوا فيها تعارضاً مع المذهب المالكي كإطالة في السجود أثناء الصلاة شكل بسبب مصابغة العراء عن الطريقة المساهير في الصلاة معه . وقرائته للسمعة بصوت عالٍ ربما يقرأها المالكيون الآخرون بصوت حنى وقصص اليدين في الصلاة ورفعهما وكلاهما مسدس لا تتناول الأسس الجوهرية للمذهب المالكي فضلاً عن أن السنوسى الكبير استطاع أن يدعم رأيه فيها بما ينبت صحته ومر أراد الاطلاع على ذلك فعليه الرجوع إلى ما تركه لنا من مؤلفات فقهية تدول فيها كل ذلك بالشرح الوافى والإبانة الواضحة . وإذا كان السنوسى الكبير قد سمح لنفسه بما تأنى له من استعداد فقهي أهله للاقدام على الاجتهاد أن يستفيد من الرخص الأخرى لوارد ذكرها في بقية المذاهب الثلاثة إلى جانب ما في المذهب المالكي من من رخص فليس معنى ذلك السماح لأى انسان من أتباعه بأن يفعل هذا العمل دون التقيد بأحكام مذهب نخص كما ادعى الأستاذ ايفنر برينشرد (٢) . وإلا لأصبح كل انسان مجتهداً وفتح باب الاجتهاد للجميع حتى اعساءة دون التقيد بشروط خاصة للاجتهاد الأمر الذى يتنافى والحقيقة المعروفة عن السنوسى الكبير وطريقته .

أما بخصوص حالة التصوف في هذه الطريقة التى أسسها السنوسى الكبير

١ — وثقوب استورد لأمريكى . — جيمس إمام لاسلامى . «ملفات الأمر شكك

إرسالى من ١٩ من ٧٧

٢ — Evans Precharu The place of the Sema Order in the History of Islam, P. 28.

فإنها سنية كذلك في جميع أمسها ويكنى أن يعرف أن أنواع الحركة الوهابية المعروفين بشدة محاربتهم للطرق الإسلامية المختلفة لم يجدوا في طريقة السنوسى الكبير ما يتعارض وحركتهم الإصلاحية ولهذا لم يجدوا من نشاطها في الحجاز كبقية الطرق الأخرى وما زالت الزوايا السنوسية إلى يومنا هذا منتشرة في بلاد الحجاز . وقد منع السنوسى كل أشكال المباينة في الخسة الخاصة بالذكر كما هي العادة في معظم الطرق الأخرى وقصر الذكر في طريقته على اسم الجلالة وحمل لها ما يعرف ، بالورد ، ومنع الاستعانة بالدعوى والمواكب والحركات الغريبة التي ترمى إلى إرضاء حماسة الأشخاص في الذكر بهز الأجسام بشكل حاس ورم كان السنوسى الكبير في هذه المباحية - تأسراً على نهج الطريقة الشاذلية التي اشتقت منها معظم طرق الشهاب الأمازيقي ومنها الميرغنية .

.....

هذه خلاصة دعوته وأهم الأسس التي قامت عليها طريقته وقد أخذ يشر بها بين قبائل رقة بعد أن اتخذ من الحبيب الأحضر مقماً ومن زاوية ، البيضاء ، مركزاً ولكن مقامه بها لم يطر كثيراً إذ سرعان ما قام برحلة إلى مكة في سنة ١٨٤٦ وبما كان الداعي إليها القيام بحولة تفقدية لما سبق له أن وضع أساسه هناك مع التردد من روحانية الأراضي المقدسة بما يساعده على ما هو قائم به من إصلاح حتى إذا ما عاد إلى رقة في سنة ١٨٤٣ بدأ يشمر بحاجته إلى العزلة لتأدية الواحدة للتفرغ إلى التعبد المطلق والتأمل الدمي وقد ائتمت عمره من السنين وتصد إلى حيث تقوم زاوية العزيمات Azziyat على الحافة الجنوبية لهضة رقة حيث أقام له زاوية هناك ، ولكنه لم يتم بها إلا مدة قصيرة انتقل بعدها إلى واحة الحمير التي تعد على ساحل البحر الأبيض المتوسط مساهم مائة وستين كيلو متراً

ويذهب البعض (١) في تفسير توغل السنوسى الكبير في الصحراء والابتعاد عن الساحل مركز الحياة في رقعة هذه المسافة الكبيرة إلى رغبة السنوسى الكبير في الابتعاد عن السلطات العثمانية الحاكمة التي كانت أوضح ما يكون في الجهات الساحلية والتي بدأت تهتم بحركته الإصلاحية وأخذت تعمل ألف حسب نموها وانتشارها بين قرائ الجبل الاخصر كما أن البعض الآخر (٢) يفسر هذا الابتعاد بأن السنوسى الكبير شعر بقرب استيلاء الاجاب على البلاد فاختار التوغل جنوباً والامعة في الصحراء قد يكون كل هذا صحيحاً إلى حد ما ولكننا لا نستطيع أن نعلم به على أنه التفسير الحقى لهذا الابتعاد في داخل الصحراء ولكن الذى نستطيع أن نقوله أن 'السيد السنوسى الكبير رأى بعد عودته الأخيرة من الاراضى المقدسة أن يخطو خطواته العملية الثانية في دعمه الإصلاحية وأن يكون أكثر إيجابية بعد أن مهد لذلك بشر سور دعمه ولا يمكن أن يقوم هذه الخطوة العملية وهو بعيد عن ميدانها سوى اختصاره واتوى أن يشجع إليه بمجده ولا شك أن انقارى سبتين صحت هذا الرأى باستمرار الرامح المعنى للسيد السنوسى الكبير عدالة له الى واحة الجعوب كما سنبينه بعد .

كانت واحة الجعوب في سنة ١٨٥٦ عندما احتلها السيد السنوسى الكبير قاعدة له واحة غير مأهولة بالسكان لمياهها العذبة مع قبة في كبيتها التي لا تساعد على ازوال أكثر من مساحة صغيرة من الساتين ذات البحر القليل العدد فصلا عن أن ترتبها بصفة عامة مستعصية على الزراعة . وحدهم يقول أنها لم تكن مكاناً صالحاً لأي نوع من الحياة المستقرة الناعمة رغم ما تمتاز به من

(١) F.E. Evans-Pritchard - The Sanusi of Cyrenaica, P. 14

(٢) نوتروب سودرد لامركى ، سفر عالم إسلامى ، ترجمة يوسف ومليح الامير

شعبي أرسلان ، ج ١ ،

جو صحى بعكس ما كانت عليه جارتها واحة سيوة المعروفة بانتشار المملاريا بين أهلها لكثرة عيونها ومياها العذبة الراكدة إلا أن السنوسى الكبير فى اختياره لواحة الجنبوب كقاعدة له لم يكن يعتبر راحته هى الهدف الأول من الحياة وإلا لما حمل نفسه مشاق كل هذه الانتقالات والبربة عن الأهل والوطن والتعرض للهجوم والنقد وترك أماكن قد نبأت له فيها سبل الراحة التامة والحياة الساعمة ولم يكن السنوسى الكبير فى اختياره لواحة الجنبوب أيضاً قد احتار اعتباطاً أو من باب الصدفة وإلا لتحول عنها بعد أن تين له حلولها من وسائل الراحة و"نعيم المطلوب ولكن اختياره لها كان بعد دراسة ونعيم لأعبائها وتقدير لقيمتها الاستراتيجية فهى على مافة تحمل من الصب فى ذلك الوقت على السطة العثمانية الممثلة فى حكام المدن الساحلية أن تهم شأنه وتنفع نشاطه كما أنها تحمل من العسير على الحكومة المصرية فى ذلك الوقت أيضاً أن تلتفت إلى نشاطه أو تحاول الوصول إليه . أما بالنسبة للنفوذ الغربى الذى أخذ يتصل فى وسط افريقيا ويقترّب من الاملاك العثمانية الساحلية فهى فى أمان منه لبعدها الكافى عن متناوله مع البقطة التامة لأعماله ونشاطه . وهكذا رأى السنوسى الكبير فى واحة الجنبوب قوقعة صلبة لتحتويه وتكمل له السلامة من أى خطر يتوقعه أو احتكاك بالسلطات الحاكمة التى كانت ترتعش من حركات المصلحين ويذهب بها الخوف من خطرهما إلى حد يجعلها تحسب للامر الف حساب مما يفوت الفرصة أمام كل محاولة للإصلاح أو ناشده . وواحة الجنبوب كذلك تقع عند ملتقى طريقين هامين للقوافل أحدهما للحجج سالكة بعض أهالى شمالى عربى افريقية عبر الأراضى المصرية الى الأراضى المقدسة فى الحجاز والآخر لتجارة القوافل يصل ساحل البحر الأبيض بمراكم التجارة فى الواحات المنتشرة فى الصحراء الكبرى ومنها الى بلاد السودان جنوباً وهكذا بفصل هذين الطريقين أصبحت هذه الواحة على اتصال بالعالم الخارجى بقدر

ماهى فى عرلة عن بقية جيرانها بما يفصلها عنهم من أراض صحراوية واسعة .
والجيموب كذلك أكثر الامكنة توسط لشكون مركزا على مافة متساوية
مع ما أشاء من زوايا وما سيفشته فى لوب بأحدها وصحراء مصر العربية
والسودان لاسباب وأن بركة التي وقع عليها اختياره للقيام بتجربته الاصلاحية
شبه جزيرة أقرب ما تكون إلى الشكل الدائرى . وواحة الجفوب بحكم موقعها
كذلك تصلح أن تكون مركزا للنشر الوفى بين قبائل الصحراء المتعددة
والقصاء على ما بينها من حصومات ومعارع واضلال السلام بينها كحلولة
ضرورية للقيام بحركته الدينية الاصلاحية وقد تم له ذلك بعد انتقاله إليها اد
سرعان ما انقطعت تلك الاعارات المتواصلة التي كانت تنشأ قبائل الشرق
والغرب على بعضها البعض بل استطاع أن يقضى على ما كان بين قبائل بركة
نفسها من مشاحنات وعداوة قديمة بحكم هذا الموقع الحظ اى المنعزل الذى مكّنه
من أن يكون فى موقف التوحيد بالنسبة للجميع وأن يطر طرة القاع لمشاكل
كل القبائل وما أشبه ذلك بموقف حكم المهابات الرياضية فقدر جدته وتسمه
لحركات اللاعبين يكون حكمه أقرب إلى الواقع والصواب بعكس ما لو اسمح
فيهم وحصر اهتمامه فى راوية خاصة من مبارياتهم

ورعنا كان السنوسى الكبير فى نقل قاعدته إلى الحصوب مقدمة لانحياجه
بنشاطه نحو الحروب حيث رأى فى السودان وأهله مبداءا فسيحا للتشيعر ، الدين
الاسلامى بين اجماعات الوثنية هناك وقد أحدثت موجات العشرات التشيعرية
المسيحية تحرو أو اسط افريقية فى القرن التاسع عشر على أثر نشاط الحركة
المكشيفية فى افريقية ولا شك أن من أهم اغراض حركته الاصلاحية نشر
الدين الاسلامى بين اجماعات الوثنية وهدايتها إلى جانب تعميم المبادئ عقيدتهم
الدينية الصحيحة وارشادهم إلى مواطن القوة فيها حتى يعود للإسلام محمده
الساق وذلك هدف انانى جليل فطى إليه السنوسى الكبير وليس هناك

أحسن من واحات الصحراء الكبرى وبلاد السودان وما ورائها من افريقية الاستوائية للقيام بتحقيق هذه العناية خصوصا وأنه بدأ يطمش بأن صدى دعوته قد أخذ في الظهور بوضوح في بلاد الشمال الافريقي بقصص عرابه واتباعه الذين كانوا حير بمثلين له وناشرين لدعوته فانتشرت زوايا طريقته في لوبيا بأجمعها .

كل هذه العوامل يمكننا أن نعتمد عليها كمفسر لأهمية واحدة الجفوب للنسبة السنوسى الكبير وتفصيله الإقامة بها على ما يرب من عسر وضيق بالحياة المستقرة وهكذا أيضا تحققت له نوءة بحيا المريقى العيتورى عندما نصحه بالذهاب الى الجمبوب لسان راوية له بدلا من اقامته في ظليل عده كان السنوسى الكبير في زيارته لعائنه ابن ركة القيتورى هذه البدة

...

...

...

كانت دعوة السنوسى الكبير في أول أمرها حركة اصلاحية داخلية في الاسلام نفسه ثم أصبحت بانتقاله الى واحدة الجفوب الى جانب ذلك حركة لشر تعاليم الدعوة وبذلك يمكننا أن نعتبر انتقال السنوسى الكبير الى هذه الواحة بداية مرحلة جديدة في دعوته الاصلاحية تقوم في اساسها على سيامة مرسومة ثالثة تضمن لها البقاء والاستمرار بعد أن عرف كيف يختار لها ما يلزمها من استعدادات وقد تمثلت جهوده الاصلاحية بعد انتقاله الى واحدة الجمبوب في القيام بالأعمال الآتية :

أولا : شرع السيد السنوسى الكبير في بناء زاويته بالجفوب على اساس ما تتطلب سيااسة العهد الجديد الذى هو مقل عليه ولهذا أنت زاوية الجفوب في بنائها وهندستها متمشية مع المرحلة الجديدة محققة لاهداف الدعوة في طورها الحديث وقد استعان في بنائها بالحجر وكان بعض أقسامها مكوما من طابقين وهى تضم جامعا أقرب الى المربع في شكله يتسع لخمائة أو ستمائة شخص من

المصلين وبه امام للقيام بواجب الصلاة بالناس ومؤذن يدعوهم اليها عند حلول أوقاتها وبالزاوية مدرسة قرآنية «كتاب» لتحفيظ القرآن الكريم تحت اشراف فقيه مخصص للقيام بهذا العمل وبها ايضا معهد ديني يلتحق به من أتم حفظ القرآن الكريم لدراسة علوم الشريعة الاسلامية وما تتطلبه من دراسة لغوية ومنطق وفلسفة وتاريخ وجغرافية وذلك ومبادئ العلوم الرياضية وكل ما يساعد الطالب على تفهم حقيقة دينه بطريق عملي وكان يقوم بالتدريس في هذا المعهد اساندة مشهور لهم بالكفاءة العالية والمقدرة الشخصية كان في مقدمتهم السيد أحمد عبد القادر الربيعي . وقد استطاع هذا المعهد أن يمد البلاد بحاجتها من رجال للقيام بالمسائل الشرعية وارشاد الناس وتفهيمهم قواعد دينهم وقد تخرج فيه سبعة علماء اذ استطاعوا أن يبرهنوا على تفوق ملوس في هذه الناحية أما من كان منهم يريد الاستزادة والتبحر في العلوم الشرعية فكان في استطاعته أن يلتحق بالجامع الأزهر الشريف دون أن يشعر بصعوبة توقعه عن متابعة حلقات الدروس لما له من استفادة سابقة تحصل عليها في معهد الجنبوب .

ولما كان معظم الطلبة المتحقيقين بالمعهد غرضاء عن حاجة الخبز فقصد خصص لهم أماكن لسكنهم عرف كل منها باسم « حلوة » كثيراً ما كان الطلبة يحتلون فيها لتعدد أثناء الليل ومن هنا جاءت ليها التسمية . وكان لهذه الحلوات ، نظام أشبه بنظام الأروقة في الجامع الأزهر الشريف إذ كان جامع الجنبوب يضم عدداً من « الروطاط » كل منها يضم بدوره عدداً من « الحلوات » . وقد خصص المشرفون على جامع الجنبوب كل « رباط » لبلاد معينة من البلاد لا يوافق أبنائها بما يدل على اتساع هدف هذه الحركة وعدم قصرها على لوبي واحد . هذا رباط « السوادين » وكان يضم الطلبة المتحقيقين بالمعهد ويتبعون إلى بلاد السودان وأولئك الذين كانوا يقومون بالخدمة في زاوية الجنبوب من أبناء السودان وما زال هذا « الرباط » قائماً إلى يومنا هذا . وكان هناك « رباط

السيوية، للطلبة الآيين من واحة سيوة. وملحق بالمعهد مكتبة (١) عليية أهم السنوسى الكبير بثونها وتزويدها بأهم المصادر اللازمة في حركته الإصلاحية وعلمية لإد استطلاع بجموده الموقفة رغم قصر المدة التي مضت على تشييدها أن يقتنى لها ثمانية آلاف (٢) مجلد معظمها كان خاصاً بالشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى وعلوم الفلسفة والتاريخ وتفسير القرآن والشعر وعلم الفلك وبفضل هذه الجرد الموقفة واستعانتها بالأساندة الأكفاء أمكن الاستفادة من هذه المكتبة وهذا الجو العلى الهادى. الخاص حتى كان من الصعب على الإنسان أن يجد في ذلك الوقت بيئة عليية حالية تصارع ما كان عليه معهد الجعوب في ذلك الوقت (٣) إذا استثنينا القاهرة بجامعها الأزهر. وكان 'شمر العرنى من القمون العربية التي اردهر شأها في واحة الجعوب وقد وصل إلى مربة مدمية بقيت آثار ذلك واصحة في بداية القرن العشرين عندما قام الشيخ عثمان الحشاشي الرحاة تنونى رحلته العلية إلى الجعوب وحول هذه الراوية المركزية كانت تقوم بيوت، الإخوان، وكأوا أعواناً للسنوسى الكبير وأساندة بمعهد الجعوب. هذا إلى جانب السكن المخصص للسنوسى الكبير نفسه وعائلته. وملحق بالزاوية غرف خاصة بلطخ وتقديم الطعام والشراب ونهية الراحة للصيوف النازلين أو اللاجئين إلى جانب صالة الاستقبال الكبيرة المعروفة، بمجلس الصيوف، وقد قرشت بالنسط والوسائد وما رالت دقة إلى يومنا هذا وقد اتخذها سكان واحة الجعوب مأوى لهم أثناء المرات الجوية في الحرب العالمية الثانية. وهناك أيضاً أماكن معدة لإيواء الخدم السودا المعروفين بالعبيد المساهمين في خدمة شؤون الزاوية وأهلها أما آبار المياه فقد حفر منها ما يسد الحاجة المطلوبة.

(١) صعدت هذه المكتبة بما جد عليها من كتب في عهد خلفائه باستيلاء الايطاليين على الجعوب إذ سلبوا منها وحرق معظمها.

F.E. Evans-Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica, P. 17 (٢)

, P. ٢7 (٣)

وحول كل هذه المباني والمرافق أقام سوراً حجرياً له عدة أبواب لضمان سلامة أهلها كما جرت عليه العادة وقتئذ .

وبفصل هذا النشاط العلمي أصبحت واحة الجنبوب تضم مجتمعاً جامعياً بما في هذه العمارة من معنى علمي دقيق .
 It was in fact almost pure University Society (١) . وربما كان السنوسي الكبير في سياسته لعلية هذه سائراً على نهج أجداده الإدارية عندما جاء أدريس الأول إلى بلاد المغرب وقام أبه من بعده بتأسيس جامع القرويين بعاصمته فاس الذي أصبح مآرة للعلم والفقهاء الاسلامي والذي حمل لواء هذه المهمة وما راى يحملها طيلة هذه القرون وقد سبق للسنوسي الكبير أن درس في جامع القرويين ولا شك أن الأفكار عادت به أثناء الدراسة إلى تلك الأيام التي حمل فيها أجداده مشعل العلم فأضاموا أركاناً كان مقدراً لها سيادة الجهل لولا هذه المؤسسة العلية . وهكذا كان معهد الجنبوب في لوييا حلقة هامة أكملت ذلك الفراغ الملبوس في سلسلة المعاهد الاسلامية المنتشرة بطول الساحل الاقربى الشمالى المشغلة في الجامع الازهر بالقاهرة وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس وقد احتفظ معهد الجنبوب بأهميته العلية الممتازة إلى أن قضى عليه الايطاليون بالاستيلاء على لوييا وإذا كان من حق مصر وتونس ومراكش أن تفخر بمعاهدها الدينية وما لها من فضل كبير في حماية أهلها من الزيع الدينى وتعيم الناس حقيقة دينهم بما حسب اليهم التفانى في سبيل رفع كلفة الاسلام والاستشهاد دونهما من حق لوييا أن تفخر بمعاهدها في الجنبوب وما تفرع عنه من زوايا منتشرة في أنحاء البلاد وقد أتت بديجة مدهشة ولم ينض على إنشائها زمن طويل حتى يحق لها أن تقول دون تردد أن البلاد مدينة في موقعها أمام العرب والأجنبي عندما استهدفت له في سنة ١٩١١ من طرف الجيوش الايطالية لأولئك الذين فرسوا

بذور حب الاستشهاد في سبيل الله بين أفراد الشعب وعلموا أفرادهم كيف
يبدلون أرواحهم في هذا السبيل وهكذا قام معهد الجفوب وما تفرع عنه
من زوايا يواجه كما قدم من قبله بقية المعاهد الإسلامية الأخرى وما أجدرنا
وقد تحققت بعض أهدافنا أن نلتفت إلى هذا التراث العلمي فنعمل على إحيائه
من جديد حتى نضمن له المقام والاستمرار فسكون بذلك صاميين لروح الشعب
العتية واستمرارها .

ثانياً : كان على السنوسى الكبير وقد احتار واحة الجفوب مقماً له أن
يشعل على مشكلة ترويض أهلها حيث إنها لا تتفتح إلا القليل من التمر وهو شيء
لا يكفي لإطعام أهلها فضلاً عن توفير الجو اللازم للحياة العلمية المستقرة التي
وسع أساسها وقد أصبح عدد سكانها بعد تشييد معهد الجفوب حوالى الألف
ولا شك أن هذا العدد كبير بالنسبة لما يجب أن تستوعبه واحة الجفوب
وبالنسبة لما كانت عليه قبل مجيء السنوسى الكبير إليها كوكبر لبعض قطاع
الطرق الذين كانت مهتهم الترتيب للقوافل وهب أمتعتها واتحاد هذه الحرفة
وسية لصيان ردهم . أما الآن وقد استعالت من مركز للصوعية إلى مكان
يطلب الجميع عنده الأمن والسلام إلى جاس ما يجذبه من ضيافة وإرشاد وتعليم
فكان على السنوسى الكبير أن يجد حلاً لمشكلة ترويضها وقد وفق في هذه المهمة
أحسن توفيق مستعيناً في ذلك بما كان له من إبل اتخذها من أعشاب الأراضى
الواقعة إلى الغرب من واحة الجفوب مرعى وبما له من أسن في العزبات في
استحلاب المؤن الضرورية من المراكز الساحلية إلى واحة كما استعان في حلها
أيضاً بما كان يرسله إليه أتباعه من رؤساء الزوايا الأخرى من سلع بعد أن
ياخذوا لأنفسهم ولزواياهم ما يكفي إدارة هذه الزوايا . وكان معظم واردات
هذه الزوايا من البضائع العينية والمؤن اللازمة لحياة الأفراد ولكن أنى مثل
هاتين الوسيلتين أن تقوموا سد حاجة أفراد المجتمع الذى كونه على ما فيها من

اعتماد على الغير وتعويد أتباعه روح التواكل ، لهذا نراه يلجأ إلى طريقة عملية فيها كل الخير له ولأتباعه فضلاً عن أنها تعودهم الاعتماد على النفس وعرس روح العمل بين صفوفهم ولهذا أخذ يقرن التعليم في معهده بالحياة العملية وما أقرب هذه الطريقة التربوية التي احتطت بها معرفه الآن من طرق حديثه في التعليم كطريقة المشروع للأستاذ دبوي الأمريكي وغيره من أصحاب الطرق التربوية الأخرى . كان السنوسي الكبير يخصص يوم الخميس من كل أسبوع دراسي للمناهج العملية من الدراسة فيقوم الطلبة تحت إشراف أساتذتهم وبرئاسته بأعمال يدبوية يحققون بها معظم ما يحتاجون إليه من ساء ونجارة وحدادة وساجدة وإعداد ملابس وبذلك يتحول المعهد إلى أشبه بورشة صناعية ترى الكل فيها مشغول بعمل يدوي نافع يحقق المصلحة للجميع . كل ذلك إلى جانب اهتمامه بتوسيع رقعة الأرض المروعة في واحة الجنبوب بالاكثار من حفر الآبار والقيام بغرس الأشجار ووراعة بعض أنواع الخصر والفاكهة التي يحتاجون إليها في حياتهم اليومية ، وكان من تشجيعه للزراعة أن يقول للطلبة إذا سألوهم تعليمهم الكيمياء بأن « الكيمياء تحت سكة المحراث ، وأحياناً يقول لهم « الكيمياء هي كد امين وعرق الجين ، وكان يشوق الطلبة والمريدين إلى تعلم الحرف والصناعات ويقول لهم حملاً لطيب حواطهم وتزيد من رغبتهم في حرفهم حتى لا يردروها أو يظنوا أن صُنقتهم هي أدنى من طبقة العلماء فكان يقول لهم « يكفيكم من الدين حسن النية والقيام بالفرائض الشرعية وليس غيركم بأفضل منكم ، وأحياناً يدفع بنفسه بين أهل الحرف ويقول لهم وهو يشتغل معهم « يظن أهل الأوربقات والسيحات أنهم يسبقونا عند الله لا والله ما يسبقونا ، يريد بأهل الأوربقات العلماء وأهل السيحات العابدين والقائتين فكأنه يريد أن يقول للمحترفين والصناع لا تظنوا أنكم دون العلماء والزهاد مقاماً بمجرد كونكم صناعاً وعملية وكونهم هم علماء وقراء . هذا ليريدهم رغبة وشوقاً ويعلم الناس حرمة

الصناعة التي لأمدينة إلاها (١) .

بهذا المذهب العملى ساهم السيد السنوسى الكبير فى حل مشكله قنوين واحدة الجفوب وهذه الياة العملية التي تقوم على مبدأ الاكتفاء الذاتى عمل السيد السنوسى الكبير على تنشئة جيل جديد فاهم لحقيقة دينه وهذه الروح التعليمية العملية كان السنوسى الكبير فى طليعة رجاء التربية العمليين بل سبق بعضهم فيما نادوا به فى الأعوام الأخيرة من اتباع لطرق خاصة كطريقة المشروع وغيرها . وهو فى ذلك مستلهم ما كان يفعله علماء المسلمين يوم أن كان العرب فى أوج مجدهم فما أخرجنا إلى هذا النوع من التربية فى مدارسنا وما أخرجنا إلى الكثير من أمثال هذا المربي المصلح العام لماهية التعليم وأهدافه !!!

ثالثاً : — كان أيضاً على السنوسى الكبير وقد انتقل إلى واحدة الجفوب أن يستمر ما لهذه الواحة من موقع هام فى تجارة القوافل وأن تكون له سياسة واضحة فى نشاطها تعود على أصحابها بالخير وعلى مؤسسته الناشئة بالفائدة المطلوبة . وكان عليه أن يعمل على نشر الأمن والسلام فى ربوع الصحراء حيث تمتد شرايين هذه التجارة حتى يزدهر حالها ويتحقق المطلوب منها وسرعان ما وصل إلى عايته هذه لاعتن طريق القوة وتوزيع رجال الأمن كما يفعل الحكام وأصحاب سلطان لأنه يعلم أن ذلك فوق طاقته وشيء لا يمكن الاقدام عليه لاستحالته عملياً فصلاً عن تعارضه وما يجب أن يكون صدوره كسوك تلقائى من أفراد الشعب لأن مصير القوة الكابتة الروال ومصير السلوك الفردى الظهور على حقيقته . نجح السنوسى الكبير فى تحقيق هذه الغاية رغم قلة السنوات التي صرفها فى هذا المجهود بماله من سلطة روحية استطاع أن يبثها بين رجال القبائل المنتشرة فى الصحراء وفى مقدمتها قبيلة المجاورة فى واحدة جالو وقبيلة دزوية ، المنتشرة فى ججرة فيما بين واحدة الجفوب شرقاً وواحتى جالو وأوجلة غرباً .

(١) لوثروب سودارد الأمريكى : حاصر الدام الاسلاى ج ١ نطقات الامير شكيب ارسلان

وكان رجال هاتين القبيلتين يسيطرون على تجارة القوافل في الصحراء الكبرى
بما لهم من استعداد خاص وبفصل اكتساب هاتين القبيلتين أصبح السيد
السنوسي الكبير يتحكم في معظم تجارة القوافل ويهيمن على مسالكها وأصبح
التجار يأمنون على تجارتهم من النهب والسلب فادهر أمر التجارة وعم الرخاء
وكان سكان الواحات أول من استفاد من هذا الانقلاب الكبير الذي طرأ على
هذه التجارة وأصبحت الحبوب حلقة هامة في تجارة القوافل بعد أن كانت
ملجأ لقطاع الطرق وناهي القوافل .

وبفصل اعتراف رجال قبيلة روية بالنسبة للعريقة السنوسية استصاع
لسنوسي الكبير أن يجد موعده إلى الكفرة جنوباً التي تمتد مسافة ٧٠٠ كم عن
واحة الحمير ذلك أن قبيلة روية كانت تملك معظم أشجار الحمير فيها بعد أن
استولت عليها سنة ١٨٤٠ (١١) من أهلها قائلين أن الدين الذي كانوا يمثلون بقايا
العناصر البربرية التي لجأت إلى الكفرة كمسقطه سريرة أمام الزحف الاسلامي
وانتشار العناصر العربي في شمال افريقية . وقد وعدت قبيلة روية السنوسي الكبير
بالسيادة اثنائه له على هذه الاحراش من الحل وعيون الماء الموجودة بالكفرة
اذا قام ببناء راية سنوسية لهم هناك وقد رحب السنوسي الكبير بهذا العرض
واستجاب لرغبتهم هذه وأرسل إليهم أحد أعوانه للإشراف على تشييد راية
في واحة الجوف التي عرفت فيما بعد راية الاستاد (بقلب الدال دالا) وقد
اتخذها خليفته السيد محمد المهدي قاعدة له بعد أن انتقل إليها من واحة الحمير
وبامتداد نفوذ السنوسي الكبير إلى واحة الكفرة ازداد أمر أثرافه على تجارة
القوافل وتنظيمها باكتسابه حلقة أخرى هامة في نشاط تجارة القوافل
الصحراوية كما أن سياسته في إقامة الزوايا في بقية الواحات الأخرى كانت خير

متجمع لها في المدن لما كانت توفره لرجال القوافل من أمن وسلام وصيفة
يحدونها عدو ووصلهم إليها حقاً فقد خلق السنوسي الكبير عالماً جديداً في
قلب الصحراء !

رأى : وكان كذلك على السيد السنوسي الكبير بعد انتقاله إلى واحدة
الجمهورية أن توجه نشاطه إلى الحروب وقدهالة نشاط البعثات المسيحية التبشيرية
في ربوع السودان خصوصاً وأنه قد بدأ يطمش إلى تمطيل دعوته الإصلاحية
في البلاد الساحلية بانتشار مراكز دعوته الممتدة في أرواب جميع بلاد الشمال
الأفريقي . وقد نجح السنوسي الكبير في وضع أسس هذه السياسة التبشيرية
وسار فيها بخطى واسعة حتى إذا ما أتى خليفته السيد محمد المهدي من بعده وجد
الطريق مهيأ واستطاع أن يصل إلى نتائج طيبة . وما كان للسيد السنوسي الكبير
أن يذل مثل هذا النجاح لولا إيمانه الصادق بدعوته وتقاييه في نشر مبادئها
الإسلامية ورسم الخط السليم المؤدية إلى هذه الأهداف وقد استعان في كل
ذلك بوسائل متعددة كان في مقدمتها استعمال نخرة القوافل في دلهاية درشاد
انقائين غلب إلى حقيقة دينهم ومهيمهم للقواعد الإسلامية الصحيحة خصوصاً
ما يتعلق منها بالتجارة والمعاملة حتى يكتسبوا حيرة ميل للدعوة الإسلامية في
الجهات الحضرية التي تخرق مع أهلها وهكذا استطاع تحار القوافل أن
يكتسبوا ثقة أهالي "سودان" ويحبسوا اليهم أسير الإسلام بما كانوا عليه من
احلاص في المعاملة وصدق في السع والشراء حتى أن كثيراً منهم كان يقوم بمهمة
التبشير بالدين الإسلامي بين جماعات الوثنيين من أهالي السودان وسجح في مهمته
دون أن يكلف نفسه مشقة المباشرة والتفهم والتجامل كما كانت تفعل بعض
البعثات المسيحية التبشيرية المؤدية بقوة العوذ والباطل . هذه الطريقة السلمية
السيطة نجح السيد السنوسي الكبير في الوصول بالدعوة الإسلامية إلى أماكن
بعيدة في بلاد السودان ما كان يستطيع أن يصل إليها الغير وما كان يستطيع أن

يصل اليها السنوسى الكبير لو لم يلجأ الى هذه الوسيلة الطبيعية .

وبفضل تجارة القوافل ايضا استطاع السنوسى الكبير أن يكون على اتصال بالأمير محمد الشريف الذى أصبح سلطان واداي سنة ١٨٢٨ وأر يجدد علاقته به اذ كان كل منهما زميلا للآخر أيام طلب العلم في مكة المكرمة وقد نشأت بينهم صداقة متينة جعلت العلاقة بينهما دائمة وكانت خير معين للسنوسى الكبير بين رعاباه بواداي . وليس بالكثير على السلطان محمد الشريف أن يتخذ مثل هذا الموقف اذ كثيرا ما كانت الزمالة المدرسية خير معين على تهية الأسباب وحل بعض المشاكل والتقريب بين وجهات النظر وكثيرا ما لجأ إليها بعض رجال السياسة للوصول الى الكثير من الحلول المقبولة .

ولم يكن السيد السنوسى الكبير هاتين الوسيلتين لشرب الدين الاسلامى جنوبا بل استطاع كذلك أن يجد في تجارة القوافل وسيلة اخرى لتحقيق هذه الباعية اذ بدرامته لحركة التجارة مع بلاد الجنوب وجد أنها صم بين سلعها المتبادلة ما يأتى به تدار القوافل من رقيق يبيعونه في الاسواق الساحلية فقام شراء قافلة تجارية كانت تمر بواحة الجعسوب في طريقها إلى الموانئ الشمالية وكل بضاعتها من الصند المجاوبين من بلاد السودان ثم قام بتعليم افرادها عقيدة الدين الاسلامى وبعد أن أطمان لاستيعابهم لهذه الدعوة الاسلامية واعتقدتهم عمل على اعادتهم إلى موطنهم الأعلى فكانوا له خير دعاة لدعوته التبشيرية بين مواطنيهم لأنهم أقرب من سواهم إلى التفاهم مع نبي حنظلهم وبفهم هذه البعثة التبشيرية العلية عرف الاسلام طريقة الى الكثير من اجماعات هالك وهكذا عرف السنوسى الكبير كيف يستغل حكمة إباحة الرق في الشريعة الاسلامية من أجل العمل على نشرها ودرع لوانها في مجاهل افريقية وفي هذا العمل تبرير واضح لمشروعية الرق في الاسلام .

هذه هي الامس الهامة التي رسمها السيد السنوسى الكبير لدعوته بعد انتقاله

الى واحدة الجصوب ولا شك أنها أسس محكمة الوضع مدروسة النتائج وقد برهنت التجارب والآيام على صحتها وسلامة أهدافها . كل ذلك في فترة قصيرة لا تعدو سنوات معدودات .

...

...

...

إن الكلام على السنوسى الكبير وحركته الاصلاحية لا يكون وافياً باحرص المطالوب ما لم نستعرض الدور الذى لعبته « الراوية » فى هذه الحركة والآثر احميد المدموم الذى خلفته فى البلاد وأهلها . ففى اسم حقيقى أطلق عليها لما قامت به من أهمية خاصة فى هذه الحركة حتى أنه يمكننا أن نجعل كلمة « ركن » مرادفاً لها فى هذه الدعوة . ويبدو أن هذه الكلمة « الراوية » لم تكن غريبة عن هذه الدعوة لأهمية عمدها وإن كان المعنى الاصلى لها هو ركن البناء ، ثم أصبحت هذه الكلمة « الراوية » تطلق عن « الخوة » التى يحتل فيها المتعبدون للفرع للعبادة الحالصة . وهذا صارت مدجاً كل شخص يطلب « عون » من هؤلاء المسالك المعتزلين بها . ومن ثم أيضاً أصبحت مصدراً للإرشاد الدينى للجماعات . وواقع أن قيام دعوة السيد السنوسى الكبير وبحاجتها وإن اعتمدت على شخصية السنوسى الكبير وإيمانه بحركته ومساعدة الاخوان له فإن قيام « الراوية » كان الأساس الثالث فى نجاح هذه الحركة وضمناً استمرارها من بعده . وإذا تأت هذه الروايات فداختلف بعضها عن بعض من حيث الكبر وتعدد الحجرات فيها قد اتفقت جميعها فى النهاية وتعاونت فى سبيل الوصول بالحركة الاصلاحية إلى مرتبة الكمال عن طريق العلم

وتضم كل راوية فى انعاده مسجداً للصلاه ومدرسة قرآنية لتحفيظ الصبية انقرآن كما يلحق بها « مصبقة » خاصة لاستقبال الصيوف لتقيم « واجب الصياقة » طيلة ثلاثة أيام كما جرى به العرف عند العرب من أهل البلاد . وملحق بالراوية

كذلك بيت شيخها وعائلته وقد يلحق بها غرف للاسادة والصلاب والاحوان والمريدين والخدم وعائلاتهم اذ كان للراوية مكانة تقتضى توسيعها على هذا النحو وموارد تساعد على القيام بجميع واجباتها . وثناء الراوية أو ما يسمونها يقوم حول مساحة داخلية متسعة حيث يأمن رجال القوافل على بضائعهم ودوابهم وكثيرا ما يكون هناك ر في الساحة الداخلية هذه أو على مقربة من الزاوية لامتداد أهلها والنارلين بها بلياء اللارعة . وخصايته ومثاله الكثير من هذه الروايا تحول بعضها إلى أشبه ما يكون القلاع عندما تعرضت البلاد للغزو الإيطالي فيما بعد بعد أن أدخل الإخوان السومسيون عليها بعض الإصلاحات والترميمات البسيطة وكثيرا أيضا ما يكون للزاوية حديقة أو حدائق صغيرة على مقربة منها تزود أصحابها بما يحتاجون إليه من أنواع الخضروات والفسواكه المطلوبة فضلا عما في العمل فيها من مساهمة في تعويد الاسادة والطلاب روح الاعتماد على النفس وجرت العادة كذلك أن تكون مقبرة الموتى لأهل المنطقة على مسافة قريبة منها تبركاتها وكثيرا ما كانت بعض الروايا تضم عدة مئات من الأشخاص ولكيها في المتوسط كانت تضم ما بين خمسين ومائة شخص بمساق ذلك زوجات المتزوجين منهم وأطفالهم وعلى العموم فإن أهمية الراوية لم تكن تقدر بكثرة عدد من يشعلها ولكن بمرکز قبيلتها وعدد اتباعها مردود الحيات القرية وجرت العادة بأن تكون الأراضي المحيطة بالراوية مملوكة حرام لا يسمح لغير المشرفين على الراوية باستغلالها . وكثيرا ما كان يزداد دخل الزاوية بكثرة الذرع لها بالأراضي والأشجار والحيوانات والعبود المائية والامار وكثيرا ما كان يقوم الباع حول ملكية أى عقد وينتهى الباع حوله بالتسليم به إلى الراوية المجاورة خلا لا شكل فللراوية شخصية معنوية قانونية تحولها حق ادارة اوقافها . كما كانت هناك طرق أخرى تتحصل بها الزاوية على تنمية ايرادها وذلك بالحصول على الاذن من اصحاب بعض الاراضي بزراعتها

وبالمهارة المستمرة لهذه الزراعة تكتسب الراوية هذا الحق لها . وكان رجل القبائل المجاورة لراوية كثيراً ما يقومون بمساعدة شيخ الزاوية في زراعة الاراضي المحيطة بها وإن كان الاعتماد الاساسي لشيخ الراوية في هذه الناحية على رجل راويته . وتعتبر هذه الاملاك الخاصة بالزاوية وقفا عليها أو حبساً لها كما يقول النوبيون . وكثيراً ما تكون هذه الاحاس ، مقدمة من فرد أو أفراد أو من قبيلة أو من اهل . ويقوم بإدارة هذه الاوقاف ويسأل عنها شيخ الراوية ويقدم عنها تقريراً احياناً إلى السيد السنوسي الكبير كل نهاية عام هجري ويرس ما يريد عن حاجته وما يتطلبه منه أمر المحافظة على شئون الزاوية إلى المركز الرئيسي للروايا السنوسية حيث كان يقيم السيد السنوسي الكبير سواء في الراوية البضاء في أول الأمر أو في واحة الجصوب بعد أن انتقل اليها وكان دخل هذه الزوايا يشمل الكثير من الاشياء المتنوعة مثل الشعير والجلود والصوف والخبثوب والسمي والعسل والحبوب والاعنام وقد يكون من بين دخلها البقود أو المصانع المستوردة من الخارج كالارز والشاي والسكر والاقشة .

وحلاصة الامر أن الالهائي كانوا يقومون بخدمة هذه الراوية عن طيب خاطر ويرون في ذلك مساهمة منهم في الهوض بالسعادة السنوسية واكتساب رضاء صاحب . وهكذا نشأ نظام التعاون التام بينهم وبين المشرفين على اروايا في سبيل خدمتها . وكان تعاوناً من لنوع التلقائي الذي يحيط للأمة حبها وبقائها . وما يمكن أن لمحصه في هذه المدة . اجمع في خدمة الراوية والرواية للجميع .

أما عن الكيفية التي كان يتم بها تأمير هذه اروايا فمما ما تكون بالطريقة التالية وهي أن ترى احدى القبائل أو فخذ منها أن جيرانها قد أشأوا راوية لهم فتبعت برسول إلى السنوسي الكبير يطلب منه تزويد عشيرته شيخ ليعلم أطفالهم ويقوم بمساندتهم الدينية ويخص حصوماتهم وغير ذلك من الأمور أي يرون اشرعيه الاسلامية المرجع الاساسي فيها . وكان السنوسي الكبير

يرحب بمثل هذه الظلمات من وبتجمع أصحابها لشكرهم على سعيهم اليه ويرس
معهم شجراً يختاره من بين رجاله المتعلقين المحيطين به في الحسوس والمتحرجين
في معهده . كشيء أما كن هذا الشيخ المعبر بصاحب معه واحداً أو أكثر
من فتاته المعروفة بالاحوان لمساعدته في تأسيس الراوية الجديدة التي كان
يقوم بها رجال اقلية بأفهامهم في أحسن بقعة من أرضهم يقع عليها الاختيار
بعد الاستشارة برأي هذا الشيخ لما وجد وصحبه . ومع أن الكثير من هذه
الروايات كان بسيطاً في مائه إلا أن عملية إنشاء كثيراً ما كانت تستغرق عدة
سنوات ثم يأخذون في ترويضها بوسائل الإحاطة حسب مقتدرتهم أصحابها . والكثير
منهم كان يتطور مع الزمن بحكم ما يطرأ عليها من عو في إيرادها والملاحظ أن
هذه الروايات كان أكثر من يقوم على أقاص الاضطلال الاغريقية والرومانية
أو على شتى من حي يمكن الاستعانة من أحجارها في عميق البناء . كما أن
الكثير من قد أنعم في طريقه ثمرة القوافل الاستعانة من كوسية للتواصلات
ترتبط بها هم أخذ حتى هذا إلى حد ما كانت تتمتع به من توفير سهل
جهد من أي حشر طردي يهددها وقد ورعت جميع تلك من معظم المجموعات
القديمة الطائفة وفي مراكز الحياة القلبية كما يشاهد خاصة فيما بين القبائل الرحلة
الجموية التي كانت تتنقل في كل حسب إلى مراكز الداخلية مثل : الشيلي ،
وذلك : *La Nueva* ، و *القائمة* ، و *البوليفيا* ، و *بغداد* أخرى حيث
وحد الإبقاء في الرومان فيما مضى والآثار التي فيها دود من الضروري بناء محطات
وقرى ليست سبلاتهم تصداهجتها التي تقوم بها عندئذ المتوغل في الصحراء
والتي استعان الإبلان في بعد هذه المراكز لتثبيت حكمهم في البلاد
باتحارها مراكز حركتهم الاستعمارية انشغالية

وعلى الرغم من قصر الفترة الى قضاها السنوسى الكبير في لوبيا كقاعدة لدعوته الاصلاحية والتي تبلع في مجموعها حوالى العشر سنوات (١) استطاع أن يؤسس احدى وعشرين زاوية في جميع أنحاء البلاد اللوية وكثير من هذه الزوايا قد تم انشاؤه في الواحات الواقعة على جانبي خط عرض ٢٩° شمالاً ومن هذه الزوايا على سبيل الذكر ما يوجد في سرت وزلة وسوكة وهون وودان وكلها أنشئت حوالى سنة ١٨٥٥م ومن المرجح أيضاً أن زاوية واحة العقبة بفران قد أنشئت في ذلك التاريخ كذلك أما زاوية مزدة الواقعة في جنوبي مدينة طرابلس العرب فكان انشاؤها سنة ١٨٤٥م .

وبدراسة توزيع الزوايا التي أنشئت في عهد السنوسى الكبير نلاحظ أن معظمها قد اقتصرت به الواحات بسبب أهميتها كراكر لتجارة القوافل واهتمام السنوسى الكبير باستغلال هذه التجارة وتنشيطها هذا إلى أن أهالى الواحات كانوا أكثر استجابة لدعوته الاصلاحية من القبائل البدوية لما كانوا عليه من حياة استقرارية في هذه الواحات سهلت دوام الاتصال بهم وأعطتهم فرصة أكبر للمساهمة في الحياة الدينية واصلاح شأنها . وإذا كان أيضاً من الملاحظ أن الزوايا التي أنشأها السنوسى الكبير تبدو قليلة العدد في المدن الساحلية بالمدينة لما هي عليه في الجهات الداخلية فذلك يرجع إلى السيادة العثمانية التي كانت أكثر ما تكون نفوذاً في المدن الساحلية بعكس ما كانت عليه الحال بين القبائل البدوية وسكان الواحات حيث كانوا لا يعرفون للسلطة العثمانية أى وجود . كانت السيادة العثمانية على البلاد بمنزلة في حكم المدن تحول دون أن يتحد منها السنوسى الكبير مراكز لدعوته الاصلاحية ولم يكن من المستطاع أن تقوم في هذه المدن الساحلية حكومتان خصوصاً وأن

السوسى الكبير كان يحشى الاحتكاك بالسلطات العثمانية كما كانت هذه السلطات نفسها في حذر من دعوته وعلى نفع دائم لنشاطه وحركاته .

ولم تقم الروايات السوسية الى وضع السوسى الكبير أساس قيامها بعممة نشر العقائد الإسلامية الصحيحة ونشر الدعوة السوسية بين أفراد القائل حسب ما كانت أشبه بالمرآكر الثقافية "Centres of Culture" (١) التي ترى الدول الراقية الآن تعمل على إنشائها في أنحاء البلاد إذ قامت بتعليم أولاد القائل القراءة والكتابة ومبادئ الحرف إلى جانب تدريس القواعد الإسلامية الصورية به كل مسلم بل كان مصها يذهب إلى أكثر من هذا من حيث التخصص العلمى حتى تخرج في بعض الروايات استطاع أن يتم دراسته العالية في معهد الجفوب أو الجامع الأزهر بالقاهرة وليعود للبلاد ليكون مسئولاً عن تثقيف أهله وعشيرته ويمكننا أن نقدر القيمة الثقافية لهذه الروايات وأهميتها إذا عرفنا أنها كانت بمثابة المدارس التي تقوم الآن بفتحها الحكومات الحالية دون أن تكلف من يلتحق بها شيئاً من النفقات بل كثير مما كان يستعين بعضهم بما تقدمه له الراوية من معونة في مقابلة تكاليف الحياة . والواقع أن البلاد تعتبر مدينة لهذه الروايات بالمحافظة على تراثها الدينى والثقفى خصوصاً إذا عرفنا أنه لم يكن هناك مدارس حكومية في البلاد (٢) حتى سنة ١٨٩٥ إذ كانت الثقافة الشعبية كلها مستمدة من هذه المدارس القرآنية الملحقه بالروايات . وكان لهذه الروايات أيضاً أثر كبير غير مباشر في ازدياد ثروة البلاد الاقتصادية بما احتته من دور كبير في تشجيع تنمية القوافل التي كانت تعتبر حتى بداية القرن العشرين مورداً هاماً في حياة البلاد الاقتصادية إذ استطاعت هذه الروايات بما لها من

E. E. Evans-Pritchard: The Sanusi of Cyrenaica, P. 79 -١

D. C. Cumming: The Modern History of Cyrenaica, P. 14 ٢

فوذروحي أن تنشط الأمر في البلاد وتجعل الجميع يشعرون بالمسئولية تجاه هذه القوافل التجارية فيقدمون لها كل المساعدة والعون بعد أن كانت هدفاً للنهب والسلب . هذا فضلاً عما كانت تجده القوافل التجارية من مساعدة وراحة إذا ما وصلت إلى إحدى هذه الزوايا . وهكذا بفضل مساهمة هذه الزوايا نشطت الحركة التجارية بالبلاد . ومع ما كانت عليه البلاد من فقر ملحوظ في ظل إدارة تركية ضعيفة ومن الأهالي كانوا ينظرون إلى تلك الفترة التي تلت استرجاع الأتراك للبلاد بعد انهيار سلطة الأسرة القره مانية حتى العزو الإبطالي على أنها تمثل عصرأ ذهبياً في تاريخ حياة البلاد^(١) . ولأنك أن مرد هذا الشعور يرجع إلى ما ساهمت به هذه الزوايا في نشر روح الاطمئنان بينهم بعد أن وجدوا لديها الحل للكثير من مشاكلهم الاجتماعية . أما بالنسبة لآثارها في تحسين حالة الأمن العام بالبلاد فقد عملت لكثير ونجحت إلى حد كبير في فص الخصومات والقضاء عليها بين القبائل وبذلك منعت الكثير من الاضطرابات القبلية التي كان لها أسوأ الأثر في أمن البلاد وفي ظل هذا السلام والأمن انتابت البلاد فترة من الرخاء رغم ما تعرضت له من مجاعات شديدة وأوبئة فتكة عامة ولكن كل هذا لم يعيق تقدم البلاد اقتصادياً وازدياد ثروتها الحيوانية وازدهار تجارتها في ظل هذا الأمن المكفول بالسلطة الروحية دون أن يكلف الجميع نفقات باهظة .

وكان لهذه الزوايا كذلك أثر ملحوظ في تحسين إنتاج البلاد إلى درجة كبيرة بتشجيعها للأهالي على حب العمل وتنمية الإنتاج . ومع أن البلاد لم تكن قد عرفت وسائل الإنتاج الزراعي الحديث إلا أنها بفضل جهود هذه الزوايا في الناحية الزراعية بما كانت تستطع من أراض وتشجيع العير على

المساهمة في هذا الميدان تقدم الانتاج الزراعى للبلاد مما ساعد على رفع مستوى المعيشة بين أفراد الأهالى والانتقال بالكثير منهم من حياة الرعى إلى حياة الزراعة والاستقرار ولاحد هنا ما يبنى بيان هذا الأثر في تقدم البلاد أحسن مما قاله الأستاذ كمنج Cumming في كتابه هذا الخصوص وليس هناك شك في أن السنوسية زادت من المقدرة الانتاجية أبرقة إلى درجة ملحوظة بتحسين الأمن العام وبتشجيع العرب على العمل الأكثر . إن البلاد لم تدخلها الوسائل الزراعية الحديثة وأنها ما زالت بعيدة عن الوصول إلى إمكانياتها الاقتصادية تماماً ولكن باعتبار شعبها الصغير وعجزها الطبيعي فإن مستوى المعيشة في أبرقة أصبح عالياً نسبياً بالمقارنة مع البلاد العربية المشابهة (١).

أما عن أثرها في وضع أسس حياة الاستقرار بين القبائل البدوية التي تعودت الانتقال من مكان إلى مكان آخر فشيء قد لمسها الجمع إذ بحكم استقرار هذه الزوايا اضطرت كل قبيلة أن تحافظ على صلاحها الدائمة براوتها الخاصة بها وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم العد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة إلى ذلك وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعاً من حياة الاستقرار والإقامة بعد أن كانت لا تعرف لذلك سبيلاً حتى إذا ما دعتها

DC Cumming: The Modern History of Cyrenaica, P 26_١

"There is no doubt that Sanussism increased the productivity of Cyrenaica to a marked degree both by improving public security and by encouraging the Arabs to do more work. No New agricultural methods were introduced and the country was still far from reaching its full economic potentialities, but considering its small population and physical disabilities, the standard of living in Cyrenaica became relatively high in comparison with similar Arab Countries "

حاجة البحث عن الماء والمرعى أرسلت بعض أفرادها للقيام بهذه المهمة دون الانتقال بجميع أفراد القبية حتى لا يتعدوا عن دأورهم ولا يحرموا من الاتصال بها .

وحلاصة القول أن موضوع هذه الرواية التي وضع أساسها السيد السوسى الكبير وثريها في حمة البلاد حدير أن يكون موضوع بحث خاص تشعب بواجبه مما يحسن من الصعب استيفائه حقه في مثل هذا الموضوع من الخلفه الدراسية العامة وأنا لا نجد لها تسمية حقيقية تصق عدها وعلى ما أدته للبلاد من خدمات ثقافية ووراعية واقتصادية وتعليمية وتحسين عام للبلاد وشرف لوائه وإيواء للفقراء وأبناء السبيل إلا اصطلاح المراكز الاجتماعية ، 'Social Centres' الذى أطلقه عليها الأستاذ ابهرير ينشرد ولكر مع الأخذ بهذا الاصطلاح بأوسع معانيه ، وهكذا أنتقت لنا هذه الرواية بما وضعه لها السيد السوسى الكبير من سياسة وأهداف أن صاحبها كان مصاحداً اجتماعياً كبيراً بكل ما في هذه العبارة من معنى حقيقي .

...

...

...

عزمتنا باختصار فيما سبق الدور الهام الذى لعبته الرواية في نجاح دعوة السوسى الكبير وإن كان جزم كبير من هذا النجاح أيضاً يعود إلى حسن اختياره للرجال الذين عاونوه في مهمته هذه وأسير أحلصوا له بدورهم وكان معظم هؤلاء الرجال من بلاد المغرب ويكنى أن تذكر من بينهم السيد أحمد بن عبد القادر الرضى الذى ينتمى إلى بلاد الريف من بلاد المغرب والذى تعرف «السيد السنوسى الكبير» في مكة

المكرمة وأخذ عليه الطريقة ولارمه في نشاطه وحصر معه إلى برقة
وكانت له مكانة خاصة في نفس السيد السنوسي الكبير لما كان عليه من ورع
وتقوى وعلم غزير حتى أنه عهد إليه بالاشتراك مع السيد عمران بن بركة
الفيثوري بالوصاية على السيد المهدي والسيد محمد الشريف بعد وفاته وقد استمر
السيد أحمد الربيعي بسد الدعوة بمجوده في عهد السيد المهدي ولارمه في رحلته
إلى قرو، بالسودان وعند وفاة السيد المهدي هناك رجع دلتحت الذي كان
يصم جهاته إلى الكفرة وهناك توفي السيد أحمد الربيعي في سنة ١٩١١ قيل
العزو الإيطالي للسيد بعد أن عمر ما يقرب من التسعين سنة وقد عهد إليه
السيد السنوسي الكبير في حياته بمهمة تدريس العقيدة الإسلامية والنحو
والفلك والنسوف في معهد المحسوب وكان شاعراً ولكنه من النوع المقل
وسا لم يصل شيء من شعره ومن المعروف أن السيد أحمد الربيعي قد تلقى
علومه في جامع القرويين بفاس وانتسب المعلوم حتى الفلك والاسطرلاب
والهندسة والرياضيات (١). ومنهم أيضاً السيد علي عبد المولى من بلدة سفاقر
تنوس والسيد عمران بن بركة الفيثوري من بلدة طلمين بلوينا العربية والسيد
محمد مصطفى المدني وأصه من بلدة تلمسان بالجزائر وكذلك السيد محمد الكري
من واحة بسكرة بالجزائر. وكان هؤلاء السادة يكوون مجلساً عُرف باسم
ومجلس الاحوان، اعتمد عليه السيد السنوسي الكبير في حركته الإصلاحية
بأخذ رأيه والتشاور مع أفراد بعد أحسن اختيارهم فكانوا خير مخلصين له
له ولدعوته الإصلاحية. وهكذا كان مانه البهانة المستقاة فضل كبير في
نجاح هذه الدعوة وربما كانت التسامح قد أنت بحية للسنوسي الكبير لو أنه
الاختيار وفرط رجال هذا المجلس في الامانة التي عهد لهم بها. وهكذا أيضاً

كانت فرائد السيد السنوسى الكبير فى اختيار الرجال المعاوين له أكبر عامل فى نجاح دعوته فكثيراً ما كانت بطانة سوء عامل هدم للحركات الإصلاحية وأصحابها إذا كانت لا تراعى إلا مصلحتها الخاصة ولا يهتم من الأمر إلا ما يمس كيانهما والتاريخ حافل بالكثير من الأمثلة والحوادث المؤيدة .

وبمرور الزمن اكتسبت هذه البطانة نظاماً خاصاً بها هو المعروف بنظام «الاحوان» وهم أولئك الذين التقوا حول السيد السنوسى الكبير وساعدوه فى مهمته وقد راد عددهم بانضمام الكثير من تخرج فى هذه الروايات على يد السنوسى الكبير وخلفائه وإليهم يرجع الكثير من الفصل فى نجاح هذه الروايات فى قيامها بمهمتها إذ كانوا هم المشرفين عليها المنحرفين لها وقد خدموها باخلاص وتعاونوا فى سبيلها مد أن أسس السيد السنوسى الكبير روايته الأولى المعروفة براوية «البيضاء» الحبل الأخير فى سنة ١٨٤٣ . وفصل جهودهم استتاع السيد السنوسى الكبير أن يطمئن على حركته أثناء غيابه عندما عاد البلاد فى رحلة إلى الأراضى المقدسة سنة ١٨٤٦ ونقطة هناك حتى سنة ١٨٥٣ عندما عاد إلى زاويته بالبيضاء وانتقل منها إلى الجيوب . وكثيراً ما كان السيد السنوسى الكبير يغيب عن روايته الرئيسيه . متفقداً بقية الروايات وهو مطمئن لسير الأمور فى مركز دعوته على ما أحسن ما يكون والحقيقة أن هؤلاء الاحوان كانوا حلقة الصلة بين السيد السنوسى الكبير وروايات دعوته المنتشرة فى جميع أنحاء البلاد وخارجها كما كانت هذه الروايات نفسها حلقة الصلة بين الدعوة السنوسية وأهل البلاد واستطاع السيد السنوسى الكبير أن يخلق منهم قاة للطريقة تولوا أمرها فيما بعد بفض ما وجدته بهم من استعداد خاص وإيمان عمادى دعوته وقد ترك الكثير منهم أهله وبلاده وفصل الالتحاق به وصحته فى جميع تنقلاته حتى استقر به الأمر أخيراً فى واحة الجيوب . وما ساعد هؤلاء الاحوان فى نجاح مهمتهم أن معظمهم كن غريباً عن البلاد

ونظامها القسلي مما حثهم من الانغماس في الولاء لتقاليد المحلية الموروثة وما أكسبهم مكانة خاصة في نفوس القبائل صمنت لهم الاحترام والطاعة التامة وقد تدعم مكان الكثير منهم بالمصاهرة مع أفراد البيت السنوسي نفسه حتى إذا ما انتهت حياة السيد السنوسي الكبير كان هؤلاء الاخوان خير حفظة لتراثه الاصلاحى وكان فيهم خير وصى على ابنه وبفصل حسن رعاية من كلف منهم بالوصاية عليها استطاع السيد المهدي السنوسي أن يتابع سيرة والده وأن يسير بالدعوة السنوسية إلى الأمام .

وقد نجح هذا النظام والاخوانى، الذى وضع أسامه السيد السنوسي الكبير في مساعدة قادة الطريقة السنوسية فيما بعد وكانوا خير عون للبلاد في المحن التى صادفتها وإلهم يرجع الفضل في حق مجتمع حثاس بالبلاد وفي اثرة الحية الوطنية والدينية بين صفوف الأهالى عندما أعدت إيطاليا على البلاد فيما بعد ونجحوا في صبح نصال الشعب ضد الايطاليين بالصيغة الدبيلة مما جعل العالم الاوربي يحشى نشوب حرب دينية صليبية باستتارة شعور العالم الاسلامى لما كانت ترتكبه إيطاليا من أعمال عنيفة بغية الوصول إلى إخضاع البلاد وكبت روح المقاومة المستعرة فيها والتي نجح هؤلاء الاحوان في إلهابها ودوام استمرارها . ويكفى أن نذكر من خريجي هذا النظام الاخوانى الشهيد عمر المختار بطل المقاومة الشعبية في الأعوام الأخيرة من كهاج ليبيا وكيف استطاع بما في نفسه من ايمان عميق بوطنه ودينه أن يكون أقوى من قوى القوات الايطالية ووسائلها . وما كان ليصل إلى هذه المرتبة العالية من الايمان لولا أثر تعاليم السيد السنوسي الكبير في نفسه ونظامه الاخوانى في صقله إلى أن لاقى ربه شهيداً مع نقيه الشهداء فسلام عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حيا .

ولا يمكن استيفاد الكلام عن السيد السنوسى الكبير وحركته دون تناول علاقته بالخلافة العثمانية أو بتعبير أدق مدى التعاون بينه وبين السلطة العثمانية الحاكمة . وقد سبق الإشارة بصورة عابرة فى الصفحات السابقة الى ما كان بينه وبين السلطات العثمانية نملة فيما ساور رجال ادارتها من شك وخوف من نشاطه وحذر وانتباه من جهته . والواقع أن العثمانيين كانوا يظنون إليه وإلى دعوته بشيء كثير من الارتياح لما قد يترتب عليها من تطور فى سيادتهم على البلاد خصوصاً وأن السيد السنوسى الكبير فى دعوته الإصلاحية قد جاء عقب دعوة المصلح محمد بن عبد الوهاب فى شبه الجزيرة العربية وما اقترنت به من عنف كاد يعرض السيادة العثمانية على الأراضى المقدسة للزوال لولا استنجد الباب العالى بمحمد على والى مصر الذى أعاد للعثمانيين سيادتهم من جديد على شبه الجزيرة العربية وتمسك محمد على لحرب الوهابيين رغبة منه فى توطيد مركزه لدى رجال الباب العالى . ومما زاد فى خوف العثمانيين من السيد السنوسى الكبير ودعوته اعتقادهم فى اتصاله بالدعوة الوهابية وقد أمضى فى الأراضى المقدسة حوالى العشرين عاماً وإن كان السيد السنوسى الكبير وحلفاؤه من بعده ينفون أى صلة لهم بالحركة الوهابية وإن تشابهت دعوته الإصلاحية بدعوة محمد بن عبد الوهاب فى بعض مسائل اقتضاها ما جاء بخصوصها فى القرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة . كل هذه القرائن جعلتهم ينظرون إلى السيد السنوسى الكبير فى دعوته نظرة التخوف والارتياح وهم الذين لم يمض وقت طويل على استردادهم للبلاد اللبية وصمها من جديد للحظيرة العثمانية بعد زوال حكم الاسرة القرمانلية . وكان على العثمانيين أن يعملوا على توطيد هذه السيادة وتدعيم نفوذهم فى الشمال الافريقى فإن فرنسا قد جاورتهم بعد أن احتلت الجزائر وأحدثت تنجها بانظارها إلى املاك الدولة العلية المجاورة . وخلاصة القول أن السيد السنوسى الكبير قد ظهر بدعوته فى وقت كانت فيه الدولة العثمانية تعاني الكثير من الحركات الاستقلالية

والانفصالية من شعوبها الخاضعة لها وقد سلك قادة هذه الحركات الاستقلالية طرقاً مختلفة إلا أنها جميعاً قد اصطفت بالصيغة الإصلاحية حتى تكسب عطف الغير وتدعم نفسها . لهذا لا تعجب إذا رأينا العثمانيين قد ساورتهم الوسواس من ناحية السيد السنوسي الكبير ونظروا إليه هذه النظرة الارتيازية وقد استطاع أن يخلق من قبائل لوبيا لاسيما في لوبيا الشرقية مجتمعا آخر يختلف عما كانت عليه بفضل نشاطه الإصلاحى حتى أصبح هذا المجتمع الجديد في ظل السيادة العثمانية وبفصل دعوة السيد السنوسي الكبير اسمه بامبراطورية داخل امبراطورية اخرى (١) *An Empire within an Empire* . والحقيقة التي يجب أن يسلم بها الجميع أن حركة السيد السنوسي الكبير الإصلاحية كانت تحمل في طياتها بذوراً طيبة تصلح أن تكون أساساً لاجتاديين سياسى لبلاد على قواعد اسلامية خالصة كما تصلح أن تكون نواة متماسكة لامبراطورية اسلامية كبيرة . فشان كل دعوة دينية أن تنتهى بدعوة سياسية اصلاحية اد الاسلام لا يعرف حداً فاصلاً بين سلطته الدينية والرمزية وما كان سيدنا محمد صلوات الله عليه في دعوته إلا رسولاً وريساً للحكومة الاسلامية الأولى . وهذا ايضا ما دعا بقية الدول الأوروبية الأخرى إلى أن تتوجس خيفة من حركة السيد السنوسي الكبير وخليفته وأن تحسب لها ألف حساب وأن يهتم مفكروها بدراسة اسسها وتحليلها واخراج المؤلفات عنها ولما في اسم بعضها (٢) فصلا عما تحتويه من آراء وتحليلات ما بين لنا مدى ما كان يسيطر على العقل الأوربي من تقدير لخطرها . وقد اخبرني الشيخ بشير السعداوى أنه قرأ في شابه كتابا باللغة التركية بعنوان *داسيلاي جهان* ، (٣) وهو ترجمة تركية مقولة عن الاصل الفرنسي وقد شرح فيه مؤلفه الفرنسي الحركة السنوسية وأهدافها

(١) P. C. Cunningham The Modern History of Cyrenaica P. 20

(٢) راجع قائمة المصادر الاقليمية

(٣) العالم الاسلامي .

رأياً من وراء ذلك إلى بيان خطورة هذه الحركة على شعوب أوروبا بخدراً العالم منها متنبأ لها بالاجحاق في ضم شمل العالم الاسلامي في شمالي افريقية وآسيا ثم توجيه هذه القوة الاسلامية العتية المتحدة إلى أوروبا لاسترجاع اسانبا والرحف منها إلى بقية القارة الأوربية وقد كتبه مؤلفه بطريقة شيقة تدفع الاسان إلى الاسكباب المتواصل على قراءته .

وقد فطر السيد السنوسي الكبير إلى ما كان يضمه له العثمانيون من شعور خاص بعمل على عدم الاحتكاك بسلطانهم الممثل في رجال ادارتهم حتى أنه اضطر إلى التوغل في الصحراء ليكون بعيداً عن متاول شرهم إذا ما فكروا في النيل منه (إذا أخذ بالزأى القاتل في عية انتقاله إلى الحصوب) ولم يد من السيد السنوسي الكبير من الأعمى والشعور ما يحمله عرضة للمؤاحدة بل عمل على المحافظة على إظهار الولاء بالخلافة العثمانية وسلطانها في كل المناسبات والظروف . وإذا كان بعض المؤرخين (١) يرون أن السنوسي الكبير كان يضم شعوراً خاصاً نحو الأتراك لاغتصابهم للخلافة الاسلامية حتى أنها أصبحت بهذا الاغتصاب غير قرشية ولا عربية فإن هذا القول مداع فيه ومحاولة غير ناجحة لتفسير شيء غير موجود في اغتصاب الترك الخلافة بل حموا عنها ورفضوا الوادها ولم تبت فكرة الاعتصاب إلا بعد ضعف العثمانيين . وليس غريب أن تفرق دعوة السيد السنوسي الكبير مثل هذه الأقوال إذا كثيراً ما كان موضوع الخلافة الاسلامية خصوصاً أثناء الحرب العالمية الأولى محل بحث ونقاش عند ما وجدت دول الخلفاء من المصلحة كسب شعور العلم الاسلامي إلى جانبها على أثر انضمام العثمانيين إلى الألمان والقول باعتصاب سلاطين آل عثمان للخلافة وعدم تارل المتوكل آخر حلفاء العباسيين بمصر لهم عنها عندما غزا السلطان سليم الأول مصر واستولى عليها وأخذ معه المتوكل إلى

القسطنطينية وذلك حتى تكون الشعوب الاسلامية في حل من الوقوف إلى جانب الأتراك في نضالهم ضد الخلفاء . والواقع أن موضوع تنازل المتوكل الخليفة العباسي بالقاهرة عن الخلافة الاسلامية للسلطان سليم الأول لم يتسببه البحث فيه بالثني أو الإثبات وأنه ما زال إلى يومنا هذا موضع مناقشة المؤرخين والباحثين .

وقد كان السيد السنوسي الكبير أكبر من أن يتأثر بمثل هذه الأقوال التي أحدثت انتشاراً في القرن التاسع عشر خصوصاً وأن بني عثمان قد احتفظوا بالخلافة الاسلامية في أيديهم مدة طويلة دون أن يفكر أحد في منازعتهم إياها وقد كانت تركيا هي القوة الاسلامية الوحيدة المستقلة التي لها من القدرة دعم مكنت تعانه من ضعف على حماية كافة مصالح المسلمين فلم يكن من الحكمة ولا من المصلحة الاسلامية العامة التفكير في الخروج على السيادة العثمانية وخلق مشكلة جديدة للعثمانيين الذين كانوا يعانون الكثير من أمثالها بسبب طموح بعض المقامرين ومساعدة الدول الأوروبية لهم رغبة في تحقيق بعض المآرب الاستعمارية .

وكان الرمن كفيلاً بتحسين العلاقات بين العثمانيين والسيد السنوسي الكبير خصوصاً بعد أن أطمأنوا إلى حركته ولم يتمسكوا عليه بما يتضرر من سلطانهم بل وجدوا فيها كل معونة لهم . وإذا كانت البلاد قد تمتعت بشيء من الأمن وما ينجمه من رخاء نسبي وباستقرار في الحكم والفضل في الكثير من هذا يرجع إلى دعوة السيد السنوسي الكبير وزواياه التي ساهمت إلى حد كبير في بعض الخصومات بين القبائل المتصارعة قبل أن يستفحل خطرهما فتهدد الأمن العام بامطرادات دائمة ولهذا تميزت فترة حكمهم الثانية عما كانت عليه في العهد العثماني الأول مع أن العثمانيين لم يعملوا الكثير من أجل تحسين نظمهم الادارية وتحسينها إلا في الأعوام الأخيرة السابقة للإحتلال الإيطالي للبلاد ويبدو أن

الأتراك وقد رأوا تعاضل يهود الدعوة السنوسية في البلاد بفضائل نشاطها
ومساندها السلبية أن من الخير العمل على كسب رئيسها وأصحابها إلى جانبهم
ولهذا يرى السلطان عبد المجيد الأول بمنح "السنوسية" في سنة ١٨٥٩ عهداً
"Charter" يعني جميع أملاكها من دفع الضرائب وسمح لرئيسها بجمع الاعشار
الدينية من أتباعها وقد صدر فرمان هذه الإرادة السنية من اسطنبول وحمله إلى
برقة السيد عبد الرحيم المصوب الذي تمكن من مقابلة السلطان عبد المجيد
الأول رغم ما وحده من صعوبات في سبيل ذلك كما كان يحدث عادة لأولئك
الذين يقصدون العاصمة العثمانية رغبة الحصول على مثل هذه المقالة وقد تأكد
هذا الاعفاء مرة أخرى من حابب العثمانيين في عهد السلطان عبد العزيز شقيق
السلطان السابق عند ما أحضر السيد أبو القاسم العيسوي فرماناً آخر من
اسطنبول إلى والي طرابلس فيه ما يؤيد استمرار هذا الامتياز ويضيف إليه
حرمة أراضي السنوسية في حدود الأراضي الخاصة بها

وعلى كل فإن الأتراك وإن حارهم الشك من جهة السيد السنوسي الكبير
ودعوته إلا أنهم كانوا على بدة من أنه وإن دعه سيقفون إلى جانبهم في أي
نضال يحوصونه ضد أقوى المسيحية في أوروبا ولن يكونوا عليهم . وهذا
ما حققته الأيام في الأعوام التالية عندما غزت إيطاليا البلاد واشتبك بها
العثمانيون في حرب كان معظم اعتمادهم فيها على أهل البلاد وما ذلك إلا لتعمل
الأسس التي وضعها السنوسي الكبير في نفوس خلفائه وأتباعه .

...

...

...

وفي اليوم السابع من شهر سبتمبر سنة ١٨٥٩ انتهت حياة السيد محمد بن
علي السنوسي الخافق بالنشاط والإصلاح ودفن في الجعوب وما زال قبره إلى
يومنا هذا مزاراً للترك واستلھام الصبر في الشدائد واستذكاً لتاريخ حياته
وهدف دعوته . وقد كان طويل الخدم صبوح الوجه فصيح اللسان قوي

الحجة في الحديث قوى الإيمان بدعوته صورياً على تحمل المتاعب في سبيل الخير . قوى الشخصية حتى إنه اكتسب مكانة خاصة في نفوس أتباعه ومعاصريه فالتحق به الكثير من بلاد المغرب وأهدبها وتركوا أوطانهم وأهلهم وتبعوه في رحلاته وتنقلاته وأجابوا مطلبه عندما بعث بهم كيشرين لدعوته إلى البلاد التي أحضرها لهم ويكنى أن يعرف أن يدور بلاد العرب ولوبياء الذين عرفوا بشدة تمسكهم بالتقاليد وماتوا رثوه عن آبائهم من عدائهم فضلاً عما كانوا يعيشون فيه من جهن عام قد قبلوا دعوته وأقبلوا عليها متدافعين دون إكراه لهم عليها وانحدوا منه مرشداً عاماً لهم في مسائلهم الدينية والزمنية . ولم يكن السيد السنوسي الكبير صاحب دعوة إصلاحية حسب بل كان رجلاً فقيهاً محباً للعلم وأهله . وكان كذلك مؤلفاً ترك لنا الكثير من المؤلفات القيمة رغم كثرة أسفاره وتنقلاته وصق وقته عن القيام بمش هذا النوع من النشاط العلمي كل ذلك يتبين لنا تماماً في المكتبة العلمية التي وضع أساسها ورودها بالكتب النادرة وألحقها بمعهده المحبوب وفي المؤلفات العلمية التي تركها ، أنا والتي وهبها رسالة باسم شعاع الصدر بأرى المسائل العشر وهي في حكم رفيع الدير في الصلاة وفي القصص والاستعادة وفي التسمية للفتحة والسورة وفي التأمل وغير ذلك وكتابه المسمى بعشر المسمى بعمة المقاصد في خلاصة المراد ويبدو من مقدمة الكتاب أن السيد السنوسي الكبير قد ألفه وهو في مدينة المنورة بالأراضي المقدسة وهو يتناول مسائل فقهية قام بتوضيحها في هذه الرسالة على أثر توجيه الكثير من الأئمة إليه بخصوصها من أهل اليمن وبلاد المغرب ويهيم هذا الكتاب رسالة باسم السلسلة المعين في الطرائق الأربعين ورسالة رائعة باسم نقاط الوجود في العمل بالحديث والقرآن وأخرى باسم المسائل العشر . وكل هذه المؤلفات مطبوعة وفي متناول طالب البحث في الفقه الإسلامي ولم يكن نشاطه في التأليف قاصراً على

المسائل الفقهية وما يتصل بها بالشريعة الإسلامية بل ساهم في علم التاريخ وترك
لنا كتاب الدرر السنية في أخبار السلاطة الأدرسية، وهو مصدر له قيمته
بين كتب التاريخ التي تناولت أحداث الشمال الأفريقي منذ الفتح الإسلامي
ويعتبر مصدراً أساسياً لكل من يطلب استقصاء أخبار دولة الأدرسة في
بلاد المغرب وما تفرع منها من دويلات أخرى فضلاً عن تعرضه في أول
الكتاب لفائدة علم التاريخ والاساس (١)

توفي السيد محمد بن علي السنوسي وقد ترك من بعده ابنين هما السيد محمد
المهدي والسيد محمد الشريف ولصهر سبها ترك الوصاية عليهما للسيد أحمد
عبد القادر الربيعي بالاشتراك مع السيد عمران بن بركة الفيتوري اللذين أحسنوا
القيام بهذه المهمة حتى استطاع حليفته السيد محمد المهدي الإشراف بنفسه على
ما حلفه له أبوه من تركة إصلاحية مثقفة بالمشروعات العملية فكان خير حلف
لخير سلف ولنا في حفيد السيد السنوسي الكبير وحليفته في زعامة الحركة
السنوسية السيد محمد أدريس السنوسي ملك لويلا المعظم ما يجعلنا نؤمل كل خير
للبلاذ وأهلها في عهدها الجديد .

هذا عرض سريع لحياة السيد محمد بن علي السنوسي الكبير ودهوته وأثرها في
البلاد رحم الله المصلح الكبير وأسكنه مسجده جاته بقدر ما أدى للبلاد من
خدمات موفقة وبقدر ما بذل من جهود إصلاحية في سبيل كوحدة من مجموع
العالم الإسلامي وبقدر ما كرس حياته من أجل نهضة شعوبه والعودة به إلى
أيام السؤدد والمجد .

١ - قام بطبع جميع هذه المؤلفات لسابقه ذكر على فقه الخاصة خير المؤلف السيد
محمد أدريس المهدي السنوسي ملك لويلا المعظم .

المصادر

١ - المصادر العربية :

- ١ - الخشاشي (محمد عثمان الخشاشي) : جلاء الكرب عن طرابلس العرب أو الصفحات المكيّة في أحوال السولة الطرابلسيّة ، نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة بمكتبة بلدية الاسكندرية .
- ٢ - النائب (أحمد الأنصاري) المهمل العذب في تاريخ طرابلس العرب .
- ٣ - شكرى (دكتور محمد فؤاد شكرى) : - السنوسية دين ودولة .
- ٤ - سيرت و . أرنولد (Sir T. W. Arnold) : الدعوة إلى الاسلام (ترجمه دكتور حسن ابراهيم حسن ، عبد المجيد عابدين ، اسماعيل النجراوى) مكتبة النهضة المصرية . القاهرة سنة ١٩٤٧ .
- ٥ - لوثرروب ستودارد الأمريكى (Lothrop Stoddard) : حاصر العالم الاسلامى (ترجمة عماد نويهض وتعليقات الأمير شكيب أرسلان) .
- ٦ - السيد أحمد الشريف السومى : الأتوار القدسيّة في مقدمة الطريقة السوسية (استأصول عام ١٣٢٩ - ١٣٤٢ هـ) .
- ٧ - السيد محمد بن السيد على السومى : الدرر السنية في أحوال السلالة الأدرسيّة (القاهرة ١٣٤٩) .
- ٨ - أحمد حنين : - في صحراء ليبيا .
- ٩ - سالم بن عامر : عدة مقالات عن السومى الكبير بمجلة عمر المختار التي كانت تصدر ببغداد (١٩٤٣ - ١٩٤٤)

ب - المصادر الانجليزية

- 1 - E. E. Evans - Pritchard - The Sana'a of Cyrenaica - Oxford 1949.
- 2 - E. E. Evans - Pritchard - The Place of the Sanusiya Order in the History of Islam, «Orientalia Prava Triologica».
- 3 - Major E. E. Evans - Pritchard - Biographical Notes on members of the Sanusi Family.
- 4 - Major E. E. Evans Pritchard : The Non-Sanusiya Order in Cyrenaica.
- 5 - A. C. C. Adams - The Sanusiya Order, «Handbook on Cyrenaica, Part X, Cairo, 1944-1947».
- 6 - C. Cunningham - The Modern History of Cyrenaica «Handbook on Cyrenaica Part V, Cairo 1944-1947».
- 7 - K. D. Bell - Kufra, «Handbook on Cyrenaica, Part IX Cairo, 1944-1947».
- 8 - Rosta Forbes - The Secret of the Sahara, Cassell & Co London.
- 9 - Encyclopaedia of Religion and Ethics, art «Sanusiya».
- 10 - The Encyclopaedia of Islam.
- 11 - The Encyclopaedia Britannica.
- 12 - J. R. Threlfall, Sanusi and his Threatened Holy War, «The Nineteenth Cent. & After, March 1900».
- 13 - T. R. Wilson - The Moslem Menace «The Nineteenth Cent. & After, Sep. 1907».

ج — المصادر الفرنسية :

- 1 L. Rinn - Marabouts et Khouans, Alger, 1884
- 2 O. Depont et X Coppolani - Les Confréries religieuses Musulmanes, Alger, 1897
- 3 Duveyrier, H., - La Confrérie Musulmane de Sidi Mohammed ben 'Ali es Senoussi et son Domaine géographique en l'Année 1300 de l'Hégire - 1883 de notre ère, Paris, 1884.
- 4 Laminens : L'Islam, Beyrouth, 2nd ed. 1941
- 5 Le Chatelier, A., - Les Confréries Musulmanes du Hedjaz Paris, 1887.
- 6 G. Bonet Maury: L'Islamisme et le Christianisme et Afrique.

« نحن في طريق الوحدة »

أديس الأول

الأسس الجغرافية والتاريخية

للوحدة اللوية *

[illegible]

ظهرت لوبيا البندوب العربية اثمنه كدولة مستقلة ذات سيادة لتعلم في
عام سنة ١٩٥١ بعد أن أعلن ذلك أدرس الأول ملك لوبيا المعظم في احتفال
رسمي مشهود يوم الاثنين الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١ وداكات القصة

(١) هذا وصو كاني في أسامة عمره ثلث في وعنه شخصات بالداره عارف بطريق
 ب في ربيع سنة ١٩٥٥ م سنة زاره القاطنة الثغاية الثوسية للخطر العربي من البلاد ، وقد
 نظرت هذه التسمية مع سي . من . حوير شذبت في تحفة الرسالة رقم (عدد ٨٨٤ وعدد ٨٨٥)
 وقد رأيت مؤلفات بعض كتابه هذا . وصورة عامية من أصل عنه شذبت كثير من التعديل
 والزيادة اختصتها روح البحث المطبوع .

الولية قد احتلت في الأعرام الأخيرة مكانة دولية هامة استرعت اطار العالم فإن عدداً كبيراً من الاحصائيين قد انصرف إلى دراسة شئونها المخيفة كل فيما احتض فيه وخرجت اليها المطابع الافريقية ناعشات شتى بخصوصها كأن أهمها بالنسبة لموضوعنا هذا ما يتعلق بتاريخها وجغرافيتها .

على أن أهم ما يلفت النظر في هذه المؤلفات العلمية الحديثة اتجاهها انماها حاصراً في دراسة البلاد على أساس اقسامها الثلاثة وبحث كل قسم مسب على أنه كل مستقل قائم بذاته وله خصائصه التي يعرّفها وليس الحصاص أو الخوف من تضخم الكتب هو الذي دفع معظمهم إلى هذا المهبج في البحث ولكن هي الروح الانفصالية والتمهيد لذلك عن طريق العلم حتى ينتشر الفكرة وتعم فتكون نواة صالحة لتفسير تنفيذ الأغراض السياسية وهكذا وجدنا الحقائق في بعض الكتب تلوى لياً وتطمس طمساً في سبيل الوصول إلى هذه العاية . وهكذا وجدنا رجال السياسة قد اتخذوا من هذه الحقائق التي ليست إلا وهما جسمه البحات وهولوا فيه عماداً لتدعيم نظريتهم الرامية لمحاولة تقسيم البلاد والوقوف دون وحدتها التامة حتى يعود كل منهم نصيبه من هذه الفريسة التي وضعت أهميتها لتبيان بعد الحرب العالمية الثانية .

والغريب أن بعض هؤلاء الكتاب قد تعارضت آراؤهم في الحدود التي يجب أن تكون عليها اقسام البلاد لاسبب فيها بين رقة وطرابلس حتى كادت القسمة تنهيا أسبابها بعد أن عملوا لها فقامت بين بعضهم معارك علمية حادة كان أهمها ما نشرته المجلة الجغرافية للجمعية الجغرافية بلندن (١) بين الاستاذ

(١) The Royal Geographical Society The Geographical Journal London Sept., Oct. (1945), May - June (1946).

الدكتور ايفنر بريتشرد Evans pritchard الامتداد حالياً بجامعة اكسفورد والامتداد كندى شو Kennedy SHaw وقد كان الأول يشعل وطيفة سياسية بالادارة البريطانية الكثة لبرقة بعد طرد الايطاليين منها وقد أمضى هناك أكثر من سنتين صرف معظمهما بين الدو حصوفاً أولئك الرحل منهم كما جاء ذكر ذلك في مقدمة كتبه « The Sinusi of Cyrenaica » أما الثاني فقد شعل هو الآخر وطيفة سياسية في الادارة البريطانية لطرابلس العرب في الشئون العربية Arab Affairs « لمدة عام واحد .

وبما بلغت النظر في هذه المناقشة العلمية بين الاستاديين السابق الذكر أن الامتداد ايفنر بريتشرد يقرر في مقالته المنشور بهذه المجلة (١) أن برقة وطرابلس قد كانتا تحت سيادة أجنبية واحدة مثلة في تركيا في أول الأمر ثم ايطاليا فيما بعد ويعترف بأن الحدود بينها طيلة هذه المدة كانت مجرد حدود إدارية فقط اقتصتها ظروف الاشراف الاداري وتسهيل مهمة القيام به . ويذهب إلى أن هذا عندما يدكر الحقيقة التاريخية وهي أنه لم يكن هناك حارة حد ثابت قوى بين برقة وطرابلس (٢) « There has never been a hard fast frontier between Cyrenica and Tripolitania » وهو في كلامه هذا لا يعنى فترة معينة بالذات بل يجعل قوله رأياً قاطعاً شاملاً وفي الوقت الذى يقرر فيه الأستاذ ايفنر بريتشرد هذه الآراء ويسجلها في المجلة الجغرافية العلمية ذات المكاتب المعلومة نراه يعود مرة أخرى وقد أخرج كتابه « The Sinusi of Cyrenaica » في سنة ١٩٤٩ بنقض رأيه هذا رأساً على عقب فيرى في أحجار الصحراء إلى البحر عند خليج سرت خير فاصل لبرقة عن طرابلس ويحاول الاستناد على اتاريخ لتأييد رأيه الانفصالي هذا

(١) The Geographical Journal, May-June (1946).

(٢) المصدر السابق ص ١٦٩

ويذكر أن تاريخ هذين الاقليمين فيه ما يثبت أن كلا منهما قد سار في طريقه الخاص به فيما ارتبطت برقة بمصر الاغريقية ارتبطت طرابلس بقرطاجنة الفينيقية وفي الوقت الذي ذهبت فيه برقة مع بزنطة كانت طرابلس من نصيب روما . ثم يحاول تدعيم رأيه في خليج سرت كمسطقة حدود بين الاقليمين باقتباس ما قاله الاستاذ ديپوا *Depois* في هذا الخصوص حيث يقول : إن خليج سرت الكبير دون أي راع أحد الحدود المعينة من الناحية الطبيعية والحسية التي لا توجد في أي مكان آخر من العالم ، (١) .

وفي الوقت الذي كان فيه الاستاذ ايفنز بريتشرد يماله من سلطة إدارية في برقة يحاول استقصاء مدى تعلل النفوذ السنوسي في طرابلس ويقوم بالحوالات لهذا الغرض كما جاء ذكر ذلك في مقاله السابق الذكر ليقرر على أساسه الحدود العربية لبرقة راه يدعو إلى فصل برقة عن طرابلس على أن تكون الحدود العربية للأقليم الأول متمشية مع الخط الممتد من بويرات الحسون على البحر الأبيض إلى واحة سوكة في الداخل بما في ذلك منطقة سرت كلها . وهو يرى في حالة نسر قيام هذه الحدود بهذا الشكل بين برقة وطرابلس فلا أقل من قبورها لانعام هذا الفصل متمشية مع الخط الممتد من وادي هراوة *Wadi Harawa* إلى واحة رلة تاركا بقية طرابلس لتقرر مصيرها الأيام ومظلة الأمم المتحدة مع أن النفوذ السنوسي لا يقف عند هذه الحدود التي أريد رسمها ولكنه يتعدى ذلك ويشمل طرابلس كلها ولنا فيما كتبه الاستاذ ايفنز بريتشرد نفسه في كتاب *The Sanusi of Cyrenaica* مخصوص انتشار الطريقة السنوسية ، يؤيد قولنا هذا وما يتعارض مع ما قال به في مقاله السابق

المذكر . فهو يعترف بانتشار الطريقة السنوسية في عهد السنوسى الكبير في كل الشمال الافريقى حتى أنها شملت القبايل المتبقية في طرابلس كما استطاعت عن طريق تجارة القوافل الوصول إلى فزان ثم يعود ويؤكد هذا مرة أخرى عندما يذكر أن الطريقة السنوسية كانت هي السائدة في الشمال الافريقى من وادى النيل إلى حدود تونس ومن البحر الأبيض إلى الصحراء الكبرى ويقرن كلامه هذا بخريطة يبين فيها توزيع الرواب السنوسية في الشمال الافريقى والاد المغرب ومنها يتضح للقارىء أن عددها في طرابلس لا يقر عما يوجد في غيرها إن لم يرد عليه ولم يكنف هذا من تدعيمه حقيقة لمحت إلى نشر قائمة باسماء الرواب السنوسية عامة ومنها يتبين لنا كذلك أنه كان منها بطرابلس ثمانية عشر راوية وفي فزان خمسة عشر راوية موزعة كما على المدن والمراكز المختلطة . ولا يمكن هذا أيضا من في خريطة طرابلس (١) التي تبين القبائل السنوسية الرئيسية . مما يؤكد له قوة العود السنوسى في طرابلس ويهدم كل محاولة للتقليل من هذا العود لتحقيق بعض الأغراض الخاصة . وبالنظر إلى هذه الخريطة نجد عدد القبائل الممثلة لكان طرابلس تمثيلا صحيحا قد احتلت مكائتها في هذه الخريطة ولا نجد بأما من أراد ذكر اسمائها هنا بطلا عن هذه الخريطة هي : المهارية . اولاد سليمان . اعميمات . القدادقة . ورومة المهارية . المشقة . اولاد يوسف الرتبان . الرجبان . الخراطة . المقارحة . ريدح الحطمان . الحسون .

كل هذه الحقائق المسلم بها من الجميع تعارض ما يدعيه البعض وفي مقدمتهم الأستاذ ايفر برينشرد والأستاذ كمدى شو اللذين اتعب نفسيهما في تعيين الحدود التي يجب أن تعرض على البلاد بالطرق السياسية المعقدة بين الإقليمين

ولا شك أن في نشوب هذا الخلاف بينهما ونقله إلى القراء وإعلانه للجميع بعد أن كان مجرد آراء شخصية أكبر دليل على إعدام مثل هذه الحدود وإلا لما احتكما وتنايت وجهة الطر بينهما لأن هذا الخلاف قد نشأ بدون شك من محاولة خلق شيء غير طبيعي لا وجود له وكل منهما أراد أن تكون صورة هذا الكائن الصناعي حسب ما يشاء ويود لا حسب ما تشاء الطبيعة والواقع.

وأخيراً يحق لنا أن نسأل عما إذا كان لهذه الآراء التي كشف عنها كل من الأستاذ ابفتر ريتشرد والأستاذ كندى شو فيما كتشاه وشراه من أثر في توجيه سياسة الإدارتين البريطانيتين لبرقة وطرانس بخصوص هذا الموضوع بحكم ما كان يشغله كل منهما من منصب في هاتين الإدارتين في ذلك الوقت. لا شك أن سير الحوادث المتتالية في بعد تدفع الإنسان إلى التسليم أثر هذه الآراء ومفعولها في سياسة الإدارتين المسئولتين عن البلاد قبل إعلان استقلالها.

نعود مرة ثانية لأنم اسقط الأخرى التي استند إليها بعض الكتاب ومن بينهم الأستاذ ابفتر ريتشرد للفصل بين برقة وطرانس وأهمها القول بالاختلاف التاريخي للأفليمين أو على حد تعبيرهم بالوسط أن طرابلس قد حصعت للمسيحيين فقرطاجنة في الوقت الذي كان فيه الإغريق يحكمون برقة وأن الأولى كانت تلحق بأفريقية في الوقت الذي كانت فيه الثانية تكون ولاية رومانية أحياناً مع مصر وأحياناً مع حريرة كريت وأن الغلبة للمصر العربي في برقة بعكس الحال في طرابلس حيث نجد المصر البربري يسود سكان البلاد وأن عرب برقة معظمهم من قسائل بني سليم وعرب طرابلس أغلبهم من بني هلال وأن سكان الأجزاء الشمالية من ليبيا يرجعون في أصولهم إلى سلالة اسحر الأبيض أما سكان قران فيرجعون إلى السلالة الإثيوبية.

وهكذا من الأدلة التاريخية المبعثرة التي يمكن أن يأخذ بها الإنسان إذا قرأها قراءة سريعة دون فحص أو تحليل أو دون المأم بحالة السلاسل من الوجهة التاريخية والجغرافية بصفة عامة .

وعلى العموم أن حصح السيادة الانفصالية وإن سلبا بصحتها لا تصلح أن تكون تأييداً للفصل بين جزئي الأمة لأنها تمثل احالات الشادة التي مرت بها السلاسل والتي لا يحو منها تاريخ بلد ما . ومدا يكون الامر إذا نلت عكسها وأتت الأدلة بنقيضها ، هذا الأستاذ فيشر W B Fisher في كتابه « الشرق الأوسط » (١) قد خص برقة وحدها بالكلام على أنها جزء منه بعد أن تكلم عن مصر . وهو في تحديده لمعنى الاصطلاح الجغرافي « الشرق الأوسط » في مقدمة كتابه قد فصل بين برقة وبقيّة السلاسل ونظر إليها على أنها جزء من مصر فألحقها بها وحمل منها حداً غربياً لإقليم الشرق الأوسط . أما ما هي الأدلة التي استند إليها في رأيه هذا وما مدى ما تحويه من صحة فهذا ما يمكن أن نصل إليه إذا عرفنا أنه قد لاحظ أن الصحراء العربية لمصر تمتد حتى برقة دون أي تمييز ظاهري في الوقت الذي يرى فيه أن هناك حداً بين لوبيا الشرقية ولوبيا الغربية متمثلاً في منطقة اجداية واستدل على ذلك في هامش كتبه بأن القوات البريطانية في تقدمها من مصر غرباً قد وصلت إلى منطقة اجداية حيث وقفت بها الحدود الطبيعية هناك . ثم أنه يرى أن الروابط الاجتماعية والاقتصادية التي تربط برقة بمصر أكثر مما هي عليه فيما بين برقة وطرابلس لأن ماشية برقة تجدد أسواقها في مصر ، وأدراكاً ما تذهب بها إلى أسواق طرابلس ثم لا ينس الأستاذ فيشر أن يذكر لنا في تعليلاته لهذه التفرقة أن برقة يسودها الدم العربي أكثر مما هو عليه في طرابلس حيث العلية للجنس الحامي والعنصر

البربرى . ولا ندرى ما علاقة هذا بتحديد البلاد التى تدخل فى اصطلاحه الجغرافى الشرق الأوسط . وأخيراً اتحد إلى جانب هذه المبررات السابقة لتدعيم رأيه الجغرافى فى تحديده للشرق الأوسط تعليلاً تاريخياً آخر وهو أن معظم العزوات التى تعرضت لها برقة قد أتت إليها من الشرق .

أما أن يختلف العلماء الجغرافيون فى تحديد معنى الاصطلاحات العلمية وفى تحديد مناطق الشرق وغيره فهذا ما سلم به لأنه شئ نسبي يختلف باختلاف الأشخاص ومواقع البلاد فما هو شرق بالنسبة للوبيا هو فى نفس الوقت غرب لغيرها وهكذا . وأما أن يتخذ الأستاذ فشر هذه التعليقات الصيغة لبرهنة على فصل البلاد جغرافياً بين أجزائها فهذا ما يمكن الرد عليه .

من المسلم به إلى حد كبير أن طبيعة البلاد فيما بين الصحراء العربية المصرية وبرقة ليست بظاهرة المعالم والحدود وقد سبقه إلى القول به بعض الرحالة والكتاب الأقدمين حتى أن بعضهم وعلى رأسهم الرحالة العبرى قد نظر إلى مدينة الاسكندرية فى رحلته المشهورة على أنها بداية لبلاد المغرب وبمراجعة ما كتبه غيره بهذا الخصوص فى بعض هواش هذا الكتاب يتضح لنا أن هذا رأى سابق قد أخذ به بعض من تعرض لوصف بلاد الشمال الأفريقى . وأما كون الحدود أوضحت بين برقة وطرابلس منها فيما بين برقة ومصر فهذا غير صحيح وإن استدلل الأستاذ فشر على ذلك بوقوف الجيش البريطانى فى تقدمه من مصر غرباً عند منطقة اجداية لأن ذلك التوقف لم يحدث لأن الجيش وجد عوامل جغرافية وقت مواتية تقدمه إلى طرابلس بل حدث ذلك لعوامل أخرى كان فى مقدمتها تلك الخطة الحربية التى رسمتها القيادة العامة وما حدث من تطور حربي فى ميدان السلطان استدعى نجدة الجيش البريطانى لحلفائه اليونان فى حربيهم ضد الغزو المحورى وما ترتب على ذلك من عجز فى قوات الحلفاء فى الشرق الأوسط

وتوقف العمليات في هذه الجهة عند احداية وسفر الجبال وليس قائد
المعجم البريطاني الأول في محدة إلى بلاد اليونان . وإذا كان الجيش البريطاني
في تقدمه قد وجد عوامل جغرافية وفقت به عند احداية لكان تقهقره لم يتم
بتلك الصورة السريعة وبذلك السهولة التامة لأنه كان في امكانه أن يتخذ من
هذه العوامل خير معين له على صد أى هجوم مضدي يقوم به العدو ولاستطاع
بهذه العوامل الجغرافية أن يصمد أمام هجوم العدو لمدة أطول حتى تصله
الامدادات اللازمة ولكن رجال السياسة ونظريتهم الخاصة هي التي دفعت إلى
القول بهذه العوامل الجغرافية العاصمة برعهم بين الإقليميين وراحت في تصويرها
حتى تصوروا القادة العسكريون وغيرهم على أنها شئ كبير بحسب له حساب
وكم من مرة نورد العسكريون في أخطاء حربية بسب ما يديه رجال السياسة
من آراء وهم الذين يبدعون تفسير الأمور ولا يمكن أن يفتح مؤرخ
أو سياسي خريطة فيحكم إذا رأى بعض الخيال أو المستنقعات بوجود
فاصل جغرافي وعلى العموم ليس هنا محل مناقشة هذه العميات الحربية
التي حدثت في لوبيا وكيف حدثت وكيف أدار دفنها القادة العسكريون
على أساس ما قدمه لهم رجال السياسة المسيرون لدفع الأمور في
ذلك الوقت .

وإذا كان الأستاذ فشر قد رأى في كتابه هذا أن الروابط الاجتماعية
والاقتصادية بين مصر وبرقة قوية حتى إنه الحق برقة بالشرق الأوسط على أنها
تكون الحدود العرصة لمصر فقد يكون الأمر كذلك ولكن هي في حد
ذاتها ليست بأقوى وأمتن مما هي عليه بين برقة وبقية لوبيا . ولما أن
حيوانات برقة نجد أسواقها في مصر لا في طرابلس فهذا لا يعنى الفصل
بينهما لأن طرابلس كذلك تشترك مع برقة في هذه الناحية ولها من ثروتها
الحيوانية الخاصة بها ما يدفعها إلى التصدير الخارجي لا الاستيراد ويريد

في هذا وصوحاً إذا علمنا أن معظم الحيوانات التي تصدر من برقة في
الاعوام الأخيرة كان أغلبها قد جلب من طرابلس عامة ومن منطقة سرت
بلاغات والزائر لهذه المنطقة في فصل الربيع يرى أفواجا من التجار وهم
يشتررون الأغنام ويرحلونها إلى برقة برأ لتصديرها من هناك إلى مصر وطبعي
أن تمر هذه الأغنام الطرابلسية ببرقة وهي في طريقها إلى مصر وطبعي
أن يحسبها الأستاذ فشر وغيره على أنها من إنتاج برقة وحدها دون محاولة
التعمق في الاستقصاء مكتفياً بإحصائيات الرسمية والكشوف الحركية.
أما مسألة لسكان ومدى ما يسودهم من دم عرقي أو غيره هذه نقطة سأتى
تحليلها فيما بعد عند التمرض سقية آراء الكُتّاب. وأما القول بأن معظم
هذه العروات التي تعرضت لها برقة قد أتت من الشرق فيمكنني لرد على ذلك
بأن معظم هذه العروات التي يعيها قد تعرضت لها طرابلس كذلك الأمر اى
لا يستدعى هذه التفرقة بينهم. هذا إذا أعفينا من حسابنا تلك العروات أو
الموجات التي أتت من العرب والتي ربطت بين الطرفين وأهمها لغزو الفاطميين.
أما الأستاذ الدكتور عزيز صوريان عطية أستاذ لعصور الوسطى بكلية
الآداب بجامعة الاسكندرية والذي قام برحلة في برقة في صيف سنة ١٩٤٥
وانسى كتب عن رحلته هذه في مجلة الكاتب المصري فقد كان مؤبداً لفكرة
الفصل بين الإفليمين وذهب إلى أبعد من هذا بالدعوة إليها كما يفهم من كتبه
ويمكن أن يرى فكرته هذه بوضوح في الفقرتين التاليتين مما كتبه

١ — « وفي سنة ٢٩٧م عند ما قسم دقلديانوس الامبراطورية الرومانية
إلى قسميها الشرقى والغربى تذهب برقة مع مصر إلى القسم الشرقى البيزنطى
وتبقى في حكم إمارة القسطنطينية إلى أن تدخلها جيوش العرب الظفيرة بقيادة
عمرو بن العاص في سنة ٦٤٢م، (١)

ب - ووحطاً آخر شائع بين الناس ألا وهو اعتبار برقة جزءاً من طرابلس بقدر ما هي في نظرم جزء من الصحراء السورية وما هذا إلا نوع من الشبوط الذي كانت عليه الدعاية السياسية والظروف الاستعمارية القسرية التي ربطت حتم برقة بطرابلس أيام الحكم الإيطالي ولكن جغرافية برقة تختلف كل الاختلاف عن جغرافية طرابلس كما أن تاريخ برقة غير تاريخ طرابلس وقبائل برقة غير قبائل طرابلس مهم أني عنصراً في عروبتهم من اعراب طرابلس وأشد تمسكاً بذواتهم من غيرهم ولعنهم أقرب للهجات إلى أئمة العربية الفصحى القديمة، (١)

أما عن النقطة الأولى فيكفي للرد عليها أن نعرف أن القائد البيروني بلارابوس قد قام في عهد الامبراطور جستنيان باستعادة لوبيا وبقية اشمال الافرنج من الوندال . وقد وجد بين اقليم برقة وطرابلس في ولاية رومانية واحدة فلم يدم ذلك التقسيم الذي وصمه دقلديانوس بين الاقليمين (٢) . ومن هذا يتضح لنا أن ذلك التقسيم كان لفترة قصيرة اقتضتها ظروف الامراطورية لا مصلحة البلاد اللوية وأهلها اللوبيون .

وأما عن النقطة الثانية وما حوته من عناصر تصلح في رأيه أن تكون أساساً لتقسمة بين الاقليمين فقد سبق مناقشتها ومع كل فإن مثل هذه العناصر قد أن يحلو منها أي بلد آخر ولكن كيف نحقق الأستاذ من هذه الأدلة وهو في رحلته المذكورة لم يتعد بلدة احداية الواقعة إلى الغرب من مدينة بنغازي عما يجعلنا نرجح استفاء آرائه هذه لا عن طريق المشاهدة بل عن طريق النقل من مصادر أخرى هي بعضها كانت تدعو إلى هذا الفصل وكان على الأستاذ أن يتحقق شخصياً من هذه الأدلة الجغرافية التي قال بها .

ونحن إذا نظرنا إلى خريطة لوبيا الطبيعية لا نجد من المظاهر الطبيعية كالبحر والآبار والحدود ما يصلح لأن يكون حداً طبيعياً بين هذه الأجزاء الثلاثة. هذا الاتصال الطبيعي هو الذي جعل بعض الجغرافيين والمؤرخين القدامى يختلفون في تحديد كل إقليم ويحفظون يمينه وبين الآخر. فهذا المؤرخ سالستوس (١) Sallustius عندما يؤرخ للنزاع الذي قام بين قورينا Cyrene وقرطاجنة Carthage يقول بوجود سهل رملي على الحدود بين الأقليمين ذي سطح متشابه خال من المعالم وليس به جبل أو نهر حتى يمكن بواسطته رسم حدود هاتين المملكتين (٢). وهذا ياقوت الحموي في معجم البلدان عندما يتكلم عن طرابلس يقول بأنها مدينة في آخر أرض برقة وأول أرض إفريقية وهكذا يجعل ياقوت برقة تمتد غرباً حتى مدينة طرابلس. وهذا ابن رسته في كتابه العلاقات العيسية عند كلامه عن سرت يعتبر تسويرنة حد برقة العربي (٣). وهذا أبو الفدا في كتابه تقويم البلدان يتخذ من قصر أحمد ميناء مسراته المعروف حداً غربياً لبرقة (٤) والمجلس القلقشندي (٥) في

(١) كابوس سالوستوس مؤرخ رومى ولد سنة ٨٦ ق. م ومات في سنة ٣٦ ق. م
و هو عضو مجلس شيوخ وكسب حجاجاً من لاسباريه وعاش شمساً معى في أرض مصر إلى
روما وولاه ولاية لوبيا وقد حكم فيها اسوأ حكم وقد من عليه نروءة منالة عذاب إلى روما.

F. W. Beechy & H. W. Beechy Proceedings of the expedition
to explore the Northern Coast of Africa from Tripoli Eastward,
P. P. 218, 219,

(٢) ابن رسته أبو علي أحمد بن محمد (١) في العلاقات العيسية طبعه لندن سنة ١٨٩١
ص ٣٤٤. «وأهل مدينة سرت». وآخر ما رسم على مرصتين من مدينة سرت موضع
يقال له ورعة وهو آخر حد برقة ثم يكرر هذا المص في ص ٣٤٦ عند كلامه عن قران فيقول
«ومن آخر من برقة من الموضع الذي يقال له ورعة إلى طرابلس - سرت مرحل»

(٣) أبو الفدا (أبو الفدا) ابن رسته (٢) صاحب كتابه (٣٧٢٢ هـ) : تقويم البلدان ،
طبعه خرتسنة ١٨٣٩ (ع ١) سعيد وصبر أحمد آخر حد لوبيا من جهة الشرق وأول
حد برقة .

(٤) القلقشندي (أبو الفدا أحمد) في معجم الأعنى في صناعة الإنشا طبعه دار الكتب
١٩١٥ م ص ١٠٥ «وسما قصر أحمد». قال ابن سعيد وهو حد إفريقية من
الشرق وحد برقة من الغرب .

موسوعته . وهذا ليون الافريقى يصف المنطقة الممتدة من بلدة مسراته الى مدينة الاسكندرية تحت عنوان برقة (١) ويصفها على أنها منطقة واحدة متشابهة فكأنه قد جعل من مسراته حداً غربياً لها وعلش الرحاة الانجيزى يتشى ورميله اللذان قما . حلة عليية جعراوية من مدينة طرابلس الى مدينة درنة (١٨٢١ — ١٨٢٢ م) ايام ولاية يوسف باشا نقره ما بلى ادائها يشارك ليون الافريقى في هذا التحديد .

اختلف هؤلاء المؤرخون والحالة في تعيين الحدود بين هذين الاقليمين لأن الطبيعة وحدثت بينهما وحملت من الصعب القول بما قل به الاستاذ فشر وغيره . ونحن إذا نظرنا الى خريطة الساحل اللوى لاحظنا خلود من الحاجبان الفرعية والتعريجات التى تصلح أن تكون اساباً لانحدارها نقطة للفصل بين ساحلى الاقليمين بل أن خليج سرت شكله المقوس المستقيم يرتبط بين مسراته وبنغازى نهايته .

ومن المسلم به بين علماء الاجناس أن الاساس الجسدى لكل من برقة وطرابلس يقوم على سلالة البحر الأصص المتوسط المعروفة بالنوسين قديماً والبربر عند العرب فيما بعد ولكن هؤلاء اللوبيين كانوا من الرحل الذين لا يستقرون في منطقة معينة بأمان وهذا سهل عليهم كثيراً الاندماج فيما بينهم وبمراجعة ما كتبه ديودور الصقلى عن بعض قبائلهم أنه يؤيد ما جاء بنحو وصفا في كتاب هيرودوت (٢) بل وكثيراً ما كانت تمتد اقلية الواحدة من

(١) ليون الافريقى هو عرس بن محمد الوران . وقد عرنا من اوسين افريقين مسلمين في أواخر القرن الخامس عشر للملادى . اعلى المسجدة بعد أن امره السعوى والمقوة ببلاد انايا في روما . له تأليف خامس يوسف شالى افريقية .
٢ هيرودوت : ٤٨١ — ٤٢٥ ق . م

المطقة التي قامت فيها مدينة قوربا إلى خليج سرت الكبير بل وأحياناً إلى خليج سرت الصغير وهو المعروف بخليج قبس حالياً ومن هذه القبائل الواسعة الانتشار في ذلك الوقت والتي امتدت بطول ساحل الملاذ قبيلة النارامونس Nasamones وقبيلة أوسكيسا Ausclisae وقبيلة المارماريداي Marmaridae وقبيلة المكاي Macae^(١). ودراسة الخريط التي نشرها الاستاذ Orie Bates^(٢) في كتابه مخصوص توزيع اللوبيين الشرقيين وهم أولئك الذين كانوا يشعرون ما يعرف الآن ببرقة وطرابلس، في مختلف العصور وحسب ما جاء ذكره في كتب الأقدمين يتبين لنا أنه كان هناك احتلاط كبير بينها نتج عن تغيير الكثير منها لأماكن الإقامة بمرور الزمن وتتابع الحوادث. وكان من المعتقد قديماً أن قبائل الحرمانت Garamant صاحبة الحضارة الراقية المعروفة في تدرج لوبيا قديماً والتي كانت تسكن في إقليم فران في العصور القديمة ترجع في أصولها إلى السلالة الاثيوبية بما يدعو إلى فصلها عن السكان الشماليين للسواحل من ناحية الجنس ولكن النتيجة الأخيرة التي وصلت إليها إحدى البعثات الابطالية لدراسة الناحية الجيولوجية والشرية لمطقة فران أثبتت عدم صحة هذا الرأي. مديرية وادي الـ Wadi al Agial وفران ولخص مقابره العديدة وأرجعت أصولها الحديثة إلى سلالة الحر الابيض مستدلة على ذلك بالحضارة الراقية التي كانت عليها القبائل الجرمنية والتي لا بد أنها قد وصلت مع أهلها من الشمال^(٣) وهكذا كانت وحدة الجنس في أساسها صالحة فيما بعد لأن تكون مدسجة أمام ما يجد من تطور في الجغرافية البشرية لهذه البلاد وعدم احتلال التوارن الجنسي بين سكان هذه الأقاليم الثلاثة لما جدد من

١ - David Randell-Maciver Libyan Notes, London 1901

٢ - O. Ric Bates: The Eastern Libyans, London, 1914

٣ - D. E. L. Haynes. A short Historical and Archaeological introduction to Ancient Tripolitania, P 16

فتوح وغزوات كان لها أثرها الطبيعي في تكوين الشعب اللوبي بصفة عامة فيما بعد .

• • •

• • •

• • •

أما اختلاف الوضع السياسي لبرقة وطرابلس في عهد الاغريق والفينيقيين فهذا صحيح إذا أخذنا به على علاقه دون بحث أو تحقيق ولكن إذا خطاه الأسباب التي دعت إلى هذا الفصل تبين لنا عدم صحة هذا الأساس الذي بني عليه هذا الرأي لقد اضطرو الفينيقيون إلى هجر الجزء الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط أمام نشاط الاغريق وتحفرهم وعدواهم البحري ولم يجد الفينيقيون طريقة للحفاظ على تجارتهم التي بها يعيشون والتي لا يمكن لها الازدهار أمام خطر التهديد الذي شهه عليهم الاغريق إلا باللجوء إلى الخوص العربي من البحر الأبيض المتوسط وكان حزمهم أن أتوا ساحل اقليم طرابلس وشددوا مدتهم الثلاث هناك . ولا شك أن الفينيقيين لا بد أنهم فسكروا في ساحل اقليم برقة قبل وصولهم إلى ساحل العربي بحكم قربهم إلى موطنهم الأصلي وبحكم الطريقة التي كانوا يتبعونها في اسفارهم البحرية وهي السير بمحاذاة السواحل وتجنب الایعال في الجهات البحرية الداخلية بحكم طبيعة البحر التي استعملوها في اسفارهم هذه وعدم استطاعتها مقاومة الأمواج وحتى لا يكونوا عرضة لاعتداء العير عليهم والالتجاء إلى الشاطئ أمام كل خطر يفاخهم ولكنهم رأوا في الروح إلى ساحل برقة ما يحرصهم لخطر الاغريق مباشرة بشكل أقطع نغراً لمواجهة برقة بلاد اليونان مباشرة وهم الذين تركوا لهم شرق البحر الأبيض حيث تطل فينيقيا الوطن الأصلي لهم حتى لا يواجههم مباشرة ولهذا اضطرو الفينيقيون إلى التحلي عن ساحل برقة ولجأوا إلى ساحل طرابلس واكتفوا به ما دام في ذلك ما يضمن لهم استمرار موردتهم التجاري دون خطر لأي اعتبار آخر ولو كان الفينيقيون من الشعوب التي

بنت أساسها الاستعماري على الإقامة والتوطن كما هي الحال عند الاغريق لاعادوا
الغز في كيفية اقامتهم في الشطر اشرقي بمحاولة صم برقة إليهم حتى يتم لهم
الامتلاء على السلا وتأمين حدودها . وهكذا لم يكن التحلي من الفينيقيين
معاه التسليم بالتقسيم ولكن الطر وف العير ملائمة لهم هي التي اجبرتهم على هذه
السياسة . ومع كل هذا فقد بدأ الفينيقيون وقد اشعرتهم الحاجة الملحة بذلك
إلى الرحف شرقاً بطول ساحل لوبيا وأحدوا يقربون شيئاً فشيئاً من اقليم برقة
وما اقامتهم لمحلة كاراكس Carax . المكان المعروف سلطان إلى الشرق من
بلدة سرت (١) ، مكر من المراكز التجارية على ساحل البحر الأبيض المتوسط
لإدليل على هذا الاتجاه منهم . على أنه إذا كان الأمر كذلك بالسمه للفينيقيين
فإن الاغريق بعد أن جاءوا إلى برقة مستوطنين قد حاولوا صم طرابلس إلى
برقة والتوحيد بينهما لأن سياسة الاغريق كانت سياسة استقرارية وسياسة
الاستقرار تدفع إلى مثل هذا التفكير لصمان عاصره . ولذلك فاستاريخ يحدثنا
بأن دور يوس Darius أمير مصر قد زل بفرق من انماعه عند مصب وادي
كعام إلى الغرب بقليل من ندة طليتي وهناك أسس مستعمرة اغريقية باسم
سيديس (٢) Cymys قدر لها أن تعيش فترة من الزمن كانت كافية لأن تكون
بواة فيما بعد لزحف الاغريق إلى طرابلس والتوحيد بينهما وبين برقة في السيادة
الاغريقية ولكن قرطاجة وهي التي دجر مؤسسوها شرق البحر الأبيض أمام
الخطر الاغريقي لم تقف ساكنة أمام هذا الخطر الراحف نحوها بل عملت على
طررد الإغريق من هذا الجزء والقضاء على مستعمرتهم الناشئة .

Haynes A Short Historical and Archaeological introduction - 1
to Ancient Tripolitania, P. 20

هذه ولا شك محاولة إيجابية قام بها الإغريق لتوحيد بين الإقليمين من ناحية التبعية السياسية وإن كان النجاح لم يكن حليفاً لها فعلى العموم تصالح أن تكون نواة لحركة أقوى وأكثر وضوحاً فيما بعد . يتبين لنا ذلك عندما يرى البطالسة ملوك مصر وقد استولوا سبائهم على برقة أخذوا يزحزحون حدودهم إلى الغرب حتى وصلوا بها إلى سرت ثم قام والى قوريسا من قبلهم وهو المسمى أفلاس Ophellias بحركة جريئة كان العرص منها ضم طرابلس إلى برقة عندما تعهد بمساعدة اجاثوكليس الاغريقى طاغية سيراكور بصقلية فى حربه مع قرطاجنة على أن تطلق يده فى لوبيا العربية فى حالة النجاح . وبدأ فعلا افلاس Ophellias فى تنفيذ خطته وسر بعثه عبر الساحل الطرابلسى إلى قرطاجنة وإن كانت هذه المحاولة الجريئة التى قام بها بإغريق برقة لضم طرابلس لم يقدر لها النجاح فى هذه المرة كذلك فإن هذا لا ينسب محاولة توحيد الإقليمين واحضاعهما لسلطة واحدة عليها إذ أن عدم التمسك بتحقيق شروط هذه الاتفاقية وروح الخيانة بين الحليفين هى التى وقفت دون تحقيقها .

ولما فشلت محاولات التوحيد التى قدم بها الاغريق واستقر كل فريق فى إقليمه رأينا المنازعات والمث كل بدأت تقوم بين الإقليمين وكان معظمها يدور على الحدود بينهما لعدم وضوحها ووجود ما يصلح أن يكون حداً فاصلاً بين الإقليمين . وسرعان ما اتحدت هذه المدرعات شكل الحروب المنظمة والتاريخ يحدثنا بأن الحرب قامت بين قورينا وقرطاجنة من أجل هذه الحدود عندما كانت قورينا تزعم المدعى الخمس Pentapolis بأفيم برقة وعندما كانت قرطاجنة تبسط سيادتها على أفيم طرابلس . وهكذا كان فى شطر هذه اللادى ذلك الوقت مدعاة للحرب والمنازعات وقد روى لنا التاريخ كيف انتهت تلك الحرب بين الطرفين بقصة التحكيم والتضحية الآخرين فلدنى Philean من أهالى قرطاجنة وإقامة مشهد تذكارى لها فى المكان المعروف الآن بالقوس . ولا شك أن

الرصاص بهذا الحد الصناعي وكيفية الوصول إليه لم يكن كذلك إلا خوفاً من تجدد الحرب بينهما وإفناء قوتها وتعرّضها لنساء أمام حصم جديد أخذ يظهر للوجود متمثلاً في روما وقوتها العظيمة وإلا ما كانت هذه الحدود الصناعية تصلح أن تكون حدوداً واقية باله من المدي أقيمت من أجله بل هي أقرب لأن تكون حدوداً إدارية كما هو متبع في سائر الممالك الأخرى مما صغرت مساحتها . وليس أدل على هذا القول من نشاط تجارة التهريب بين الأقليميين عندما فصلنا عن بعضهما بعد هذه الاتفاقية وبعد ظهور هذا الحد الصناعي وكيف لعب مركز دكارا كس Carax في ذلك الوقت والمعروف الآن بسلطانة دوراً هاماً في هذه التجارة وكيف نشطت حركة التهريب بين الأقليميين خصوصاً فيما يختص بتجارة سالت السليم (١) Sulphur الذي كان ينتج بوفرة وتصدره للخارج وعصير العنب الذي كانت تنتجه مدن طرابلس الساحلية بكثرة . ولا شك أنه في إقامة مثل هذه الحدود الصناعية إعادة لحركة التهريب على أشد ما يكون ودفع لاس على ارتكاب الجرائم باحترافهم لتقواين التي توصلت حماية مثل هذه الحدود الصناعية . وفي ذلك ما فيه من تدهور للقيم الأخلاقية وإتاحة الفرصة لخلق المشاكل في سبل إرضاء تطرّبات لا تقوم على أساس من الصحة ولما في الأعوام الأخيرة في عهد الإدارة لبريطانية وقبل إعلان استقلال البلاد ما بثت لنا هذه الحالة الخطيرة إذا قمنا بدراسة منظمة لما كانت عليه

١ - جاء محصورة في معجم ديكور محمد شرف (معجم المحامري عربي في الصومالية والطبعة) (أصبحت الأميرة سنة ١٩٢٨ مصادفة الثانية من ٨٢٦ - ٨٢٧ ميان : - Sulphur - انجيدان ، قنجدان ، عود الرقة ، محروث ، داب ، وثانبا ، والسلفيون من الفصيلة الحبيبة Thapsia Sulphur, Vivian) وسى كذلك Sulphur لاحتوائه على سائل راسخ اشتهر عتقاً لفساد بقمه لتيسر رضاً طبياً وظاهراً (Pliny) ورسم على قدومه cytene موسمه - وسماه لوثان Sulphur من Sulphur اسمه الأفرقي وسماه رومان Laserpitium

الحركة التجارية بين الاقليمين فكيف يكون الحال إذا أقيمت حدود معينة يصعب تخطيها إلا بإذن خاص يخضع لمختلف الظروف والأحوال . لا شك أن الحياة الاقتصادية لبلاد مستصا بشكل قوى يعوق تقدمها كما أعاقها بعض الشيء قديماً أيام أن كان الاغريق في برقة والقرطاجنيون في طرابلس وبعد أن أقاموا تلك الحدود الصناعية بينهما ولكن وجه الخطورة أشد في العصر الحديث لما جد من تطور كبير في وسائل الحياة المختلفة ومطالها .

ومالنا نذهب بعيداً فلترك العهد الاغريقي العبيد بقي جاساً ليرى الدلاذ وقد جاءها العرب فاتحين مشربين بالدين الاسلامي ٢٢ هـ جاءت الجيوش العربية ففتحت برقة وتقدمت منها إلى طرابلس فاستولت عليها وفي أثناء ذلك كان بعض الجند يتوغلون جنوباً إلى « روية » وهران ولم تذكر لنا المصادر التاريخية أن عمرو بن العاص قد استأذن الخليفة في فتح طرابلس وهران بعد استيلائه على برقة ولكنها تذكر لنا وتؤكد أن عمرو بن العاص أراد أن يتابع فتوحاته غرباً بعد طرابلس بالاستيلاء على إفريقية لولا معارضة الخليفة لذلك على أثر ما دار بينهما من « مكاتبة » في هذا الخصوص ومعنى هذا أن عمرو ابن العاص في فتحه لطرانس وهران بعد الاستيلاء على برقة لم يفعل أكثر من اتمام فتح هذه البلاد التي بدت له وحدتها منذ ذلك التاريخ حتى إذا ما أتم فتحها وأراد الانتقال إلى غيرها شعر بضرورة تخطي حدود لوبيا العربية وباتت ضرورة استئذان الخليفة في المدينة قبل الاقدام على هذا العمل . هكذا كان هذا التوحيد في الفتح العربي نتيجة طبيعية لوحدة البلاد التي أدركها انقضاء العربي منذ ذلك التاريخ ومقدمة لاحداث أخرى متتابعة ربطت بين الاقاليم الثلاثة وجعلتها أقرب مما تكون لبعضها من البلاد المجاورة لها .

على أن موجة الفتح العربي التي ربطت بين الاجزاء الثلاثة سرعان ما تلاها موجات أخرى عربية كان لها أثر كبير في تدعيم هذه الوحدة الجنسية ومع

ما لاقليم فران من موقع جاني بالعسبة لموجات القبائل العربية وهي في طريقها الى العرب إلا أن الملاحظ أن الدم العربي يسود القبائل الفرانية بل ويسود في كثير من واحشاتها النسب النوى الشريف ولاشك أن هذا الأثر لم يصل إلى مزان مباشرة إلا عن طريق برقة وطرابلس كبقية المؤثرات السابقة التي أتت من الشمال ومن أظهرها وصول المسيحية إلى فران في العهد الروماني .

وكان من أهم الموجات العربية التي أثرت في لوبيا هجرة بني هلال وبني سليم وقد أراد بعض الكتاب أن يتحدثوا من استيطان معظم قبائل بني سليم في برقة وعالية بني هلال في طرابلس وتونس (١) مدعاة لاثبات اختلاف التكوين القبلي لكل من الافليميين ولكن فاتهم أن هذه القبائل جميعها عربية وإن اختلفت في التسمية ولهذا يستمد اختلاف تأثيرها خصوصاً وأنها تتحد في الأصل انقبلي وطروف مجيئها إلى البلاد اذ المعروف أن بني سليم وبني هلال يتحدثون في الأصل بآشائهم إلى مصر من ناحية نجد ولو كان بنو سليم من عرب شمالى الجزيرة وبنو هلال من عرب الجنوب لكان من المعكس التماس الاصناف لهذا الزعم ولكنهم جميعاً من أصل واحد وموطن واحد . وطبعى جداً أن يكون في برقة شيء من الوضوح في الدم العربي بحكم موقعها بالنسبة للجيشوش العارية والقبائل الواحدة ولكن ليس معنى هذا أن نهول في هذا الأثر حتى تكون هناك فجوة بين سكان البلاد اذ أن هذه الجيشوش العارية والقبائل الواحدة قد وجدت أمامها في برقة سكاناً أصليين والتاريخ لم يذكر لنا انقراضهم إلا اذا كان من طبيعة العرب الفاتحين المبشرين بالدين الاسلامى هو القصاء على ما يصادفهم من شعوب وهذا ما لم يحدث وما يدانق ومهمة التشير بالدين الاسلامى الجديد .

وعلى العموم اذا كان هناك ما جعل طرابلس تحتفظ ببقية من العنصر
البربرى بين سكانها حتى يومنا هذا فليس معنى ذلك استعلال قيام هذه لبقية
لايقاع العرقه بين اقاليم البلاد وأطهار الوحدة بينها على أنها شيء محال اذ قد
أن يخلو أى قطر فى العالم من مثل هذه الحالة وغيرها ولما فى مصر أسوة حسنة
اذا درسنا حركاتها الحسية فديرية الشرقه وبها تمثل الباب الشرقى لها كما تقوم
هذه المهمة متطرفة برقة لبقية اجزاء البلاد وعن طريق هذا الباب الشرقى
دخلت الجيوش مصر ونحة عارية مرة بعد أخرى من أمام الهكوس حتى الفتح
المعتمى على يد السلطان سليم الأول ومن هذا الباب أيضا دخل عمرو بن العاص
بجيشه كما شامت من بعده الجيوش العربية والقبائل العربية الزاحمة فى طريقها
إلى الشمال الاقريقى ولهذا كان من نصيبى أن يجد الدم العربى هناك أكثر
بكثير من بقية الاحراء المصرية الأخرى ولكن مع هذا لم يتل أحد بالخاق
شبه جزيرة سيده مثلا أو مديريه اشرقيه شبه جزيرة بلاد العرب بسا على
ما بينهما من تقارب فى التكوين الجسمى .

على أن هذه الموحات العربيه التى أنت من الشرق ورطت بين اجراء
البلاد سرعان ما تمتعتها موحات أخرى وفدت من الاتجاه العربى وكانت فى
اتجاهها هذا بمثابة رد فعل للتوسع العربى وانتشار عصره فى الشمال الاقريقى
ومنه إلى الاندلس وكانت هذه الموحات الواعده من العرب أكبر عامل فى
زيادة هذه الرابطة الدمويه وليس أدل على هذا من ظهور مدينة نهمازى
للوجود مرة أخرى بعد أن اختفت كدبيه قائمه بذاتها على أثر الفتح العربى
واحتفاء المجتمع الاقريقى الرومانى أمام العرب الراحقين وطلت كذلك
مهجورة حتى اقرن الحاس عشر الميلادى عندما عادت إليها الحياه من جديد
بوفود جماعات إليها من مهاجرى وتجار مدن الساحل الطرابلسى وكان من
بينهم اولئك اسبين اتوا من مدينة مسراته وقد تزايد عددهم على مر الأيام

حتى أصبحنا في يومنا هذا نرى فيها أحياء مأهولة بمثلة للقرى الممراتية في موطئها الأصلي الذي برحت منه وأصبح في مدينة نهارى شوارع تحمل أسماء قرى معروفه في مدينة مسراته فهذا شارع ، قرير ، وذلك شارع قصر أحمد وهكذا . وكلها أسماء لقرى مارالت قائمة عامرة بأهلها في مسراته قد نرح بعض أفرادها إلى نهارى حاملين معهم طابعهم الخاص فأحيوا مدينة بريق من جديد تحت اسم نهارى حتى أصبح من المعروف بين سكان البادية أن كلمة «مسراتى» معناها ذلك الذى يسكن مدينة نهارى .

وهذه مدينة درنة ثابته مدن برقة أهمية وقد كن حطها أحسن حالا من شقيقتها نهارى بعد محي العرب إذ أنها لم تتدنركا حدث لنهارى بل طلت بحفظة الحياة وب طيلة لفترة لعربية ولكن حياتها جددت كحدث على أثر هجرة الكثير إليها من نحر ومستوطنى مسراته وغيرها كما حدث تماماً لنهارى في لقرن الخامس عشر الميلادى . وإذا عرفنا أن أهلها الحاليين ينقسمون إلى «أواجير» نسبة إلى بلدة ناجوراء الواقعة إلى الشرق من مدينة طرابلس وإلى مسراته نسبة إلى مسراته وإلى طلينية نسبة إلى بلدة طليت وإلى قول أوعلية نسبة إلى أبناء الفرق الانكشارية أدرك النسبة البدلية التي ساهمت بها بعض مدن الساحل الطرابلسى في تكريس سكان مدينة درنة واردة حياثها الاجتماعية . وبهذا الشكل فيما يختص ببقية مدن برقة كتوكرة والمرح وطبرق وغيرها ومآزال هؤلاء النازحون على اتصال وثيق بأهلهم ودوهم في المدن الطرابلسية والعكس بالعكس .

ولم يقتصر هذا التبادل على سكان المدن وحده بل تعدى ذلك إلى سكان البادية والقبائل المنتشرة وفي وجود قبيلة اولاد الشيخ في برقة وانتشار أفرادها في طول البلاد وعرضها مطهر آخر لهذا التبادل بين الشطرين .

هذه محاولة تاريخية خاطفة ترينا مدى ما كان من ارتباط تاريخي بين برقة وطرابلس وتصد رعم لتدريس الفصل بينهما على أساس تاريخي غير صحيح أما فيما يتعلق بتلك العلاقات التاريخية بين طرابلس وهران فيمكن أن يعرف أن الصينقيين قد أوال إلى ساحل طرابلس وأقاموا المدن الثلاث به . ولم يكن قديم هذه المدن واستمرارها قد أتى عفواً من إن العوامل الجغرافية قد لعبت دوراً هاماً في المساعدة على قيامها لدرجة تجعلنا نعتقد أن قيام هذه المدن كان لابد أن يحدث سواء أتى الصينقيون إلى طرابلس أم لم يأتوا لأن عوامل نشأتها متوفرة بل هي كانت موجودة بالفعل كنواة مهيأة للتطور قبل مجيء الفينيقيين وإن شئت الظروف أن شهر للوجود كمدن قائمة معروفة على أيديهم . هذه العوامل الجغرافية قد ساعدت على قيام هذه المدن كان أهمها الطرق التجارية التي ربطت هذه الأماكن الساحلية بقلع وهران ومنه إلى إقليم السودان جنوباً ، مصراته مثلاً تقوم في نهاية طريق تجاري إلى الجنوب يمر بواحة دغدامس ، ومدينة أوياء التي حلت محلها الآن مدينة طرابلس تقوم عند نهاية طريق تجاري قديم إلى الجنوب يمر إما بطريق ترهونة وإما بطريق غريان . وكذلك مثل مدينة ولددة . وقد كانت هذه الطرق التجارية خير رابط بين وهران وطرابلس وموحد بين هذين الاقليمين منذ المصور القديمة وإذا كانت تجارة القوافل قد قلت أهميتها في الأعوام الأخيرة فذلك إلا لتعمل الاستعمار الأوربي وفصله بين وهران والسودان وفي فصل وهران عن طرابلس القضاء النهائي على بقايا هذه التجارة وهدم ركن هام في حياة البلاد الاقتصادية وإن كانت قيمته الاقتصادية قد تدهورت في الأجيال الأخيرة .

أما محاولة الفرنسيين لسنده من لوبيا والحقاقه ببقية مستعمراتهم الأفريقية فإنها محاولة لا تستند إلى أساس صحيح إذ أن الجيوش الفرنسية بقيادة الجنرال « لوكامير » قد دخلت وهران للتحرير كما دخلت جنود الحلفاء فرنسا نفسها بعد

إسبارها أمام العرو الاجنبي ولاشك أن الجنود الفرنسية في تقدمها من تشاد نحو
فزان قد استفادت الكثير من المساعدات القيمة التي قدمها لها في ذلك الوقت
المجاهد الوطني أحمد بك صغير النصر .

على أن هذه الصلة المتينة التي ربطت بين اقليمى طرابلس وهران وإن
كان الفينيقيون قد أدركوها منذ القديم إلا أنهم لم سرکہها وحدهم أو بمعنى
أصح إذا كان الفينيقيون هم أول من أظهرها بشكل واضح فإن الروم
كذلك قد ساروا على منوالهم في هذه اللاحية فبعد أن سطروا سيادتهم على
طرابلس اقتنعوا بصحة بقائهم في هذا الاقليم ما لم يتم استيلاؤهم على فزان
ولذلك رآب القائد كورنيليوس بالوس Cornelius Balbus في بداية عهد حكم
اغسطس A. gustus يتولى مهمة القيام بقيادة حملة هامة لاختصاص فزان في
سنة ٢٠ ق . م . وكما كانت مرحلة أهلى روما عظيمة عندما عاد اليهم بالوس Balbus
منتصراً بعد أن وصل الى مدينة حرمة Gertun عاصمة فزان ليضموها بقاهم
في طرابلس كما حدث في عهد الامبراطور تيربوس Tiberius عندما ذهب
القائد فاليريوس فسئس Valer us Fesus على رأس حملة حربية بدأت مسيرها
من مدينة لبيدة إلى « بونحم » فواحدة هون ففزان ولم يتوان الرومان عن
ارسال الحملات الى فزان حتى صمموا حصونه ولم يهملوا على بقائهم في طرابلس
من الخطر الجوي كما أخذوا منه قاعدة للوصول الى أواسط افريقية

.....

وإذا استعرضنا حالة ليبيا من الوجهة الاقتصادية نجد لبلاد كثيراً ما نصيب
بأعوام الجفاف من سنة لأخرى فتعرض الحياة فيها للجحاعة كما تتعرض ثروتها
الحيوانية للهلاك ولكن الملاحظ أيضاً أن سنوات الجفاف إذا حلت فهي
في العالب لا تشمل كل البلاد شقيها الشرقي والعرقي . فمثلاً إذا قلت الأمطار
في طرابلس كان مستواها فوق المتوسط أو متوسطاً في برقة والعكس بالعكس
وبمراجعة المجمعات التاريخية التي أصيبت بها البلاد نجد أنها قلما كانت تعم البلاد

بأجمعها وهذا ما يخفف من حدة الآرمة التي تشأ عن قيام أى جماعة ويحمل البلاد ثمرها سلام إلى حد كبير كما حدث ذلك فى سنة ١٩٢٦ م المعروفة بعام شعارى ، عند أهالى إقليم طرابلس لاعتددهم الكبير على مراعى برقة فى إنقاذ حيواناتهم من الهلاك بعد أن أصبت البلاد بخفاف قل على أثره العشب اللارم للرعى . وإذا كان فى استطاعة رجال الحكومة فى ذلك الوقت التعلب على ما أصيبت به البلاد من محبته لانهدام المحصول الزراعى باستيراد الكثير من الدقيق والمواد المعدنية من الخارج لترويد الشعب بالقوت الضرورى فإنه كان من الصعب عليه القيام بمثل هذا العمل بحو ثروتهم الحيوانية ولم يكن أمامهم إلا ترحيل هذه الحيوانات على دفعات إلى برقة حيث كان العشب كافياً لانقاذ ثروة البلاد الحيوانية وتعويض أهل طرابلس بعض الخسارة التي نزلت بهم . وهذا ما حدث كذلك فى عام ١٩٤٦ م عندما اعتمد أهالى إقليم طرابلس إلى حد كبير على شعير برقة وهذا أيضاً ما حدث لبرقة فى سنة ١٩٥٠ بصورة مصغرة على أثر سوء موسم الأمطار فى ذلك العام حيث نشرت جريدة السندى حتى (١) الصادرة بطرابلس العرب أن قبائل برقة التي على حدودها الغربية قد أحضرت تنقل بحيواناتها إلى إقليم طرابلس لسوء موسم الأمطار فى برقة وكما حدث كذلك فى عام ١٩٥٢ من قلة فى محصول الشعير على أثر تأخر فصل سقوط الأمطار وصباغ العرصة على الأهالى فى برقة وبعد هذا كله بأتى إليها الاستاذ كندى شو Kennedy Shaw فى مدينته لمدالة الحدود بين برقة وطرابلس مع الاستاذ ايمى ريتشرد وقد شعر بأهمية هذا الاتصال حفاً للثروة الحيوانية للقديمين فيقول : إذا تم فصل طرابلس عن برقة بقرار من منظمة الأمم المتحدة وبه ليس من الصعب عمل الامتصاصات اللازمة لمخصوص

مناطق الرعي للفرائد السنوسية في منطقة سرت (١) وما أغنى البلاد عن مثل هذه الاتفاقيات والوسائل لصنعه المقيدة وترك الأمور تجري بطبيعتها كما هي دون أى تدخل يعمر على تعقيدها وحلق المشاكل السكار تلك السواحى وبدراسة الجغرافية الاقتصادية أيضاً للأقاليم الثلاثة يجد تكاملاً عجباً وهذا إقليم وهران يعتمد إلى حد كبير على شعير إقليم طرابلس كما أن موانئ طرابلس هي المرفأ الطبيعي لامتداد أدلى وزان بما يحتاجون إليه وتصدير ما تنتجه بلادهم أو يملكونه من السودان يعكس مالمو اتجه أهلى وهران تتجسرتهم إلى موانئ تونس أو الجزائر كما حدث بعد طرد الإيطاليين من لوسا وخصوص وهران للادارة الفرنسية . وهذا الانتاج المحلي لكل من طرابلس وورقة يمد له سوقاً متبادلة تحمى من ارتفاع أسعار الحركة التجارية وارهق السكان إذا ما استوردوا هذه الأشياء من الخارج . والبلاد في عجم عبا كوحدة اقتصادية يمكنها أن تكفى نفسها إلى حد كبير مع الاستعانة عن كثير من الأشياء من الخارج يمكن أن تتبادلت فيما بينها ، ولا عورة بما كانت تقبله البلاد من مودة خارجية في العهد الإيطالى إذ أن معظم فند صرف في تحقيق ومساند المحمود الحرفى الذى كرس له لإطعام حياتها في البلاد راعتها قاعده تهديد غير ها ثم أن تلك المودة الخارجية كان لابد منها حتى تستطيع البلاد الوقوف من جديد بعد ما حل بها من إتهاك عام بسبب الحروب والحاجة الخارجية وساء في هذه الاحصائية البسيطة ما يرشأ مدى ما انتاب البلاد من نقص في ثروتهما الحيوانية وما حل بها من خسارة بدل أن تحظر خطوات موفقة إلى الأمام بترديد عدد حيواناتها فيكون ذلك خير سند لمدينة البلاد كما أن الاحصائية تريبا الملى الذى يمكن أن تصل إليه ثروة لوبيا مع شيء من الماية والمحمود الصحيح المظم حتى تفوق ما كانت عليه الحال في العهد العثمانى المعروف بإهماله وقلة عنايته .

الإقليم	السنة	غنم وماعز	ماشية	جمل	حصان
(١) برقة	١٩١٠	١٠٢٥٩٣٠٠	٢٣٣٦٠٠	٨٢٣٠٠٠	٢٧٣٠٠٠
	١٩٢٣	١٢٢٣٠٠٠	٨٢٧٠٠	٨٣٦٠٠	١٣٠٠٠
(٢) طرابلس	١٩٠٢	١٠١٠٧٣٠٠٠	١٩٨٣٠٠٠	٣٠٠٠٠	٥٣٠٠٠
	١٩٣٠	٩٤٥٥٠٠٠	٤٩٣٠٠٠	٤٨٣٠٠٠	٨٣٠٠٠

لا شك أن هذه العوامل الجغرافية قد يبت لنا مدى ضرورة هذه الوحدة كما إن إذا رجعنا إلى التاريخ وجدنا العصور الذهبية لتاريخ البلاد قد تمثلت لنا عندما كانت موحدة أو أقرب إلى الوحدة ورى ذلك ضرورة واضحة في العهد القره مانى ولولا وحدة البلاد واستقلال مرافقها بمجموعة ما استطاع أحمد باشا القره مانى أن يؤسس دولة كان لها من القوة ما أزعج الدول في حوض البحر الأبيض المتوسط وما استطاع أسوة من بعده أن يسيروا على هذه السياسة ويرفعوا شأن ليبيا .

.....

ولا شك أن البلاد باحرائها ثلاثة تعاقب أزمة خطيرة بسبب قلة السكان وهذه القلة لا تسمح بهذا التقسيم بل تبادى ضرورة التكتل والجمع بين هذه القلة المشطورة وبحسب معروف من أسط دروس التربية الوطنية التى تعلماها في المدارس أن من شروط قيام أى دولة وفرة السكان بشكل كاف حتى يمكن

F. E. Evans-Prochard - The Settlement of Cyrenaica. P. 17 (١)

Department of Agriculture, Survey of land Resources in (٢)

Tripolitania P. 26-27

الحصول منهم على الدخل الذى يكفيها ويمكنها من إدارة شئون الاهالى وحتى يمكن اختيار من يصلح لإدارة شئونها إذ كلما كثر العدد رادت صلاحية الاختيار وقلت مصاريف إدارة هذه الدولة والمكس بالمكس .

وإذا كانت هناك بعض الفروق الجغرافية البسيطة بين أجزاء البلاد الثلاثة أو موقف قصير في الحوادث التاريخية الشاملة لهذه الأقاليم الثلاثة فهذا شيء لا بد منه ولا يجوز منه أى بلد آخر بل إن هذا الاختلاف البسيط ضرورى لحيوية البلاد وإن لم يوجد لامل الاهالى على إيجاده لكي يصنعوا مقام بلادهم وحيويتها . على أن هذه الفروق الجغرافية البسيطة يجب معها عظمت فلت تلعب ما راء من فروق جغرافية واضحة بين شمال إيطاليا وجنوبها من حيث الأساس الجئسى وظروف الحياة واعادات وأنواع الحرف والمناخ وطبيعة التربة إلى آخره . ويكفى أن نعرف أن الإيطاليين أنفسهم يشعرون بذلك ويتحدثون به فيما بينهم بل ويتحدثون به غيرهم من الشعوب . وكذلك الحال إذا درسنا الجغرافية العامة لفرنسا فهي في جنوبها تختلف عن شمالها العربى وتختلف عن شرقها من حيث الأساس الجئسى للسكان وميراثهم ومن حيث الأقاليم المناخية والسانية وعمل السكان هناك . فبينما نجد الجزء الجنوبى من فرنسا يلتصق سكانه إلى جس البحر الأبيض ويتمتع أصلاً بمناخ إقليم البحر الأبيض وبناته نجد سكان الجزء الشمالى العربى ينتمون إلى الجنس الشمالى ذى القامة الطويلة ويتمتعون بمناخ إقليم شمال غربى أوروبا وبناته . وكذلك نجد السكان في الجزء الشرقى ينتمون إلى الجنس الألبى ويتمتعون بمناخ ونسب إقليم وسط أوروبا . أما بريطانيا فيكفى أن نعرف أنها تضم إنجلترا واسكتلندا وويلز وهى وحدات قائمة بذاتها له شخصيتها الخاصة بها ومع كل هذا لم يكر أحد وحدة هذه البلاد مع أن الفروق الجغرافية التى تسودها كعملة يتمزيقها والتفتت على وحدتها . فهذه ويلز بموقعها الجغرافى المعزل وطبيعة سطحها الجبى وسكانها الذين يمثلون

أقدم الأجناس التي نزلت إلى الجزر البريطانية في السابق وعقدتهم الديلية وشهرتهم بالمحافظة عليها ولعلمهم الخاصة بهم إلى دعوت الحكومة البريطانية إلى تدريسها في مدارس ويلز وتخصيص برامجه خاص للإداعة بها وهذه اسكتلندا بموقعها الشبهائي وبميراتها الجغرافية الخاصة وتأريخها القومي الذي يشعر به كل فرد من أبنائها رغم اندماجها في التاج البريطاني وما حادث سرقة كتيبة وصتمستر الذي قام به بعض الشباب الجامعي من اسكتلندا إلا مظهر حي لبقاء القومية الاسكتلندية في نفوس الشعب إلى يومنا هذا.

أين كل هذا عما نراه من وحدة المجلس والنسب واللغة والدين والعداات والتقاليد والآمال التي ربطت لوليا بأجزائها الثلاثة . لا شك أن كل هذه العوامل الجغرافية والتاريخية ستعمل على وحدة البلاد وتدعيمها وإذا كان المستر أدريان بيلت مندوب الأمم المتحدة في لوليا قد أدرك ضرورة هذه الوحدة للبلاد عندما قال : « إن على ألبانيا إذا أرادت أن تمش كدولة مستقلة حل مشكلتين أساسيتين : الأولى سياسية والثانية اقتصادية ، أما الأولى فتتلخص في وجوب تعزيز الوحدة السببية لأن الرغبة في تحقيق هذه الوحدة ليست أمراً كافياً في حد ذاته ، بل لابد من تصاهر جميع الجهود لعملها حقيقة سياسية صحيحة ، فقد تؤدي لرعات الشخصية في الولايات الثلاث إلى إحداث احتلاب في الرأي يضع الوحدة اللبنة أمام تجربة قاسية » (١) فللسياسة أن تقسم البلاد كما تشاء إلا أن مثل هذا التقسيم لن يحو الروابط بين أجزاء البلاد وكما أن تقسيم بولندا أكثر من مرة لم ينجح إلى الآن فكذلك لن ينجح تقسيم لوليا .

١ - من منشورات المكتب العربي ، إدارة الألبان والفرع الأمم

متحدة ، سويسرا ١٩٥٢ ، ص ١٢ .

المصادر

- 1 - E. E. Evans-Pritchard . The Sanusi of Cyrenaica, "London 1949".
- 2 - W. B. Fisher . The Middle East, "London 1950".
- 3 - Handbook on Cyrenaica "by several authors, Cairo 1944-1947".
- 4 - D. E. L. Haynes . A short Historical and Archaeological Introduction to Ancient Tripolitania, Tripoli 1947.
- 5 - The Royal Geographical Society . The Geographical Journal, "Sept., Oct., 1945, May-June 1946".

هذا الى جانب بعض المصادر الأخرى التي ورد ذكرها في هامش الكتاب .

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره

وليتبينوا من فضله ولعلكم تشكرون »

« قرآن كريم »

لوبياء والسيادة البحرية

أهمية حوض البحر الأبيض المتوسط مكانة لوبياء فيه . صحراء لوبياء تمثل نوعاً من حصاراته المتعددة . موسى لوبياء أقرب الحدود الحاصلات وسعد أفريقيا - استقلال الفينيقيين لموسى لوبياء لمره واستعادة الأولى من مهم البحرى - هناك لوبياء بالاعتريق واستدل الفرصة بينها - النشاط البحرى لموسى لوبياء فى عهد الرومان - ظهور تريت وسوربه احتياطهم على الشمال لأمريعى . فوق البحرى للعرب مدائن - مساهمة لموسى لوبياء فى النشاط البحرى للعرب - اعتبار القبال لأمريعى من فرصة - أهمى شمال أمريقى سمعون فى حروب القرصنة للدهج عن أسواقهم . هناك ونحوه لموسى لوبياء من أساطير - بحرى - شمال لأمريعى - مساهمة لموسى لوبياء فى نشاط البحرى للامريعى - هناك لوبياء فى العهد القرصنة لاسطدام الحرية القوية بحرية الولايات المتحدة لأمريكة فى عهد بوسيد ناشا - حدث - عبية فيلادلفيا - الحرب بين لوبياء والولايات المتحدة الأمريكية - موقف ربحيا من بحرية القوية بعد لاتصاف الأمريكى - الدولة الأمريكية تنقذ فى مؤتمر الحصن لاشمال لأمريكى لوبياء - عوده انشائها لى لوبياء وروال استقلاله ، وظهور البحرى - شلال دوبا على استقلال موقع لوبياء البحرى فى عصر اغاصير

إذا أمعنا النظر فى مصور جغرافى لحوض البحر الأبيض المتوسط وجدنا من الممكن تقسيمه إلى عدة أحواض تتفاوت فى الاتساع باختلاف تباعد الحدود التى تحدد كل حوض منها أو تقاربها من بعضها . على أن أظهر هذه الأحواض الفرعية أو أهمها بالنسبة لموقعه من حوض البحر الأبيض المتوسط عامة هو ذلك الحوض الذى يمكن تحديده شرقاً بشبه جزيرة المورة من بلاد اليونان وجزيرة كريت والرأس البارز من شبه جزيرة برقة والذى يقع فى

طرفه الشرق ميناء طبرق الحصين أمام جهة الغرب فيمكن كذلك تحديده بالطرف الجنوبي الغربي لشبه جزيرة إيطاليا وجزيرة صقلية التي تكون مصيقاً يتحكم في مدخله العربي بالاشتراك مع رأس بون في تونس . هذا الحوض الفرعي الأوسط بموقعه الجغرافي يتحكم في طرق المواصلات البحرية بين نهائى البحر الأبيض المتوسط حيث مضيق جبل طارق في الغرب وحيث نجد في الشرق مضيق الدردنيل ومضيق السفور وبرزخ السويس فيما سبق وقد حلت محل الأخير الآن قناة السويس . وقد لعب حوض البحر الأبيض المتوسط ومارال يلعب دوراً هاماً في العلاقات العالمية بحكم موقعه بين ثلاث قارات كبرى هامة ويتحكم كثرة موانيه الصالحة للملاحة وهدوء مياهه بالنسبة لسفاح الأخرى ولأهمية الشعوب الواقعة على سواحله فهو موطن لأهم الحضارات القديمة ومنه خرجت إلى العالم الجديد وعلى صفحات مياهه تصارعت القوى بغية العلبة والانتصار وما من أمة نهضت أو كان لها نال إلا وصالته فيه وجالت أو كانت عن الأقل على اتصال به من بعيد أو قريب وما من أمة بعيدة عنه إلا حاولت الوصول إلى شواطئه مثل إيران قديماً وروسيا حديثاً .

وإذا كانت هذه النظرة العامة قد امانت لنا أهمية حوض البحر الأبيض المتوسط ومركزه الممتاز في العالم الدولي فلا شك أن هذه الأهمية وهذا الامتياز يكون أكثر ما يكون بالنسبة لأجزائه الوسطى أو ما يمكن أن نسميه بالحوض الأوسط فهو أشبه بالجدع في جسم الإنسان يربط بين طرفيه . ولوليا بموقعها الجغرافي وبساحلها البحري الذي يمتد مسافة ١٩٠٠ كيلو متراً تقريباً قد تحكمت في جزع حوض البحر الأبيض المتوسط من الجنوب الأمر الذي أتاح لها أن تلعب دوراً هاماً في تاريخه في مختلف العصور . فهي بلا شك قد كانت على اتصال بالحضارات القديمة التي نشأت على سواحله وهي أيضاً قد ساهمت في الكثير من النشاط الذي ساهه سواء أرايت أم لم ترد لأن موقعها الجغرافي وساحلها

البحرى الطويل قد حتم عليها القيام بهذا الدور .

أما لماذا لم يظهر لنا كل هذا بوضوح فى العصر الحاضر كما ظهر لنا باليسبة
لحقبة السلالات الأخرى المطبقة عليه فإن ذلك يرجع فى الغالب إلى الظروف
السياسية التى احاطت بالبلاد فى العهد الأخير واعزائها عن ميدان النشاط
العلى ولاصراف السحات والعلماء إلى ميادين أخرى فى البلاد انما لم ينتهوا
منها بعد ولا بد من بعض الوقت حتى ينهبا للبلاد من بعض انائها والمولعين
بالحضارة من يتفرغ للقيام بهذه المهمة فى هذا الميدان لسكر .

قد يقال أن طبيعة البلاد الصحراوية المعالية عليها قد قللت من قيمة البلاد
وأهمية الدور الذى قامت به فى حصار البحر الأبيض المتوسط ولكن كثيراً
من هذا القول مداع فيه وإن ظهر لأول وهلة لندحت المدقق أنه على حاش
كثير من الصحة . وإذا كان من المسلم به أن للعوامل الجغرافية أثراً كبيراً فى
نشأة الحصارات وتكيفها بطابع حاصر كما هى الحال فى مصر حيث نجد نهر
النيل بمياهه المتدفقة الدائمة الأولى لنشأة الحصار المصرية وتطورها وكما هى
الحال فى بلاد اليونان حيث الحر والبحار الداحية الهائلة قد كان لها الفضل
الأكبر فى نشأة الحصار الاغريقية وعصرها بالطابع البحرى الخاص وكما هى
الحال فى إيطاليا حيث امتداد الجبل والسهول بشكل معين قد كان له الفضل
الأكبر فى قيام الحصار الرومانية واقترانها بمد الطرق تنوع معروف وبمثلث
فى بقية البلاد الأخرى التى قدر لها أن تكون موطناً لحصار راهرة فإن لوبيا
كذلك صحرائها قد افردت دون غيرها فى حوص البحر الأبيض المتوسط
بهذا العامل الجغرافى مما جعلها صاحبة حياة من نوع خاص لا تنشأ إلا فى
الصحارى سرعان ما تتخذ لها طابعاً معيناً وتوضع لها الاسس والقواعد المرمية
حتى تأخذ فى التطور حسب الظروف والأحوال ويساعدها على هذا التطور
ما اتصفت به حياة الصحراء من بساطة وقلة تعقيد . والزائر للصحارى حيث

مضارب البدو يجد نوعاً من المعيشة قد يعجب لها كل العجب ويجد حياة منظمة لها أسس ومقاييس كانت الصحراء هي العامل الأكبر في تحديد معالمها ورسم خططها ويصعب على الرائي جداً أن يحق لنفسه حياة تختلف عن هذه الحياة التي يشاهدها وإن استعان على ذلك بجهوده الخاصة ولكن عليه في نهاية الأمر أن يسير مع خطوطها العامة .

إذا فالصحراء حياة لها مظاهرها العامة ولها أسسها الخاصة التي تفرد بها وتقوم عليها مما يحتم عليها اعتسارها مظهراً آخر للحضارة التي تخيلنا معناها في ادمنتنا وقصرناها على بعض الملاد دون غيرها أو تعبير أدق على التصاع الذي تحدته العوامل الجغرافية الأخرى كالإسار والحد والجل التي لعت دوراً كبيراً في نشأة الحضارة الإنسانية وتطورها في بعض الملاد الأخرى والصحراء كما نعلم عامل جغرافي آخر لا يقل أهمية عن هذه العوامل السابقة الذكر في تشكيل الحياة وطبعها بطابع خاص ولهذا لا بد من اعتسارها كذلك والاعتراف بتأثيرها في الحياة وما يترتب على هذا التأثير من نتائج خاصة على أنواع من الحضارة كبقية العوامل الجغرافية الأخرى وتأثيراتها .

هذا إذا سلمنا نالطاع الصحراوي العام الذي يسده يحاول الكثير من البعثات اغفل الدور الذي لعبته لوبيا في حياة البحر الأبيض المتوسط أو التقليل من قيمته والمرور عليه من الكرام إذا اقتضت الحال . ولكن الواقع أن الملاد ليست كلها صحراء بل فيها من الأماكن والمساحات ما يساعد على قيام حياة مدعمة لها أسسها وأهدافها الخاصة التي لا تقل عن مثيلاتها في بعض الملاد الأخرى ومن حسن حظ الملاد ولكن يساهم أهلها بدور فعال في حياة البحر الأبيض المتوسط بمجد معظم هذه الأماكن السابقة الذكر قريبة من الساحل الأخرى وبعضها ملاصق له مشرف عليه . ودراسة شبه جزيرة بركة والشريط الساحلي لطرابلس ووحدات الجنوب يتأكد لنا هذا القول ويرداد

يقينا إذا علمنا أنها تشغل مساحات واسعة لا بأس بها وإن كانت قليلة بالنسبة لمساحة البلاد بأجمعها

وهكذا قدر لحوض البحر الأبيض المتوسط أن تتكاتف كل عوامل الجغرافية من أنهار ووديان وسهول وحدال وحزر وبحر وصحار في نشأة حصاراته وتنوعها وتنوعها تنوع هذه العوامل الجغرافية الفعلة .

...

...

...

ولا شك أن أهم عامل في هذه العلة الصحراوية التي يسببها أهم أبعاد أمر الاهتمام بدور لوبياء في حوض البحر قد نشأ من هذه العجوة البحرية الكبيرة في ساحلها والتي تعرف باسم خليج سرت، والتي جعلت من لوبياء تمخذ موقعا جنوبيا بالنسبة لبقية بلاد الشمال الأفريقي إذ قدمت من المساحة التي تتعرض لأعاصير الرياح العسكرة الجسوسة العرسية الممطرة مع قصير فصل أمطارها في الوقت الذي طأت فيه مساحات واسعة عرصه للرياح التجارية الشمالية الشرقية الحقة معظم شهور السنة بعضها وهي الجهات الغربية من الساحل المطل على حوض البحر الأبيض المتوسط في حين بقيت الأجزاء الداخلية مساحتها الواسعة عرصه لهذه الرياح الحقة طيلة شهور السنة .

حقيقة أن هذه العجوة الكبيرة في ساحلها الشمال قد جذت على البلاد من هذه الساحة المماخية ولكنها في نفس الوقت عوصتها من ناحية أخرى إذ جعلتها أكثر انصلا بحوض البحر الأبيض المتوسط في ميدان حاص سادت فيه لوبياء غيرها من ابلاد المحودة التي يمكنها أن تزاوجها فهي بهذا التجويف البحري قد أصبحت مواها أقرب المسعد لحاصلات أواسط أفريقية دون بقية الموانئ الأخرى الواقعة على الساحل الأفريقي الشمال وذلك قصرت طرق الوصول إلى تجارة أواسط أفريقية في مواطها الأصلية فتم الاقتصاد في الزمن وهو عامل هام بالنسبة لقيام التجارة ورواح أسواقها .

وقد تدب المصنفون في العصور القديمة لهذه الميزة ففكروا في استعمالها وقد أحسنوا ذلك بتأسيس المحطات التجارية على الساحل اللوى وسرعان ما نمت هذه المحطات واتخذ بعضها شكل المدن الثلاث : أوياء ، ليدة ، صبراتة ، وتطورت فيما بعد إلى أئمة هذا العالم الجمراني وتفكير الفينيقيين في استعماله وهكذا كانت أوياء من بين البلاد الأولى التي اتصلت بالفينيقيين أثناء التجارة وعلى الإغريق فيما بعد وكان هذا الاتصال في أساسه تجارياً يقوم على ما امتار به لساحل اللوى من موقع خاص بالنسبة لبقية البلاد الأخرى وكان لابد أن يكون هناك نوع من التبادل المصلحة للتجارة وكان لابد كذلك أن يبتدأ من هذا لتعاون استعادة اللوبيين من الملاحه الذي ألقى به الفينيقيون إلى الساحل اللوى وقد ساعد اللوبيين في ذلك استعدادهم الخاص الذي اكتسبوه بأسفارهم عبر الصحراء الكبرى إلى أواسط أفريقيا حيث موطن الثروة المشوذة ، والسفر في الصحارى قريب الشبه بالسفر في البحر من حيث الحرارة والإقدام والاستعدادات التي وإن اختلفت ميدان السفر وتوعت وسيلته ، فصحراء وسلة حيوانية هي الخيل وهو سفينتها وللبحار أحشب أحكم تركيبها حتى غدت سفافها ، وهكذا كانت روح المخاطرة والحرارة ونفس متاعب الأسفار التي اكتسبها اللوبيون القدماء رحلاتهم جنوباً حير معين لهم على نهيتهم الاتصال بالفينيقيين والاستعادة منهم وبالتالي على لعب دور كبير بالنسبة لهم ذلك الوقت في حبة البحر الأبيض المتوسط والزمن كهم يكشف هذا الدور وعلى أهميته بعد أن تبينت خطوطه الأولى.

ثم طهر الإغريق على مسرح حوض البحر الأبيض المتوسط كما طهر الفينيقيون من قبلهم ولكن ظهور الإغريق في هذه المرة يختلف تمام الاختلاف في جوهره عن ظهور الفينيقيين وإن اتخذ مظاهره البحري ظهر الفينيقيون فكانوا : سل أم وسلام لأن المصلحة التجارية اقتضت منهم ذلك

مراعاة للموانئ التي يحنونها من النشاط التجاري الذي يستهدف للحصار والضيق
 اذا ما تعرض حوض البحر الأبيض المتوسط لصفة عامة ومسلكه المائية
 لصفة خاصة لأي اضطراب أو اعتداء . ولكن الإغريق وقد قست عليهم
 الطبيعة في بلادهم الأصلية الجبلية الفقيرة وبعد أن استنفدوا وسائل مقاومتها
 بالهجرة إلى الخارج والانخراط في سلك الجيوش المترفة احترق بعضهم
 للصوصية البحرية وكان لهم في جزرهم البحرية وبحارهم الهدنة خير مدرسة
 لتدريب نوع يتدرج في هذا المصير وقد تلقوا مبادئ فن البحرية على أساتذتها
 الفينيقيين . وهكذا كان الإغريق أول من احترق القرصه وأول من وضع
 لها الأساس متحدين من النشاط التجاري لسفن الفينيقيين وبقية دول البحر
 الأبيض هدفاً لهمائهم ومورداً للعالم . ومن الإغريق انتقلت هذه الحرفة إلى
 بقية الشعوب الأخرى التي احترقها فيما بعد إما مضطرة بدفع رد الاساءة عنها
 وإما باستمرانها بعد أن كانت حرص الدافع في أول الأمر واتخذت منها
 مورداً للرزق لبعض أفرادها الذين وحدوا فيها ميذاً لإظهار انطوله والحرارة
 إلى جانب ما تعود به عليهم من غنائم هي خير معين لهم على الحياة .

وكان لا بد أن يتصل اللوسون بالإغريق كما اتصوا بالفنسيقيين من قبلهم
 بحكم الارتباط بالبحر الأبيض المتوسط وإن احتلت طريقة الاتصال بالجزء
 الشرقي من لوب والمعروف ببرقة لا يبعد كثيراً عن بلاد الإغريق الأصلية
 الموطن الأصلي لهذه القرصنة البحرية وكان في طبيعته الساحل الليبي في هذا
 الجزء من حيث التمرح وقيام بعض الموانئ خير مساعد على هذا الاتصال .
 فكان هذا الاتصال وكانت هجرة جماعات من الإغريق إلى الحبس الاحضر
 واستيطانها فيه وكان لها في أحشائها غنائم خير مساعد على قيام صناعة السفن
 والدخول بها في ميدان القرصنة وتحويل مواهبه إلى أوكار لها . كل ذلك على
 أنه ميدان من ميادين الردي المسح اتيانها للحياة والتي رسمها الإغريق لأنفسهم

وهكذا عرفت القرصة البحرية قديماً طريقها إلى ساحل لوبيا كما عرفت طريقها أيضاً إلى البلاد الأخرى التي قدر لها أن تتصل بالأفريق في العصور القديمة وإن كان العير قد بقى إليها واقتصر أمر الاحتراف بها على غير أهلها الأصليين بصفة عامة وإن اشتركوا فيها بحكم الحياة الجديدة وملائمتها الخاصة والاعتراف بهذه الوسيلة على أنها إحدى وسائل كسب العيش في ذلك العصر antiquum .

ثم جاء الرومان وأصبحت لوبيا حلقة في سلسلة العام الروماني واصططعت بالحصارة الرومانية كغيرها من البلاد الأخرى وسرعان ما أصبحت مشغلة بدورها كبقية المشاغل التي أصابت حوض البحر الأبيض المتوسط في ذلك الوقت فكان لها في لدة وقية المدن الساحلية الأخرى ما مكبها من ذلك الدور على أحسن ما يكون ففصل نشاط أهلها وحبويتهم الأمر الذي ساعد البلاد على انجاب شخصيات كان لها دور كبير في هذا المصير ويكفي أن نذكر على سبيل المثال الامبراطور ستيمنوس سيفروس *Septimius severus* ابن مدينة بدة وامبراطور اسولة الرومانية فيما بعد والمؤسس لأسرة سابو أفرادها من بعده عرش روما بعد أن مكى بمجهوداته لشخصية من سببها على حوض البحر الأبيض المتوسط وما ورائه إلى الجزر البريطانية .

وكانت موانئ لوبيا كغيرها من موانئ الامبراطورية الرومانية في ذلك الوقت في حركة مستمرة تقصدها السفن محملة بالصانع وتقلع منها بحاصلات البلاد وما أصبغ إليها من ثروة وسط أفريقية وكانت لدة في هذه الناحية قد ضرت بسهم وافر وأصبح ماربينها هدف رماننة السفن ومعيناً لهم على السفر يسترشدون به في وسط البحر إذا التمس عليهم الأمر وإذا كان الضعف قد انتاب أحياناً هذه السادة في فترات متقطعة من العهد الروماني فإن ذلك كان لضعف عام أصاب الامبراطورية الرومانية لم تسلم منه روما نفسها وهي المحرك الأول لهذه الامبراطورية في ذلك العهد . على أن هذا الضعف سرعان

ما زال وعادت المسوانى الموبة إلى ثطها البحرى التجارى المعهود عندما تجددت دماء الامبراطورية بصور القسط. شيفية كما صمة للدولة الرومانية الشرقية لاسيما فى عهد الامراطور جستينيان وهكذا نجح الرومان الى حد كبير فى تنفع النشاط الفينيقي فى لوبيا وما محاولاتهم المتعددة للوصول الى وسط افريقية وإعداد الحملات الحربية لتحقيق هذا العرص إلا مظهر واضح لهذا التنفع وإن لم ينجحوا نهائيا لاصطباع هذه المحولات بصبة السيادة وفرض السيطرة على الجهات الداخلية الأمر الذى لم تعود هذه الاهلى من قبل ولم يأت به الفينيقيون فى السابق .

.....

ثم ظهر العرب على مسرح السياسة العالمية فى القرن السابع الميلادى بظهور الاسلام وأخذت طرقهم تدق مبهم امراطور شى متداعيتين احدهما قد تمثلت فيها القوة البرية بجملاء وهى الامبراطورية الحارسية والآخرى وهى الامبراطورية الرومسية الشرقية وقد مكنت من القوة البحرية ما ساعدها على الاحتماط بسيادتها على المياث الواقعة فيما وراء البحر وما جعل العرب يسمون البحر الايض المتوسط فى ذلك الوقت سحر الروم . وإذا كان العرب قد استطاعوا انقضاء عبي لامراطورية شامسية سرعة حارقة فى عهد خلافة عمر بن الخطاب حتى إنه لم ينته عهد الخلفاء الراشدين إلا وكادت الجيوش العربية قد تعدتها إلى الشرق منها فإهم قد وجدوا مقاومة كبيرة وصعوبات متعددة فى سبيل الاستيلاء على الشمال الافريقي بعد أن تم لهم الاستيلاء على بلاد الشام ومصر . وكان هذا التطويل الذى انتاب المجهود الحرقى للعرب فى الشمال الافريقي مشر بحث وتعليل وقد حاول المؤرخون ارجاعه الى عسدة أسباب وجية يمكن للعقل أن يسلم بها ولكن دون أن يقتنع تماما . قالوا مثلا أن العرب قد وجدوا فى هذا الميدان الافريقي شعباً عبيداً مستعيتا فى الدفاع

عن بلاده صمد الاجنبي العاصب وأنه بطبيعته لا يرضح لآى قوة كانت أمامه
ولكن من منا يستطيع تجريد الشعب الفارسي من هذه الصفة والتاريخ في مراحله
القديمة والحديثة يذكر له حده ومدى تعطيل روح المقاومة في نفوس بنيه وكيف
كان مصير من حاول قهره أو المس من حريته قالوا أيضا أن طبيعة الاديان الشمال
الافريقي يحبها ووديانها وصحاريها كانت خير معين للعرعر على بضاهم ضد
العرب الفاتحين وبما لم يستطيع العرب التغلب عليهم والاستيلاء على بلادهم
ولكن أيضا من ما يحمل طبيعة بلاد فارس فإن كانت المسألة مسألة حصول
ووديان وصحر فايران أعلى جمالا وأعنى وديانا وأقوى صحارى المقارنة
بالشريط الساحلى للشمال الافريقي الذى صارت فيه الجيوش العربية الفاتحة .
قالوا أيضا أن الحود الذين قامهم العرب في شمال افريقية كانوا كثيرى العدد
ولكن أيضا من منا يستطيع التغلب من كثرة حشد الفرس وجحدهم المتلاحقة
في ذلك العهد .

الحقيقة التى لا عار عليها أن كل التعليلات السابقة وحيية ويمكن للعقل أن
يسلم بها لولا هذه المقارنة ومع هذا فالإنسان لا يمكن أن يقلل من قيمته ولكن
أصلاً لا يسلم بأن تكون كافة لتعطل ما ناه العرب من مصاعب في فتح بلاد
الشمال الافريقي الأمر الذى ترتب عليه تخصص رص أطول بالنسبة بقية
الأقطار الأخرى التى فتحها العرب . أما السبب الرئيسى والذى يجب أن يكون
في مقدمة الأسباب والمهد للتعطلات الأخرى إذا أردنا أن نلحقها به فهو أن
العرب كانوا في نشأتهم الأولى أمة رية لم يدرسوا الحرب من جهوا معاملة فليسوا
تقاربوا مع غيرهم كانت لهم حلة والانتصار في الفس الحربى الذى عرفوه
فأفقوه وهذا ما رأوا في ملكه فارس وبلاد الشام الملاصقة ومصر المجاورة .
أما القتال في الشمال الافريقي فاستدعى أسره سلاحاً آخر لم يكن العرب قد
اهتدوا إليه حتى ذلك الوقت بحكم بناتهم البرية وهو "سلاح البحرى وإعداد

التغوات البحرية ككل العرب في حربهم في شمال أفريقيا كلها أحصوا حزمهم من البلاد التي المدد من البحر إلى عدوهم وقد حتمت لفسن وقطع خط الرجعة على جيوشهم المتقدمة وعزلهم عن مؤخره جيوشهم حيث الامدادات اللازمة وسرعان ما تحل بهم الهزيمة أمام أي هجوم مصائد أو ثورة محلية وكانت الامبراطورية الرومانية الشرقية قد عرفت كيف تستغل هذا التفوق البحري في السلاح بعد أن صاع منها الشام ومصر فكان لها النصر في الحولات الأولى قبل انتهاء العرب إلى معرفة فضل البحري ووسائله والرائر لمدينة درة الواقعة في الشطر الشرقي من البلاد تلت طرقة قنود أولئك الشهداء من العرب الأوائل الماتحين الدس حولوا انتشقر بعد أن حلت بهم الهزيمة ولكن اسطول العدو البحري قطع عليهم خط الرجعة وأرسل بهم هلاك فكان مصيرهم الاستشهاد كما استشهد غيرهم في أماكن أخرى .

حين العرب في شمالهم الأولى البحر معادوه ونحوه اذكره فكانت المعركة في غير صالحهم ولكن من حسن حظ العرب أن حملهم هذا لم يدم طويلا إذ أنهم سرعان ما تدبروا إلى حقا فمكرهم الأولي فلم يثب عهدهم طيقته لثلاث عثمان بن عفان حتى كاد يمتد اسطول بحري قوى استطاعوا به الوقوف في الميدان والحقاق الهزيمة بالعدو وبحرا انصر نحو مصر ، هكذا وضعوا لانفسهم أسس اسبده بحرية العربية في حوض بحر الروم وكانت موقعة ذات السوارى ، التي اشتقت اسمها من كثرة سوارده السفن المشركه فيها السنة الاولى في الانتصارات البحرية التي أحررها العرب فيما بعد وسرعان ما تبعها من حزم العرب لجريده قبل من وحزمه رودس بقواتهم البحرية .

كانت هذه الانتصارات البحرية للعرب في بداية عهدهم بسحر حبره شجع لهم فاصدعوا في هذا السير وأشأوا دور الصناعة للفسن في مواضع الشام ومصر وكاوا كلها أنما فتح جزء من بلاد شمال افريقي عن واديت بأسطواهم

وأمر عوا في شيد دور المصاعة لسفنهم وقد لعب ميناء طرابلس وبقية موانئ الساحل الأفريقي الذي تم الاستيلاء عليها في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان دوراً هاماً في تكوين الاسطول لبحري العربي ونزويده بالملحج الامين والراد إذا احتاج 'عجل بأمر الاستيلاء على الشمال الأفريقي ولم يأت أواخر القرن الأول الهجري حتى رأى الخلود العربية في عهد خلافة الواسع من عبد الملك تركب البحر وتعمد شبه جزيرة ايسيريا بقوة بحرية منظمة محكمة ذات على راعة فائقة في هذا المصارع ساهم في تكوينه وتسييرها كل بلاد الشمال الأفريقي بعد أن تم دخولها في الدين الاسلامي .

ومنذ ذلك الترخ أحد ولاية الشمال الأفريقي يحافظون على أن يكون لهم أسطول بحري قوى للدفع عن الساحل ضد أي هجوم مصاد يقوم به العدو ولصلهم بالبلاد التي فتحوها ولاستجداه من جديد في الاستيلاء على حرر البحر الابيض المتوسط حتى إذا ما أوفد الاعانة دوانهم في تونس انصرفوا إلى بناء أسطول بحري قوى بتمام تمتع حرية صقلية والاعانة على بقية جزر البحر الابيض المتوسط وقد ساهمت طرابلس نفسها في هذه الاعانات إذ كانت بمثابة إحدى المحطات التي تقوى منها ونجاً إليها سفن الاعانة وكثيراً ما تعرضت حرية ما قبلها لمرات سفن الاعانة التي اتحدت لها من طرابلس قاعدة لقرها كما حدث في سنة ٢٥٥ هـ عندما هاجم أبو امراسق محمد بن أحمد ابن الاغلب .

ولما أعلن الخلفاء الماضون الحرب البحرية على الدولة الاموية في الاندلس كانت طرابلس قد اشتركت كمقر من الدولة المظمية في إعداد أسفن اللارمة لشك بين الاسطول المظمي لهذه الحرب وهكذا كان دورها في بقية النشاط البحري الذي قامت به الدولات الاسلامية للشمال الأفريقي بحكم تبعيتها والاعراض في سلك "المسلم الاسلامي

وجدير ب أن نذكر أن هذه القوة البحرية الاسلامية للشمال الافريقى لم تكن عاملا من عوامل الارعاج واثارة الرعب والموصى فى مياه البحر الأبيض المتوسط او ما يذهب إليه الكثير من لكتاب من فهم معنى كلمة القرصنة ، التى حاولوا الصاقها بشعوب شمالى امريتيه وفى مقدمتهم أهلى لوبيا . ويؤيد هذا القول ما كانت عليه العلاقات الودية بين ولاية الساحل الافريقى وحكام المدن التجارية من ساحل الأورى المسيحى المذلل اذا استعرضا المعاهدات التى عقدت بين لصرهين فى ذلك الوقت والتى تم الاتفاق فيها على انقضاء على القرصنة وتشجيع التجارة المتبادلة بقدر المستطاع (١) فهذه بيزا Pisa وجنوا Genoa وارجون Ancon و"لندقيه Venice كل منها قد عقد معاهدة تجارية مع ولاية افريتيه وكانت كلها تعمل على تحديدها عند انتهاء اجلها لأن التجارة الافريتيه كانت شتأ هائلا جدا لفسه لشعوب أوربا خصوصا لأهلى هذه المدن الذين احترموها ونوا عليها معشنتهم . ويؤيد هذا القول قيام الشركات التجارية المسلمة بتجارتها الخاصة ومدايقها فى كل من موانئ طرابلس وتونس ومخاية وملاين دهمت العلاقة التجارية بأهلى جنوا إلى آمد من هذا الحد وهو شقيم بانساع عن مدينة Ceuta فى شمال افريقية ضد "سليبيين من المسيحيين ابن الحروب الصليبية وما كان لأهل جنوا أن يفعلوا ذلك ما لم يتأكدوا من الروح الطيبة لسلطان افريقية نحوهم . وهكذا كان نتيجة وسادها الأثر الفعال فى تخفيف وطأة العداوة الدينية بين أهلى شمال افريقيه وشعوب جنوى أوربا المسيحيين بل ذهب "السمح بالمسلمين و"كيدهم بدوايا اطيبة نحو المسيحيين إلى السماح لهم بحرية التمدد وقادة الكنايس الخاصة بهم دون أى إرعاج وتؤكد ذلك ما رواه "رحالة انكرى فى وصفه لمدينه اجداريا فى لوبيا فى القرن الحادى عشر الميلادى "د يقول : وأهلها ذو بسار اكثرهم

القراصنة الرنيسيون في البحر الأبيض المتوسط حتى القرن الرابع عشر الميلادي وقد احترفوا التعامل بكثرة في الصائع المسروقة والعبيد. (١) هذا قليل من كثير يدعم رامة الشمال الافريقي من تهمة القرصنة لأنها حرفة عربية عنه بحكم نشأتها وبحكم تعاليم دينه وقد سبق أن عرفنا كيف أنها كانت للاغريق فهم أول من احترفها وعلمهم انتقلت إلى غيرهم حيث وجدت الترحيب والتشجيع بالاحتراف بها وليس أدل على هذا القول من أن فرسان الاستنارية Hospitallers الذين بدأت نشأتهم الأولى في بيت المقدس كظهر للحركة الدينية الصليبية والذين انتقلوا إلى جزيرة رودس بعد أن طردهم العثمانيون في سنة ١٤٠٣م من مدينة أزمير قد أسرعوا في تحصين جزيرتهم الجديدة واتحدوا منها وسيلة لتهديد التجارة فيما بين مدينة الاسكندرية ومدينة القسطة طلبية ثم سرعان ما وسعوا ميدان نشاطهم القرصني فشمولوا جميع السفن المارة بمياه جزيرتهم دون تمييز حتى أصبحوا القراصنة المسيحيين للشرق مستغلين أحشاش غابات قرمايا Caranina في آسيا الصغرى لترويدهم السفن وشعوب السواحل المجاورة لمدمم بالعبيد المأسورين لتسييرها . وقد عانى جميع السفن باختلاف أنواعها وفي مقدمتها المسيحية الكثير من اعتداءاتهم حتى أن جمهورية البندقية قد نظرت بعين الارتياع في سنة ١٨٤٠م عندما أرسل سائغان العثمانيين محمد الثاني قررة كبيرة لتأديبهم والحد من نشاطهم القرصني الذي أساء إلى تجارة البحر الأبيض كما أساء إلى تعاليم الدين المسيحي لأنهم لم يفرقوا بين السفن ونعميتها وفي ذلك من معنى اللصوصية ما يدع إلى وصفهم بالقرصنة دون تردد .

هكذا طالت القرصنة غريبة عن أهلى شمالى افريقية ومن بينهم اللويون

١ Lane Poole The Barbary Corsairs P.T. 23 up to the nineteenth Century, the Christians were the chief pirates of the Mediterranean and dealt largely in stolen goods and slaves.

وظن الولاة يدفعون شرها عن بلادهم بكل ما أوتوا من وسائل إلى أن
أجبروا عليها اجباراً بحكم الظروف والأحوال التي جدت فلم يجدوا ماصاً من
المساهمة في ميدانها ومع هذا فقد راولوها بشكل حرص وفي حدود معينة لا مـ
الدى لا يستطيع معه إن يلحقها بهم .

وكات أول هذه العوامل التي أجبرتهم على مزاولته القرصنة هي اربعة
في الدفاع عن سفنهم التجارية بعد أن فشلت كل الطرق الاخرى المشروعة
في تحقيق هذا الدفاع كعقد المعاهدات وتحسين العلاقات ونهوية الاعتماد
أكثر من مرة ولكن النفس اللبيمة لا يزيد بها الإحسان إلا عياءً فركبت رومها
ورأت في هذا التسامح ضعفاً وأسرفت في عمدها ولم تعرف له حدوداً عندئذ
وجدت المعاربة أن خير وسيلة لحماية تجارتهم ومصالحتهم الحرية إلى جانب المحفظة على
كرامتهم وكرامة الشعوب التي يحكمونها هي رد الاساءة عندها بل رد الصدمة
بأقوى منها وعندئذ فقط بدأنا نسمع باعتداء المغاربة على السفن المسيحية
ولكنه كان اعتداء من النوع المشروع ومن النوع الشريف الذي يحدد معالم
خطوطه حتى لا يؤاخذ صاحبه عايه إذا وجه العير اليه الملام أو عرض له لحساب
وكان هذا السلوك الايجابي لا بد منه في الوقت الذي أخذ فيه النشاط التجاري
في حوض البحر الأبيض المتوسط في الازدياد بعد القرن الرابع عشر وبدأ
العدو يشعر بالعدا عليه في هذا الميدان أمام المسلمين وإذا كان الاستاد بوفيل (١)

E. W. Boscawen : The old Sahara an introduction to the history of
the Western Sudan P. 123:—

"If Christians seem more often to have been the victims than the
authors of piracy it is because their Coasts were less easily defended,
because their trade was greater and therefore more vulnerable and
because their history is better than that of the Arabs ."

Bovill قد حاول في كتابه تعليل هذه الغلة بأسباب تراءت له حصرها في أمر صعوبة الدفاع عن سواحل المسيحيين وكثرة تجارتهم بالنسبة لتجارة المسلمين الأمر الذي عرصها أكثر للتمدى فضلاً عن أن تاريخ المسيحيين أحسن من تاريخ العرب فإن تعليله هذا هزيل وقوله ضعيف مردود عليه إذ فيه تعد على الحقائق ومغالطة صريحة مكشوفة. أما القول بصعوبة الدفاع عن السواحل المسيحية فهذا ربما نسل به ولكن من منا يستطيع تسهيل هذه المهمة بالنسبة لسواحل الشمال الأفريقي عامة وساحل لوبيا خاصة وهي الطويلة بامتدادها المكشوف في أكثر جهاتها بعكس الحال في السواحل الجنوبية لأوروبا حيث سلاسل الجبال المشرقة على السواحل وحيث الجزر البحرية القريبة الأمر الذي يساعد أكثر على تسهيل الدفاع وسهولة التسلل في أمر وسلام. وإذا كانت تجارة المسيحيين كذلك أكثر من تجارة المسلمين فهذا شيء مسلم به أيضاً ولكنه شيء نسبي يتمشى مع عدد دول كل من الجنين وللتجارة المسيحية في كثرة دولها وتعدد شعوبها ما يساعد على كثرتها وبالتالي أمر الدفاع عنها أمام البحرية الإسلامية ذات الموارد المحدودة والشعوب القليلة بالنسبة لأعدائها. أما أن تاريخ المسيحيين أحسن من تاريخ العرب فهذا هو النجنى دميته والمغالطة الصريحة المفصوحة إن دلت على شيء فإنما تدل على التعصب الأعمى والجهل بالحقائق المسلم بها من الجميع وعلى رأسهم مؤرخو الإفرنج (١)

ثم جدد عمل ثان كان له أكبر الأثر في نفوس المسلمين عامة ومسلمي

١ - ليس هذا أحسن من الرد على هذا القول من ذكر سر الفقرات من كتاب «العرب» لـ الدكتور فاسل حني «مروت ١٩٢٦» حيث يقول «وليس من شعب آخر قام في القرون الوسطى بما قام به العرب في سبيل تقدم البشرية (ونحن هنا لاصطلاح كلمة =

الشمال الافريقي خاصة وكان أكبر مشجع للمغاربة على مزاوله القرصنة بشكل واضح . هذا العاص الجديد هو طرد المسلمين من الاندلس على يد الاسبان وما اقترن به هذا الحادث من أهوال ومصائب ابرلها المسيحيون بالمسلمين المسلمين دون مراعاة لما قاموا به في ميدان الحصاره في الوقت الذي كانت فيه شعوب أوروبا تعيش في دبابير الظلام والوحشية وفي الوقت الذي كانت فيه اشعة الحضارة قد اتخذت لها من قرطبة وغرناطة واشبيلية وبقية بلاد الاندلس مصاييح لاصابة الطريق أمام هؤلاء القوم وتعريفهم بالحياة على أصولها . وباليست الاسبان وقف عليهم عند حد احراج المسلمين من شبه جريرتهم ومحاولة طمس معالم حصارهم هناك وارال العذاب الاليم بمن نقر من المسلمين معوياً على أمره وما يحكم التفتيش التي يذكرها لنا التاريخ إلا صورة مصغرة لما عاينوه ولكن نشوة النصر دفعت الاسبان الى تنسج المسلمين وقد لجأوا الى الشمال الافريقي فحاولوا بالاشتراك مع احواسهم من سكان حنوي أوروبا أن يجربوا طريقهم هذه الجديدة في ابددة الشعوب في البلاد المقابلة لهم والتي لا يفصلهم عنها إلا البحر الابيض المتوسط وكان من الصعب على المسلمين وقد اضطروا إلى ترك بلادهم فجأة دون سابق اندار وبطريقة وحشية أن يسوا وطهم الأول بعد أن اقاموا فيه ما يقرب من سبعة قرون وبعد أن

== عرب على أيدى الحروب العربية بعدد بل على سائر شعوب التي عذبت العربية اسباناً
 وفيما كان فلاحه بغيره سكن على درسه نافع ارسطو كان شريفاً ورجال
 عدته يحاولون انفسان كنهان اسمائهم وفيما كان علماء بغيره في دراسة يوددون على
 خرائط كنهان اسمائهم (وفي خرائط حوب ١٠٠٠-١٠٠٠) عند وجودهم في
 بيوهم يمدون بالاستخدام في علامات بغيره في ابداته والاداة كان الاسامة
 وتلامذة في جامعة اكسفورد يفسكرون الاسهام ويحسونه من مذهب لغير
 الشهوانية التي يجب الترفع عنها من ٩.

شيدوا حصاراً مدعماً تركوا معالمها بعد اليأس من انقادها، وكانت الطريقة التي تمت بها عملية جلاء المسلمين عن اسانيا كفيلاً بتمزيق العائلات وتشقيت أفرادها بل ترك عدد كبير منها في حالة تنظر الانقاذ السريع ومد يد المعونة العاجلة ولهذا وبعد أن وجد اللاجئون ما يؤمنهم على حياتهم في الشمال الافريقي احدثوا يعدون العدة للتسلل ليلاً وكلما واثم الفرصة إلى وطنهم الأول لانقاذ من تبقى من أفرادهم يسفر احسنوا اعدادها لهذا الغرض، ومن هنا جاءت البذرة الأولى للقرصنة اذ أن كثيراً ما كانت روح الانتقام وهم المعتدى عليهم ما تدفعهم إلى إنيان أعمال انتقامية وهم في الطريق وقد نظر البير إلى هذه الأعمال على أنها قرصنة بحرية مع أنهم أبرياء منها لأنهم لم يعملوا أكثر مما يجب أن يعمل أي شخص آخر في مكانهم، كانت مقابله المسلمين الفارين وقد قل عددهم الاسان من جديد في ميدان القتال المفتوح أمراً غير ممكن ولكنهم بهذه الطريقة وبواسطة سفهم انباشتة ومعرفتهم للشواطئ الامبارية استطاعوا أن يجدوا فرصة لرد بعض ما لحق بهم من هوان على يد الاسان (١). وأمام هذه الكارثة التي حلت بالمسلمين في الاندلس والتي بدأ شبحها يلاحق اخوانهم في الشمال الافريقي لم يجد ولاية بلاد المغرب وعلى رأسهم بنو حفص اسين أحسنوا معاملة من أقام عندهم من المسيحيين بدأ من ضرورة المساهمة في الدفاع عن هؤلاء اللاجئين بحكم العاطفة الإنسانية أولاً وبحكم ما يربطون به معهم من رابطة دينية دفعت البير إلى محاولة تحطيمها في تحطيم كيان وطنهم وما شيدوه من حصاراً، وكان على هؤلاء الولاة

1 Lane-Poole, The Barbary Corsairs, P 8

"No sooner were the banished Moors fairly settled in their new seats than they did what anybody in their place would have done. They carried the war into their oppressor's country."

أيضاً أن يخدروا الشعوب الصام لشعوبهم بالوقوف إلى جانب اللاتحين لهذا
ثارت ثورة البلاد الجنوبية لاوريا وحلت بقمه أهله على هؤلاء الولاة
وشعوبهم لأنهم حموا هؤلاء اللاتحين وأرلوهم بديارهم وهدأوا من
روعهم وحولوا تدويصهم ما فقدوه من أمر وطماينة فصورهم العداوة
وشملوهم بالعدوان ونسوا أن أهالي شمالي أفريقية لم يعملوا أكثر مما يجتمع
عليهم الصمير الإنساني وهم المعروفون بحس الصياقة وكرم الملافة وإمانة
المهروف لا مع المسلمين فقط بل مع غيرهم كما تشهد بذلك حوادث التاريخ
ومعاملتهم الحسنة لم أقام معهم من المسيحيين كما سبق ذكره.

وهكذا نشأت العداوة بين بلاد الشمال الأمازيغي وبلاد جنوبي أور.
نصورة عامة إلى جانب ما سببه العامل الأول من استعداد لشاة هذه العداوة .
وكان من الطبيعي ولحز هو الماثل بينهما أن يكون هذا البحر مسرحاً للحرب
فأحد كل منهما يهد العدة لقتال ويتفق في وسائله ويتحين فرصه وكان من
الطبيعي أيضاً أن يقتزن هذا القتال بأعمال قد تبدو غير انسانية إذا نظرنا إليها
دون تحس وتسقيق ودون فهم لأمسائها وملاستها . وإذا كان الممارسة قد
ارتكبوا في هذا القتال من الأعمال ما لا يرصه الإنسان فقد ارتكب أعداؤهم
أصناف أصفاء وما من مدح حلوا به أو منه احتلوه إلا كان عرصه لمثل
هذه الاحمال . من هناك ما يؤكد لنا أن أهالي شمالي أفريقية كانوا أخف وصاة
في هذه الناحية بدليل ما ذكره لنا الأستاذ Lane Poole من أن كثيراً من
العبيد الذين كان المسبون بأسرونهم في غرواتهم لحزور البحر الأبيض المتوسط
والسواحل الجنوبية الأوربية يرفضون تحرير أنفسهم من طريق المكاتب
 ويفضلون حياة الأسر في شمالي أفريقية على العودة إلى بلادهم الأصلية حيث
تتظفرهم العاقبة والمعاملة السيئة القاسية من الحكام (١)

وكان أكبر مشجع للأوربيين في سلوكهم العدواني ما كانوا يشعرون به من حماية في اسبانيا وقد ظهرت كدولة للوجود في ذلك الوقت وعادها وتطور شأنها بطرد العرب من الاندلس والاستكشافات البحرية وتأسيس الامبراطورية في العالم الجديد والسيادة البحرية في عربي حوض البحر الابيض المتوسط .

وبما كان الصراع حامياً بين دول جنوبي أوروبا من ناحية وبلاد الشمال الاقربى من ناحية اخرى إذ تعامل جديد ثالث يعمل على تقوية هذا الصراع ويكسب القرصنة الحرية طامعاً خاصاً ذلك هو التوسع العثماني في شرقي البحر الابيض المتوسط واستيلاء الأتراك على القسطنطينية . أحدثت هذه الظروف الجديدة شيئاً من التوازن بين القوتين المسيحية والاسلامية في حوض البحر الابيض المتوسط بعد أن كادت الاولى تنجح في سيطرتها البحرية وكانت صرايلس المدينة التي قدر لها أن تحصد لفرة قصيرة للسيادة الاسبانية البحرية في أول الأمر سرعان ما تنسارل عنها الأسباب لفرسان القديس يوحنا في جزيرة مالطة .

وإذا كان بعض أهالي مدينة طرابلس العرب الذين فروا من تعسف الاسبان والتجأوا إلى ناحية تاجوراء في شرقي هذه المدينة قد أرسبوا وفداً للحلقة العثمانية لطلب النجدة وانتشاهم من الحكم الاسباني فإن بحيرة الأتراك إلى الساحل اللبني كان لابد منه لتدعيم حركة بضاهم مع الاعضاء في البحر الابيض المتوسط (٢) من أجل السيادة عليه وانتزاعه من الاسبان وقد نجحوا في مشروعاتهم هذا بل نجحوا في جعل موانئ لوبيا وفي مقدمتها طرابلس قاعدة لأعمالهم الحربية البحرية ضد سراحل جنوبي أوروبا لاسيما شبه الجزيرة الايطالية وما يحيط بها من جزر . وكان حمل نشاط الولاة الأتراك الذين تيسروا في اوائل

الحكم العثماني مقصوراً على هذه الناحية وعلى رأسهم دعوت باشا الذي حصد اسمه بين أسماء الشهداء بأعماله المحررة واستشهاده في الهجوم على جزيرة مالطة وقد رد للساحل اللوي أمه وارث الرعب في قلوب من حاولوا الاعتداء عليه أكثر من مرة .

وهكذا كان على بلاد الشمال الأفريقي ومرسى الويا أن تنقف إلى جوار الأتراك في مصالهم مع الأسبان الذين سبق لهم أن أرادوا تخطيط الشمال الأفريقي بسبب العقيدة الإسلامية وقد رأى المسلمون في العتايين خير غوث لهم فصلا عن قتلهم الغوث عن رضا بسبب هذه العقيدة التي تقرب بين الطرفين واستمدت اسحربة العثمانية المحبذة من الخسة التي قاتلهم بها المعاربة في هذا الميدان الحديدي حماساً واندفاعاً أظهرها في صورة لشدة والنعف واستطاعت بذلك أن ترصد قراصنة المسيحيين في أعشاشهم ونشل حركاتهم لمدة طويلة .

وحلاصة القول أن هذا النشاط البحري الذي سماه العير ، قرصنة ، ماهو إلا نوع من الحرب الدينية من ناحية ودفاع عن الأوطان من ناحية أخرى هو نوع من الجهاد وقد فرضه الاسلام على أمته واعتبر شهيداً من مات في سبيل الدود عن العالم الاسلامي من كان المسلمون يرون الهجوم قرصاً كلباً حذوا عدواً على شعورهم ولم يفعل اللوبيون أكثر مما فعله سكان جنوبي أوروبا قد عانت السواحل اللوية الكثير من غاراتهم وهكذا نهض اللوبيون وجعلوا مواهبهم أوكدراً للقرصنة تنحين العرض المناسبة للايقاع بفريستها ولو كان العرض من هذه الاعارات القرصنة كما يقول الأوروبيون شملت السفن التجارية الاسلامية ايضاً ولكن الواقع أنها اقتصرت على السفن المسيحية دون غيرها لأن الجهاد كان العرض الرئيسي لها (١) بعكس ما لاحظناه اذا درسنا نشاط

البحرية للطرف الآخر إذ أننا نجد لها تأثير بين السفن التي تكون هدفا لهجومها وفي نشاط بحرية فرص الاستتارية مثلا ما يثبت لنا ذلك وهم الذين بنوا نظام هبثهم على أهداف دينية مسيحية وصوبوا من انفسهم حماسة للدين المسيحي واتباعه . بل كان الأوربيون عامة يهاجمون بعضهم بعضا دون تميز في ذلك بين دين أو جنس بل إن كثيرا من الدول المسيحية قد هالكت الدول الاسلامية على نبي جنسها ولما في التحالف الذي قام بين النمانيين والفرنسيين ما يؤيد هذا بل نحن إذا راجعنا تاريخ الاعلير أنفسهم في ذلك الوقت لظروا لنا قراصنة أو أو مذبحة القراصنة وتاريخ كبار الملاحين الاعلير كما رواه لنا ، فلود ، Froude يثبت لنا أن القراصنة كانت الأساس الأول لنشأة البحرية الانجليزية فيها بعد (١)

...

...

...

هذه هي أهم العوامل التي جاءت بالقراصنة إلى الشمال الأفريقي ودفعت بأهلها إلى مزاولتها مرعيين وإذا كان البحارة الذين تولوا مهمة تسيير السفن من العبيد الذين سبق أسرهم من الشواطئ المسيحية يلقون بعض العذاب والشدة وهم يدفعون السفن اللوية لسوا عدهم وصدورهم بل وسكل عصو فبهم فإنهم قد تعودوا مثل هذه المعاملة في السابق قبل أن يأتوا إلى طرابلس إذا كان اخواتهم المسيحيون يستخدمونهم في السابق بهذا الشكل دون أي فرق في المعاملة . وكانت ترسانة طرابلس لا تكف عن العمل ليل نهار لتزويد الاسطول بأكثر عدد من السفن وكان يقوم أيضا بصاعتها عمال مسيحيون أو من أصل مسيحي انخرطوا في سلك البحرية اللوية كل ذلك في مقابل أجور يومية متظمة مع صرف مقدار معين من الخبز المومي اموة بنظام الجندية في عسكر البلاد ونحو ذلك أيضا نظام

الجندية البحرية في العصر الحديث .

وهكذا كانت هذه السفن تنى واسطة صنّاع مسيحيين أو من أصل مسيحي ويدير دفتها بحاره مسجونون أو من أصل مسيحي ويتولى أمر قيادتها في الغالب من كان في الأصل مسيحياً ثم حرم «الاد المسجونين» وتغزو سواحلهم وتعود بالمسيحيين لتمثل هذا الدور من جديد . وهكذا على مر السنين وبعد هذا كله نسب لقرصة إلى «الاد الشمال الأفريقي» وسنكلم عنها على أنها خاصة من خواصه الخاصة !!

وكانت السفن التي استخدمها الأرسون في هذا النشاط البحري المعروف عامة عند مسلمي الشمال الأفريقي تعتمد في تسييرها على المجاذيف قس كل شيء ولها من شكلها الضروس لحصن ما يساعدها على شق أمواج البحر وسرعة الاندفاع اذا ما حُرّكت مجاذيفها في الماء وقد امتازت بصفة خاصة عن السفن المسيحية بالخفة في كل شيء فكان ذلك مما ساعدها على سرعة مصدرده سفن الاعداء أو الهروب منها إذا غلست على أمرها أو نراى لأصحابها الاحتفاء . وكان يقوم بمهمة التجديف الثلاثة الأسرى العبيد اذا توفر منهم العدد الذي يسمح بهذا العمل أما إذا قل عددهم واصيبت الملاحه نازمة فيهم فإن صاحب السفينة كان يلجأ إلى تاجير نفر من أهل البلاد انفسهم في مقابر عشر دوكلات وعمالة جمهورية الدقية ، لكل مرد عن الرحلة البحرية الواحدة سواء اعتمدت السفينة في رحلتها هذه أم لم تعتمد . وكان أيضا في استطاعة صاحب كل سفينة وهو المعروف بالريس Rais ، أن يقوم بساء سفينته التي يملكها على حسابه الخاص وتروبيدها كل ما يحتاج إليه في هذا الخصوص ولكن إذا عجزت موارده الخاصة عن القيام بهذه المهمة لجأ إلى ما يساعده على اتمام مشروعه هذا في مقابل اقتسام العناثم التي يقور بها بقدر ما يتقدمه من مساعده . وكان هناك نظام معين لتوزيع هذه العناثم البحرية أخذت قواعده العامة من تعاليم الدين الاسلامي

الخضع وكان يهبط الحكومة من هذه النائم هو الخس ويؤخذ أولا قد
توزيع الأنصه الأخرى بل كان على كل سفينة عند عودتها إلى الميناء بعد
حولتها لبحرية لطيفة الا نترك شيئا من حمولتها إلا في حصور من يمثل
السلطة القائمة لعمل حرد عام بفتحها واستلام كل ما غنمته من دحار وأسلحة
ولا يترك لها شيء من هذه الأسلحة إلا القدر الذي يكفل لصاحبها مهمة الدفاع
عنها في رحلته القادمة وستدر ماتديه هذه السفن من شاط كان يزداد الدح
العام للحكومة والافراد الذين اتخذوا من البحر ميذاً اساميا لارراقهم ، وكان
لبحارة هذه السفن لباس خاص بهم يساعد على العدل في البحر يتمثل في
دعك النعل الذي يشبه انقارب تمام وذلك السروال الفصفاص لدى تشده مستحقه
حول الوسط وقد علفت فيها الخاخر والأسلحة الضرورية وإلى أعلى منه ما يعرف
بالصديري وعلى الرأس عمامة كبيرة تزين تلك اللحية المستديرة وذلك الشارب
المعشني به .

وكانت أكبر صعوبة صادفها اللوبون في بناء سفنهم البحرية هي الحصول
على الاحشاب والمواد الحديدية اللازمة لذلك لعقر البلاد فيها أو انعدامها منها
تقريبا . وقد اهدت البلاد المعدنية إلى ما نشهر به لوبيا من احتياج في هذه
المواد ولكن مع كل هذا استطاعت لوبيا أن تخصص على ما تحتاج إليه منها
نشي الصرق غير باظرة إلى مباحة لشي ما دامت المصائب البحرية بموضع ما دفعه
في ثمنها . وعن طريق السادقة كانت لوبيا تحصل على بعض هذه المواد اللازمة
لها إدا كانوا يقومون بمهمة تربية هذه المواد إلى ميناء طرابلس رغم أوامر
البابا التي لا تجيز ذلك حتى اصطر دوق السدقية كاسدياو الرابع تحت الخراج انبأيا
إلى اصدار أمر يمنع سفن السدقية من شحن احشاب الى طرابلس يستفيد منها
اللوبون في صناعة سفنهم ولكن الائتمان المعربة التي كان يدفعها اللوبون في
مقاس الحصول على مثل هذه المواد ومهارة البياذقة في آارة التهريب

د الكنترباندى ، شجعت المعامرين وطالبي الربح الوفير منهم على اختراق هذا الخطر وتوريد الاحشاش وما يلزم من حديد . واستطاع اللويون أيضاً الحصول على الاحشاش من عبات الاسبول وبلاد الشام وبلاد المغرب بحكم احراطهم في الامراطورية النمائية الاسلامية وتعاون أهلها في الدشاط البحري لمقاومة العدو المشترك . وهكذا استطاع أهل لوبيا التغلب على أزمة عدم توفر المواد اللازمة لبناء سفنهم وهي شيء هام جداً بالنسبة لنشاطهم البحري ولولا هذا التعاون الاسلامى المشترك لو قفت البحرية اللوية موقف العجز أمام حصار العدو وارتفاع اثمان هذه المواد عن طريق البادية الأمر الذى كاد يصيب السيادة البحرية اللوية في الصميم ويقضى عليها .

وسرعان ما شمر القراصنة أن استخدام السفن ذات المجاديف فيه من النعم ما يرهقهم ويفوت عليهم الكثير من أغراضهم إذ أن استعمال المجاديف لتسيير السفن يحتاج إلى عدد كبير من الأشخاص الذين هم بدورهم يحتاجون إلى كميات من الزاد والامتنعة يمكن استغلال امكتسها في حين ما يحصلون عليه من غنائم وانتلى يمكنهم تطويل رحلاتهم إلى مدة كافية تساعدهم على الفوز بأكثر ما يمكن الحصول عليه وبقدر ما تسمح سفنهم بحمله . ثم أن الرجال القائمين بمهمة التجديف كثير أ ما كانوا يصامون بأشعب فتكل سواعدهم عن العمل وقد يمرضهم هذا الخطر الهجوم المفاجيء للعدو وقد يفوت عليهم اقتناص غنيمة هامة يعجزون عن اللحاق بها وقد تؤخر عودتهم ويفوت عليهم القيام بأكثر من رحلة واحدة فأعملوا التفكير للنخلص من كل هذه العوائق وهدأهم تفكيرهم إلى الاعتماد على الاشرعة في تسيير سفنهم بدل المجاديف وقد شجعهم مالا قوه من مجامع بانواع هذه الطريقة على تغيير نظام بناء سفنهم وسرعان ما أخذت السفن ذات الاشرعة المتعددة تحل محل سفن المجاديف ابتداء من القرن السابع عشر ونقص هذا التقدم العمى في الملاحظة

أصبح خطرهم الآن أشد وأوسع مجالاً ولم يمد محدوداً محدود البحر الأبيض المتوسط فمروا مصق جل طارق واندفعوا في المحيط الأعلى شمالاً و جنوباً وبدأنا نسمع عن غارات السفن الإسلامية على جزائر ماديرا *Madeira* من و من نشاط السمن اللوية شمالاً حتى سواحل أسكندرية والجزر البريطانية وحريرة أيسلندة الأمر الذي ترتب عليه فيما بعد اتساع المسدان واستئناف نشاط القوة البحرية اللويبة والاكتار من الاعداء وتقوية جهتهم أمام هذا الخطر المشترك مما عاد بالصرر على البلاد فيما بعد ولكن نشوة الانتصارات المتتالية ووفرة الارباح الضائلة من الغنائم المتنوعة لم تترك لهم مجالاً للتفكير في النتائج الخطيرة لهذا النشاط البحري .

وكانت البلاد المعذبة تحاول الرد على مثل هذه الأعمال بالمثل إذا ساعدتها الفرص كما أنها تحاول التعطب على ما يبرل من حصاره بأحكام تسليح سفنها واجتذاب المياه البحرية المعروفة بكثرة تردد السفن اللويبة عدها وبالسير بمحاذاة الشواطئ وتجنب الانبيل في البحر حتى تكون أقل عرضة لخطر وحتى يسهل أمر نجاتها إذا تعرضت لأي سوء يمكن دفعه في الحال وكانت السفن في العادة تعمل على تجنب خطر القرصة بالسفر في مجموعات متلاحقة يحمي بعضها بعضاً والويل لكل الويل لدعوة الى تعجر عن متعة رهيلاتنا في السير أو قصص الضريق في رحلتها اسد ما فإن الاسر المصير الهائي لها ولهذا لا تعجب كثير أ إذا عرما أن الأوربيين كانوا يودعون سفنهم عند الرحيل بعارة خاصة حملت في طياتها كل هذه المعاني ودلت على ما كان لسفن اللويبة من سطوة في نفوسهم هذه العارة التي قضاها الآلاف والآلاف من المودعين على مر السنين والتي سجلت في حروفها وتركيبها الخاص مجد البحرية اللوية في ذلك الوقت والتي ملأت اصدقاؤها ذلك الفراغ الواسع من الغلاف الجوي فوق مياه البحر الأبيض المتوسط بعد أن اختلطت بالآثير ورتت في آذان آلاف

الآلاف من المسافرين تلك العبارة هي : وقا لكم الله من سفن الطرابلسين ، (١) وهذا ايضاً ما دعا الرحالة العباسي عند مروره بطرابلس يوم الاربعاء ١٧ رجب سنة ١٠٧٦ هـ في طريقه إلى الاراضي المقدسة من أن يسبح في البحر رحلته الثالثة للبحر ما يأتي ، ولأمر هذه المدينة نكابة في العدو دمرهم الله وله مراكب قل بطيرها معدة للجهد في البحر قل ، تسافر وتزحج بعير غيبة وقل ما اسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة لا من سفن الجهاد فحرامهم الله خيراً واعاينهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين اجمعين ، (٢) .

ولكن هذا المجد انحرى انتهى ثلثه السلام بسكن من غير مقاس فإلى جانب ما تلف أهلها من مجرور حكر ونصحية مخطئة وشطط متوع فوق طاقتها أحياناً جعلها هدفاً لهجمات الاعداء كلها واتهم فرصة اشعور بالقوة وكلا جد من العوامل ما ساعدهم على تحقيق امنيتهم في تلك الفترات الضعيفة التي كانت تمر بها البلاد من وقت لآخر والتاريخ يذكر لنا كيف تعرضت مدينة طرابلس لحكم الاسن الذين اسلموها بدورهم إلى فرسان مملكة إلى أن جاء الاتراك واستخلصوها منهم ويذكر لنا أيضاً كيف تحبست بعض القوى المسيحية الاستيلاء عليهم من جديد (٣) كما يذكر لنا كذلك كيف قامت بعض الاساطيل المعادية بصرب مدينة طرابلس نفسها ومحاولة تحطيم حصونها وقلاعها المتينة كما حدث ذلك في سنة ١٦٧٥ عندما هاجم الحارة اللويون سفناً

١ — Micacchi R La Tripoli tra a sotto la dominazione dei
Caramanli

(٢) رحلة العباسي ، ص ١٠٠ .

(٣) مايو ، — المحدث في تاريخ تونس ص ٨١ .

للاحميز وغمغموا منها ثلاثاً عما أثار غضب البحرية الإنجليزية فلم تحدا ما تحف عنها وطأه ألم هذا العمل إلا القيام بعارة حرية على ميناء طرابلس وأحراق الوحدات انوية الرامية فيه بعد أن قدفت المدينة بمدافعها وكان قائد هذه أحمية الإنجليزية السير جون ماربورو Sir John Marborough يساعده اللشونات شوغل Lieutenant Stovel وما زالت البحرية الإنجليزية تذكر هذا الحادث في سجن تاريخها حتى يومنا هذا . ولكن كان في قوة عزيمته انباء السداد واستماتهم في الدفاع عنها وقوة حصون المضاء وسلامة قلاعها وأحكام تسليمها بنظام حربي في ما كفل لها رد عنه هذا العدو الممير وغيره في هذه المرة وفي كثير من المرات الأخرى .

والملاحظ أن أثر النشاط سحرية انوية في حياة البلاد لم يقف عند الناحية الدنية والاقتصادية والخسبة بل تعدل في جميع النواحي حتى اصحنا نرى أثر ذلك واصحاب الأدب الشعبي متملا في تقصص المتواترة وليس أدل على ذلك من قصة عسيرة ، تلك القصة اسمها المملعة التي اغتصب قراصنة الروم وحمولهم معهم وكيف استنجدت هذه القصة بالولي الصالح عبد السلام الاسمرافيتوري لمدة طلش وكيف استجاب هذا الولي لاستعانتها وعمل على مجدها واقادها من العدو لما له من كرامات وجاه زمان وما زالت حلقات الأذكر في البلاد ترسم بالشمودة عسيرة هذه ومصعبها -

عسيرة يا عسيرة - ما دودك من رقرق مالح
واللي ما يفرعش لعسيرة - مهوش ولي صالح
وليس بهريب أن يصطلع الأدب الشعبي بحوادث اقرصنة وأن يحاول العصر اظهار كرامة الأولياء ثاببات بعض الأعمال البحرية الحارقة إليهم خصوصا فيما يتعلق بالولي الصالح عبد السلام الاسمرافيتوري في القرن العاشر الهجري ذلك القرن الذي ازدهر فيه النشاط البحري للبلاد على أيدي درغوت باشا وأعوانه وحلفائه من بعده .

كان الدور الذي قامت به البحرية اللووية منذ الفتح الاسلامي حتى بداية القرن الثامن عشر جزءاً من نشاط عام الامبراطورية الاسلامية في هذا الميدان ولكن منذ بداية القرن الثامن عشر الميلادي بدأ هذا الدور يتخذ طابعاً خاصاً ظهرت فيه شخصية لوييا كوحدة قائمة بذاتها على اتم ما يكون والفضل في هذا يرجع إلى قيام الدولة القره مانليقائي وضع أسسها أحمد باشا الكبير عام ١٧١١م (١) وكان لاتجاه أحمد باشا إلى الميدان البحري وتجديد ما كان للوبيين من نشاط فيه أثر كبير في تدعيم بناء دولته الفتنة إذ عرف سكانه كيف يستغل ما لموقع البلاد من أهمية خاصة في حوض البحر الأبيض المتوسط فاتجه إليه للاستفادة من موارده بالمساهمة فيما دار على مياهه من فصل بين القوى المسيحية والاسلامية فبدأ بتجديد الأسطول وحسنه وأضاف إليه عدداً كبيراً من السفن الأخرى الحديثة أعاد بها ما كان لساحل لوييا من أهمية وشهرة أيام درعوت باشا وأعوانه بإعلان الجهاد على السفن الأوروبية واستطاع بجارته أن يبرلوا بها الكثير من الخسارة وأن يهودوا مرتلين أشيد النصر محمد علي بن علي والاسلاف حتى إذا ما فرغوا همولتهم على الشاطئ وغمروا أسواق البلاد بالعبيد واسلع أقلموا سفنهم ليعودوا بها محملة من جديد وهكذا كان النصر يتبع النصر حتى ألقت السفن اللووية لراع في قلوب الأوروبيين وقد نجح الأسطول في هذه المهمة وأجبر السفن الأوروبية على الهروب من ملاقاته وهو يتحسسها ويلحق بها المهرمة إذا ما طهر بها . ولم تكن هذه السامة البحرية التي وضع أسسها قاصرة على عهده بل امتدت إلى عهد بيدهم بعده فهذا حبيته محمد باشا قد وجه عنايته الكبرى إلى البحر فأكثر من بناء السفن وتابع الإغارة على السواحل الجنوبية لأوروبا وسفن الأعداء أينما وجدت وأقلق ذلك الدول البحرية فأسرعت إلى عقد المعاهدات مع حكومة لوييا حتى تأمن على تجارتها تطير دفع

(١) لوييا في العهد القره مانلي . موسوعة دراسة خاصة للوثائق المنشورة في العهد القره مانلي .

سنوية معينة وكانت انجلترا أسرع هذه الدول إلى عقدها في سنة ١٧٥١ م. وإذا كان عقد مثل هذه المعاهدات يعطيا فكرة صادقة عن مدى تطور القوة البحرية اللوية ومرکزها في البحر الأبيض المتوسط فإنه كذلك يربط ما وصلت إليه ولاية لوبيا من استقلال ومظهر للسيادة الخارجية إذ أن هذه المعاهدة التي عقدت بين لوبيا وانجلترا قد عقدت دون علم السلطان بها وقد نصت على عدة شروط كان من بينها منع السفن الانجليزية حق المتاجرة مع موانئ لوبيا وأن تثبت هذه السفن جنسيتها الانجليزية بأوراق رسمية إذا أوقفتها إحدى المراكب اللوية في عرض البحر وأن ترخص حكومة السلاط بريادة قنصل انجلترا لجميع الموانئ دون نقيضه وألا تساعد حكومة لوبيا اسطول تونس أو اسطول الجزائر إذا امتسكتا في حرب مع السفن الانجليزية. وترتبط هذه الشروط ما كانت تنصه سفن لوبيا مع سمن السلاط المدنية من احتياطات ومعاملة خاصة عملت حكومة انجلترا على التخلص منها نظير دفع هذه السنوية . على أنها إذا أمعا النظر في هذه الشروط وحدها تحمل في طياتها عواما من اصعاف البحرية اللوية باقاع العرقه بينها وبين بلاد المغرب الأخرى . ثم جاء من بعده ابنه على باشا فسار أيضا على نسق هذه السياسة البحرية ونوسع في سياسة عقد المعاهدات اللوية وتجدد بتقديمه ١٠ - صوص فرص السنوية المدنية في مقابل عدم اعتداء البحرية اللوية وقد شملت دولاً كثيرة بعد أن اقتضرت في عهد والده على بريطانيا وكان أهم هذه الاتفاقيات ما عقده مع جمهورية البندقية سنة ١٧٦٥ بتطال الاعمال العدائية بين البلدين وتشجيع التجارة .

واستمر كذلك هذا النشاط البحري بشكل أوسع في عهد ولاية يوسف باشا القره مانلي وبسبب البحرية اللوية في عهده من القوة ما جعلها تفرص

الاناثات والهدايا السنوية على معظم الدول البحرية ولم يقتصر نشاطها على البلاد القريبة بل امتد إلى البعيدة منها مثل إيران وإيسلندة والسويد إذ أنها لم تدورها من هذه المزوات وإذا كان اللغزمت كولو بين حوردين كاسيرلي Lieut Colonel Gordon Casserly قد على سلامة السفن النمساوية والروسية من البحرية اللوية بقرها من تركي التي تحشى بأسها فإن هذا على كل حال ما يؤيد برامة النشاط البحري من النهب والسلب في العهد القره مابلي وإلا لما فرقت البحرية اللوية بين ما يصادفها من سفن بحرية مواء أكانت معادية أم صديقة مسيحية أو اسلامية . وكان على الأسرة القره مابلية أن تعيد المعونة للدولة العلية في جهادها المستمر ضد الأتوريين وقد ارتبط أمرها بها ديباً فصلا عن الاعتراف بسيادتها التي مهما تضاعفت لا يمكن اغفلها أو التحنى عنها إذا ادخلت الاخطار . والخلاصة بأنه كحكم عام دون عن أى اعتبار للمجتمعات المعدودة لم تهاجم سفن القره مابليين إلا سفن المول التي لم تكن قد ارتبطت بمعاهدات معهم كما يذكر لئ ذلك الامتداد جوستون في كتابه الخالص عن تاريخ استعمار افريقية^{١١٢} وإذا حدث أن هاجمت السفن القره مابلية سفينة من السفن الخليفة فإن ذلك في العال لما تحمله من بضائع يملكها أعداؤهم .

وكانت حالة الدول الأتورية في ذلك الوقت حير مشجع للقره مابليين وغيرهم على التمدد في هذا النشاط البحري فهي في نزاع مستمر فيما بينها من أجل التوسع الاستعماري فصلا عن أن معظمها كان يعنى حنة داخلية مضطربة هي الثورة بعينها أو ما يقرب منها بعد قيام الثورة الفرنسية وما خلغته من ماديء وتعاليم تتعارض ونظم الحكم السائدة في ذلك الوقت . كل ذلك صرف

جهود الحكومات الأوربية الى الميدان الداخلى قبل أن تتجه الى القضاء على الخطر الخارجى الذى تعودته من قبل ولهذا لم تتحد قواتها أمام خطر القراصنة وإن أجمعت كلها على ضرورة مقاومة القرصنة والقضاء عليها ووضع حد لها باتحاد حارم ولكن أى هذه الدول كان يملك الشجاعة الكافية ويجرب حظه فى هذا الميدان ؟ كان حالها جميعا أشبه بحالة الفيران التى أجمعت على التخلص من عدوها لتظل بعد أن قاست الويل منه تتعلق الجرمس فى عنقه *bellum die uit* ولكن من منها يجرؤ على القيام بهذه العملية ؟ وكان حكام الشمال الأفرىقي ومن بينهم باشاوات ليبيا يعرفون هذه الحقيقة ويصحبون من عصب الدول الأوربية الأجوف وتهديداتهم الفارغة وقد تمكنت هذه الحالة فى نفوسهم على مر الأيام وشجعتهما على المعالاة وطلباتهم فى مقابل حماية السفن الأوربية من الاعتداء وكان لهم فى حروب نابليون التى شعلت أوروبا فى ذلك الوقت مدة طويلة واثى الهت الشعوب الأوربية بهذا العدو المشترك ما شجعهم على التماذى فى هذه السياسة الى أن جد من الاحداث ما كان له دور كبير فى الحد من السيادة البحرية اللوية والقضاء عليها فيما بعد. وكان رئيس الحرية اللوية فى العهد القره مانلى يتمتع بمكانة عظيمة أهله فى كثير من الاحين إلى مصاهرة الاسرة الحاكمة كما حدث فى عهد ولاية على باشا قره مانلى عندما روح صبرى كرمبازة الثلاث من رئيس بحريته (١) وكما حدث أيضاً فيما بعد فى عهد يوسف باشا (٢) عندما روح ابنه من مصطفى قورجى الذى كان يثقل وطبعة قياده الاسطول البحرى والذى استطاع أن يجمع ثروة كبيرة حصص بعضاً منها فى بناء جامعته الذى يحمل اسمه الى الآن

Richard Tully Narrative of a ten years residence at Tripoli 1
in Africa, P. 30.

Encyclopaedia of Islam, vol. iv, article (Tripoli)

والذى تم تشييده في (١٢٤٩ هـ - ١٨٢٢ - ١٨٣٤ م) كل هذا يوضح لنا أهمية البحرية اللوبية في ذلك العهد وعلو مرتبة رئيسها .

كان ظهور الأسطول البحرى للبلاد في البحر كافيا لانزال الرعب في قلوب الاعداء ونوليتهم الادبار بل كان شبحه كافيا في كثير من الحالات لانزال هذا الرعب ولنا في قصة القصاع المشهورة (١) ما يؤيد لنا ذلك اذ حدث أن تعرضت مدينة طرابلس لهجوم بحرى من احدى الدول المعدنية فامتشار يوسف باشا وريه الحاح محمد بيت المال في هذه الارمة للتخلص منها ولما كان الاسطول البحرى غائبا عن البلاد لقيامه باحدى جولاته فقد اهدى الوزير إلى حيلة طريفة كان في تنفيذها ما حقق الغرض المطلوب . أشار الوزير على باشا باعداد عدد كبير من القصاع مع ربط كل اثنين منها مع مصصهما ووضع مصابيح فيها مع اصنتها ليلا بعد وضع هذه القصاع في البحر الى الشرق من مدينة طرابلس عند المنصقة المعروفة برأس الحشير وما كاد العدو يصر ليلا بسفنه إلى مياه طرابلس ويرى هذه الأصواء المتعددة في البحر وقد اخذت الامواح تداعبها حتى ظن أن أسطول الباشا قد عاد من احدى غزواته الموفقة فلم يجرؤ على تنفيذ غرضه وقصص الهروب على منارلة هذه القوة البحرية وهكذا كان في هذه الحيلة الماهرة وفي ما للبحرية اللوبية من سمعة قوية ما فوت على العدو غرضه في هذه المرة .

وكان ابرل السفن الجديدة إلى البحر في العهد القره مانى ثم وسط احتفال عام تنظمه وتشرف عليه الحكومة وتدعو إليه عليه القوم ومن رى ضرورة

١ - هذه القصة معروفة عن السيد علي القره مانى وقد أكد صحتها بورودها في احدى الوثائق التاريخية التي يدرها المرحوم اسماعيل كمال وقت ان كان معروفا لدار الوثائق في الاسناد مكافى الاطيان الاسماها بها في تأليفه عن الفرد مانتلي وسكن سيد علي القره مانى يؤكد ان ما أن هذه الوثيقة من راجع في دار الوثائق كالأل الاسناد مكافى م يشهد في كتابه الذي القه عن القره مانى

حضوره ويتم ازال السفينة وفق مراسيم خاصة وقد جاء وصف احدى الحفلات التي تقام لمثل هذا الغرض في احدى الرسائل التي احتفظت بها عائلة ريتشرد تولى Richard Tully القنصل البريطاني في بلاط علي باشا القره مانلى فهي تقول بأن المسيحيين قد دعوا بالأمس (أى ١٩ ديسمبر سنة ١٧٨٤ لأن الخطب مؤرخ في ٢٠ ديسمبر سنة ١٧٨٤) لحضور الاحتفال بانزال إحدى سفن الشا إلى البحر وهي فرصة نادرة قل أن تسمح بها الظروف في كثير من الأحيان ثم تقول الرسالة أنه في اللحظة التي تم فيها انزال السفينة من الترساة إلى لحر كان هناك عدد اسود قد اقتيد وسمرو في مقدمة السفينة حتى يكون ذلك فالأحد للسفينة وهي في طريقها إلى البحر وقد تم انزال السفينة بين مظاهر الفرح والسرور وتعانق الافراد واحتشدوا حتى عجز الورير الأول مصطفي ، عن رؤية عملية تسمير ذلك العبد السيء الطالع ولكن ربما كان ذلك لكثرة الازدحام أو لاشغاله بشيء آخر وقت انمام هذه العملية . كما جرى بحروف أبيض اللون يفوق في بياضه الثلج وقد رين بالزهور وحمل الى ظهر السفينة . وفي اللحظة التي بدأت فيها السفينة تزل الماء تم تحرقه وقدم قرمانا قه تفؤلا بالمستقر الزاهر للسفينة . تم كل ذلك وسط تحية الاعلام والمدافع على الشاطئ ومن طرف جميع السفن المختلفة الراية في الميناء .

ولا يفوتنا في هذه المناسبة أن نذكر فضل المحلصين من رجال يوسف باشا البحرين الذين وقعوا بجانحه وعملوا في الميدان الحرى وفي مقدمتهم الرئيس مراد Marat Rais الاسكتلندى الأصل والذي كان يسمى باسم بطرس ليزلى Peter Lyslee وقت إن كان يعمل كمحار في إحدى السفن الانجليزية التي اعتادت التردد على ميناء طرابلس من وقت لآخر لشئون تجارية وقد قدر له أن يتم

سبب بعض ما كانت تحمله تلك السفينة دفعه الخوف على نفسه من العقاب الصارم إلى الالتجاء إلى الباشا والاحتباء بقعته وانتقاله إلى اعتناق الدين الاسلامي وسرعان ما عرف يوسف باشا موهبة البحرية وقدره وعلم على استغلالها لمصلحة اسطول البحرى واسند إليه مهمة قيادة إحدى السفن الحربية من الاسطول اللوى وسرعان ما أخذ يترقى في هذا الميدان إلى أن بلغ أرقى الرتب وأشتهر باسمه كقرصان ماهر استطاع أن يعود بالكثير من الغنائم في رحلاته المتعددة الموفقة وقد تعلم على يديه الكثير من الحجرة المهمة في اسطول يوسف باشا وكان من بين تلامذته الرئيس الشيللى Rais Shelly اللوى الأصل والذى كان من بين القراصنة المشهورين في حوض البحر الأبيض المتوسط وفي القصة التى يذكرها لنا الرحالة بلا كبرى Blagore في رسالته الخامسة من الرسائل التى بعث بها من طرابلس إلى لندن في ذلك الوقت ما يبين لنا شجاعة هذا الرئيس وإلى أى حد دهست به المعامرة البحرية .

كان الرئيس الشيللى Rais Shelly يقوم بإحدى جولاته البحرية الموفقة عندما صادفته إحدى السفن النمساوية الكبيرة وهى فى طريقها من ميناء أزمير إلى جزيرة مالطة وقد استأجرها بعض التجار البريطانيين . ولما كانت هذه السفينة النمساوية متقنة التسليح وتغوى مقيمة الرئيس الشيللى فى هذه الحجة وجد من الضروري أن يبدأ إلى الحيلة لتحقيق نفيته وهى الاستيلاء عليها كمنفعة فدى على السفينة النمساوية وأخبر ربابه بمراتب ودية بأنه قد فقد قارباً أثناء إحدى العواصف الهوائية القوية وبذلك أصبح فى حاجة ملحة لقارب آخر بدل القارب المفقود وطلب منه إعارته قارب من عنده . لم يتفكر فى الشك إلى الرمان النمساوى فى هذه السفينة الطرابلسية فدعا ريسها إلى ظهر سفينته وتلطف معه وأظهر له كل الاستعداد لمدة بما يحتاج إليه . ولكن الرئيس الشيللى الحذر كان قد استعد له نوى القيام به فاصطحب معه عدداً من أتباعه المسلحين

وأخذ يتظاهر بالود والصدقة مع الزمان المساوى وهو يتمشى على ظهر السفينة ويختبر القوارب مظهر أعجابه بكل شيء يراه وأخيراً وبعد أن فحص جيداً القوارب الموجودة على ظهر السفينة انتفت إلى ربانها قائلاً : أتى أجد القوارب لا تبنى بالحرص الذى أقصده ولكن السعيه تحقق ذلك وهى متدهب معى الى طرابلس ، ولم يتطع الزمان المساوى ابداء أى مقاومة لقوات الوقت واستطاع الرئيس الشيللى بذلك أن يقود السفينة الى طرابلس حيث صودرت حمولتها . ويعلق ايرحالة بلا كيرى ، « Blaquiere » على هذه القصة التى دلت على روح المصممة وجرأة لسحارة اللويين فى ذلك الوقت حتى أنها أصبحت أقرب إلى الخيال من إلى الحقيقة وحتى أصبح أمر ذكرها لا يصدفه العقل فيقول : إن القصة صحيحة بكل تأكيد . . . (١) ،

...

...

...

وإذا كانت البحرية النوبية فى العهد القره مانى بصعة عامة قد بلغت من القوة ما مكنها من اثبات وجودها فى حوض البحر الأبيض المتوسط بل وجعل كتبها هى الأولى فى كثير من الحوادث فإنها فى عهد يوسف باشا بصعة خاصة كان لها شأن آخر اذ قدر للبلاذ فى عهده أن تطلع فى هذه المحجبة أقصى ما يمكن الوصول إليه وكان لذلك أثره القوى فى حياة البلاد وانتعاشها فى الداخل والخارج إلا أن العوامل اعدامه سرعان ما تصافت فى العمل على هدم ما شيده الاسبقون كما تصافت الاعداء وكثر عددهم وأخذوا فى مهاجمة يوسف باشا وسياسته فى أواخر أيامه وهكذا قدر للبلاذ فى عهده أيضاً أن ترى بداية تحلیم عهدها البحرى العظيم وقد سبق لنا أن ذكرنا أن التمدادى فى هذا

العثط البحري والتوسع في مبداه كن من العواصم التي أدت فيما بعد إلى التمهيد للقضاء على البحرية اللوية بسب تكاثر الاعداء واستنزاف الجهود وشاء القدر أن يكون ذلك في أواخر عهد اسولة لفره مالمية وفي عهد يوسف باشا بالذات وعلى يد دولة ناشئة حديثة العهد لم تكن قد لعبت في الميدان الدولي دوراً بارزاً بل كانت تعتبر حتى ذلك الوقت من اسول اللوية . تلك الدولة هي دولة الولايات المتحدة الأمريكية المتحجرة التي اصطدمت بدورها كما اصطدم غيرها بالبحرية اللوية والتي حل دورها تقوم عملية بحرس القط ' Bellng The Cat ' بعد أن أخذ الخوف والهلع يفتية الفيران مأخذه . وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد عانت الكثير من سطوة رجال البحرية المغربية وصرحت في كثير من الاحوال للشروط التي فرضها على سفنهاحكام الشمال الافريقي ومن بينهم أفراد الاسرة القره مالمية في لم تفهم ذلك بأسا منها بل كانت تبار الوقت واحرف اسامه حتى تشتت ساعدها . وقد كانت تدبهاها المرافقوى لطوبى لعهد مع بريطانيا حديثة العهد بالاستقلال ومثلكه وما يستمره . كان عليها أن تهتم أولاً وقبل كل شيء بوضع الامس الصحيحة لدستورها الذي منسبر بمقتضاه والذي توفر به حياة سعيدة لاساء ولايتها المتعددة . وكان عسب أن تعمل على حل مشكلها الاقتصادية التي سببتها لها حرب الاستقلال . وكان عليها أيضاً أن تهتم بأمر جيشها وبحريتها حتى تجرؤ على الوقوف مع غيرها في هذا المصهار إذا دعت لضرورة وما أكثر انضورات أمام كل دولة تمر في مثل هذا الدور ! !

ولكن الولايات المتحدة الأمريكية وهذه حالة استطاعت بفضل عزيمة أسائها وحكمة رؤسائها الميرين لدقة أمورها أن تتخطو خطوات سريعة موفقه في تقوية نفسها وقد عرف الرئيس جفرسن أساء ولايته لرئاسة الجمهورية للمرة الثانية كيف يستعمل الظروف لمصلحة وطنه فوقف

موقف الحياد من الصراع الهائل الذي قام بين بريطانيا العظمى وفرنسا في ذلك الوقت إبان حروب نابليون فكان في هذا الحياد احتفاظ بالقوة الناشئة لليوم الموعود .

وهكذا أيضاً قدر لدولة لوبيا وقد تدهور حالها في آخر العهد القره ما في أن تكون الخصم لدولة الولايات المتحدة المتحفرة وهكذا كانت المقابلة بين دولة قد شاخت ولعب الصمم بأسسها ودولة فتية متحفزة لأبائها طموح ورغبة في المجد بعد أن عانوا الكثير من الدل والهوان بحكم تعيينهم للغير . ويشاء الطالع الحس للحرية الأمريكية الناشئة أن تجرب حظها مع حرية لوبيا الآخذة في التدهور فكان ذلك خير حافز لها على تقوية نفسها إذ كانت الهزيمة لها هنا تجربة جديدة والنصر الذي تحرره خير مدعم لقوتها . ولو قدر للبحرية الأمريكية في أول نشأتها أن تصطدم بالقوة البحرية العربية إبان عنفوانها قل أن يتدهور حالها في آخر عهد يوسف باشا لكان حالها غير هذا الحال ولتغير مجرى تاريخها ولكن هذا ما حدث وكان .

دعمت الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من مليون دولار اساق^{١٠٦} إلى جانب ما كانت تقدمه من هدايا في مختلف المساسات ومن سنوات كبيرة معينة في سبيل حماية سفنها من تصدى البحرية المغربية وكان الشعب الأمريكي يفضض لهذا الدعم ويطالب الكونجرس Congress بضرورة الإسراع في بناء الأسطول البحري اللارم حتى يمكن للدولة الناشئة أن تحافظ على كرامتها أمام الأعداء وكانت أحار هذه المطالبة تصل بدون شك إلى حكام الشمال الأفريقي فبرغمون لها ويتخوفون منها بعد أن استمر أو السفن الأمريكية تهانمها ورأى يوسف باشا أن يستعجل الفرصة قبل فواتها بظهور البحرية الأمريكية

بعد تقويتها وشجعته على هذا ما كان يعاياه من أزمة مالية وطالب باتاوة سنوية من الولايات المتحدة الأمريكية كما كانت تدفع له إنجلترا وفرنسا واسبانيا^(١) . وبادى يوسف باشا القنصل الأمريكى وتحدث معه بخصوص ضرورة تقديم سنوية أمريكية كسنة الدول التى يهب حمايتها مصالحها البحرية وكما تفعل دولته مع تونس والجزائر وقد أبلغ القنصل الأمريكى نأ مقابلة مع الباشا لدولته وذكر لها التفاصيل وكان فى رد يوسف باشا على الرسالة التى تلقاها من رئيس الجمهورية الأمريكية هذا الخصوص ما يبين له الخطوط العامة لسياسة البحرية التى اتوى لير غايتها مع السفن الأمريكية إذا لم يجب إلى طلبه . وجاء فى رسالته ما نأى ديكما أن نأل أن تعير تك هذه يجب أن تسع الأعمال لا الكلام الأجوف وهذا يجب أن نأدوا لاقناعنا ببقية حسنة للتفكير . . . أما إذا كان الأمر مجرد كلام يعنى التلق دون التحقق فكأن ما سيعمل حسب ما يقتضيه^(٢) ، وكان خطاب رئيس الجمهورية الأمريكية ليوسف باشا قد حوى الكثير من كلمات الود والتقرب .

ويسد أن يوسف باشا كان عند كلمته التى قالها فى خطابه لشبيهه بالامبار الموجه إلى رئيس الجمهورية الأمريكية انصر على ما أعيد اخبر على الولايات المتحدة الأمريكية يوم ١٤ مير سنة ١٨٠١^(٣) بعد أن فشلت وسائل التفاوض بخصوص المبلغ الذى يجب دفعه إذ أصر يوسف باشا على ضرورة دفع مبلغ ٤٠٠.٠٠٠ قرش فى اوقت الذى أصر فيه الامر بكون استمدادهم لدفع مبلغ ١٢٠.٠٠٠ قرش لا غير^(٤) . وأمر ليعتصل الاسرى فى طرابلس علم بلاده

1 Lane Poole The Barbary Corsairs, P. 275.

2 " " " " " " P. 275

3 " " " " " " P. 276.

4 The Sunday Chbli, Sunday August 20 1918, No. 95.
Printed and published by the Government Press, British
Military Administration, Tripolitania".

في الوقت الذي كان الشعب الأمريكي يشاهد في عاصمة بلاده مطالبا باتخاذ
الاجراءات الاخريه الحاسمة دون دفع أى دسب ، كخريفة مفروضة وكانت
هناك عبارة واحدة تجري على الشفاة سمع في ذلك الوقت وهي ، الاف الاف
مدافع ولا ست واحدا للخرية *Millions for defence, but not one cent for*
tribute^{١٥٦}

عدد ذلك لم تحم الولايات المتحدة الامريكية أمام هذا الخطر الذي يهددها
وأمام تيار الشعوب اجاروا لانها ، إلا أن تتخذ خطوة عملية لاقااف مش عدا
التهديد وكان عليها أن تستعد لذلك لعمل الانجوى بتقوية أسطولها البحري
وفي نفس الوقت لحأت إلى المفاوضات بطريقة أخرى كسما ، وقت حتى تتبأفرصة
للعمل الايمانى فسمت إلى فتح باب المفاوضات مع الثالث في سبيل الوصول إلى
التفصيل من الملح الذى أصر عليه في مقابل ارضائه وقد قدمه هذه المهمة وللم
ايتون William Eaton الذى تم تعيينه كقنصل للولايات المتحدة الامريكية
بى بلاط اى تونس واعايت له التلميم ، الامام فى هذا الخصوص للاتصال
بتفصيل لومبا فى تونس وحل وصوله وانفاهم معه على الطريقة أمثلى للقضاء على
سوء لتفاهم الدش ، بن السنين وما يترتب عليه من نتائج خطيرة .

وكان ولم ايتون *William Eaton* هذا قد بدأ حياته العملية كمدرس ثم
التحق بحيش وترقى فيه إلى أن وصل إلى رتبة ليونانى *Captain* واشترك
فى بحرية الهنود اسمر فى جورجيا *Georgia* وفى أوهايو *Ohio* ثم سرعان ما
غير بحرى تدرج حياته عندها ما بلغ كاشة والثلاثين من عمره اترك حياة الجندية
وهام بحياة السفر والشحوال وكانت بلاد المغرب فى ذلك الوقت قد احتلت
المكانة الأولى من تفكيره لانشال الرأى العام بأخبارها وتفاصيل التقدير التى

كانت تأتى بخصوص الهجوم المستمر على السفن الأمريكية من طرف القراصنة الممارنة وكان القلق بمثابة لما يسمع وتدفعه غريزه حب الاستطلاع الى معرفته مدى الصحة فى القصص التى يسمعها حول الاسرى من البحارة المسيحيين وطريقة معاملتهم ولذلك التحق بالبحرية الأمريكية وجرب حظه من جديد وأبحر الى الشمال الأفريقى على ظهر سفينة حربية . وكثيرا ما كان يعطى الوقت على ظهر السفينة متطلعا الى الأفق والمطار المكبر فى يديه باحثا عن أى سفينة معربية ربما تحاول الهجوم على سفينه ولكن دون جدوى لأن القراصنة الممارنة فى ذلك الوقت كانوا يعرفون كيف يصطادون فريستهم ويتجنبون خطر مثل هذه السفينة الحربية وغيرها . ولهذا واحلت السفينة الحربية سيرها على خطها المرسوم والعلم الأمريكى ذو الهجوم والأشرطة يرفرف عليها وهم تحاذى الساحل الأفريقى حتى مباء تونس وهناك انتاته الدهشة لما رأى من عالم جديد يختلف عما تعودته حياة الدرس والتدريس من جديد فاصرف بعض الوقت الى دراسة اطلال قرطاجة وتطبيق مآراه على ما كان قد تعلمه فى دروسه التاريخية . وفى تونس تشرف ولیم ایتون William Eaton بمقابلة الباشا ، وشمر نصيق له وجده من معاملة خاصة اثناء اقيام هذه الزيارة مما أثار فى نفسه عوازل الحقد والكراهية للعارة اذ أنه فسر هذه المعاملة بأنها موجهة فى حدها الى جمهوريته الناشئة التى أقي لتخليها . وفى تونس ايضا التحق به قنصل الولايات المتحدة الأمريكية فى مدينة الجزائر بأمر من حكومته بقصد التوجه سويا إلى يوسف باشا بطرابلس لمحاولة التوفيق معه من جديد بخصوص العلاقات بين البلدين ولكن كل ذلك دون جدوى لأن يوسف باشا أصر على حتمه فى طلب أى شرط يراه فى مقابل حماية السفن الأمريكية من الاعتداء عليها من بحريته وانتهت المفاوضات بالفشل وعاد كل من القنصلين الى مكان عمله ولكن ولیم ایتون كان اثنا اقامته القصيرة بطرابلس قد استطاع

عن طريق أحد الأشخاص الاتصال بشخص كان له دور كبير فيما حدث من تطورات في العلاقات اللوية الأمريكية. ذلك الشخص هو سيدى أحمد بك، شقيق يوسف باشا والوزير الشرعي لعرش ولاية لوبيا بحكم سنه واستنصاع وليم ايتون بعد أن عرف قصة اغصاب العرش منه أن يحرك ما في نفسه من شجون بهذا الخصوص وأن يحميه بالعودة إلى عرشه إذا سمحت الظروف المناسبة للقيام بعمل حاسم ضد يوسف باشا.

وعندما عاد وليم ايتون إلى تونس بدأ يتعلم اللغة العربية حتى إذا أتت الفرصة وجد نفسه على أتم استعداد وكانت العلاقات مع السليمان قد ازدادت سوءاً وواصلت البحرية لوبية هجومها على السفن الأمريكية دون توقف وعبثاً حاول الأمريكيون تهديد الباشا بصرح مدينته إذا لم يحرك سياكها متمسكاً على قوة حصونه واستعداد قلاع المدينه لكن هذه الطوارىء كان يعتقد أن التهديدات الأمريكية ما هي إلا مجرد كلمات خوفاء لادسبى من كثير ما تعود منها في السابق عند سرات الولايات المتحدة الأمريكية أن تحطو خطوة عممية بعد أن استعدت لذلك فأعدت ثلث حملات حرية كان أولها بقيادة دالى Dale وأكمل مسيرته لم يتم لأن إعلان الحرب الهجرية لم يكن من صلاحية رئيس الجمهورية من اختصاص "الكونغرس" حسب ما نص عليه الدستور الأمريكي أما حملته الثانية فقد حاربها الخط وهي في الطريق بعد إرادتها دون أن يحققوا لعرص من إرسائها وفي سنة ١٨٠٣ م وصلت حملته الناشئة إلى جن طرفي تحت قيادة كومودور إدوارد برنس Commodore Edward Preble وكان هدفها ميناء طرابلس بانداب وفي تصريح أراد قائد الحملة أن يحتبر قوته قبل اللقاء المقل فكان لهذه الحملة شأن أن مع سلطان مراکش إد استطاع أن يهدده ويحبره على تحديد الاتفاقية التي أمر بها أبوه من قبله مسنة ١٧٨٦ واتخذ معه موقفاً إيجابياً الأمر الذي دفع السلطان إلى التصريح بأن

و صداقته لأمريكا مستطيل دائمة الى الابد . . وما وصل برتل Preble الى هذه النتيجة إلا بفضل ما معه من قوة استطاع بعدها أن يطمش إلى نتيجة أعماله المثقلة وأن يخفف من هول ما هو مقبل عليه من عمل جدى لا يعلم مداه . ولم يحاطر برتل Preble بكل قوته البحرية بالهجوم على ميناء طرابلس بل اقتصر على إرسال وحدتين من سفنه وهما السفينة USS Philadelphia والسفينة فكس Vixen وكات الأولى مسلحة بست وثلاثين مدفعاً يتولى قيادتها وليم بيردج William Barnbridge وهو بحار جرى التحقق سلات البحرية منذ حداثة سنه عندما كان فى الرابعة عشر من عمره . وبعد ما بطمت الولايات المتحدة الناشئة بحريتها سنة ١٧٩٨ رقى إلى رتبة كابتن وكان عليه أن يقوم بمهمة الهجوم على ميناء طرابلس ولكن هذه المهمة ليست بالسهلة على ميلادلفيا ، خصوصاً وأن مدافعها كانت من النوع الخفيف ومدى مرماها كان محدوداً . ولئلا تنك المدافع المنصوبة على اقتلاع السفينة حلبة والاسوار الحائطية للقلعة لكثرة وكان جهر قائدها بعمق مياه الميناء إلى جانب ما يوجد فيها من صخور قد زاد فى صعوبة مهمتها وأبى الرياح إلا أن تشترك فى خلق المضاعف أمام بيردج Barnbridge وسفينته اذهت بعض الرياح الشديدة التى دفعت السفينة الى الشرق من ميناء طرابلس وتقابل قائدها أثناء محاولة الرجوع الى ميناء طرابلس مع فرب خفيف من البحرية اللوية فانصرف الى مطاردته وانهاء هذه المصادرة استطاع اقارب أن يلجأ الى المناء وساعده على ذلك معرفة قائده للدمراب لمسية التى يمكن أن يسلكها فى طريقه الى الداخل وكان فى فرار هذا القارب ما أطمع بيردج Barnbridge فى مواصلة مطاردته ومحاولة اللحاق به دون عمل أى حساب لحالة الميناء وما فيه من صخور وأما كل صحة لا يتناسب عمقها مع حجم سفينة وهكذا وجد القبط نفسه فى موقف لا يحسد عليه عندما جنحت سفينة وتوقفت عن العمل بسبب الاستمرار فى مطاردة هذا القارب اسدى نجاحاً

بمهاره ريسه . وعيشاً حاول بينبردج Bambridge بمساعدة بحارته زحزحة
فيلاذلفيا ، من مكانها في الوقت الذي بدأت فيه قوارب اللويين تتكاثر
عليها وتهاجمها وفي الوقت الذي كانت فيه مدافعها تبادل الطلقات مع مدافع
القلعة دون جدوى لقصر مدى مرماها . وحر بعض بحارها صرعى على ظهرها
وأحياً اضطر القائد إلى التسليم بعد التشاور مع بقية زملائه وبعد اغراق
المخازن بالمياه وخرق قاع السفينة .

وهكذا كان مصير هذه المحاولة الامريكية الأولى من نوعها مع البحرية
اللوية أيام آبائنا . عندما كان العرب شعباً قوياً (١) كما قال المرواشي
El-Quachy ذلك الرجل المسن الزائر الامريكي المستر قشارلز ولجنتون فورلنغ
Charles Wellington Furlong عند زيارته لمدينة طرابلس سنة ١٩٠٤
لمحاولة تحديد موقع حطام هذه السفينة السيئة الطالع بالاستمارة بمجموعات
هذا الشيخ من أهالي المدينة .

كان لهذا الفشل الذي منيت به البحرية الامريكية اثره الفعال في ريبة
الروح المعنوية لحكومة لوييا وشعبها بعد أن كاد البأس يتطرق الى مقدرة
بحرية البلاد ولأول مرة في تاريخ البلاد تقع سفينة حربية امريكية في الأسر
وهي التي جاءت لتخويف من اسرها وأطهار ما لحكومتها من سطوة بعد أن
تأست عن دفع ما طلب منها من اذوة وقد افتخر يوسف بأشابهة الحادث وما
ترتب عليه من نتائج واعتبره انتصاراً له ضد اعدائه وفكر في استغلال هذه
السفينة فعمل على تعويمها . ويقول لنا الاستاذ لين بول في كتابه السابق الذ كر
أنه في ظرف اسبوع واحد تم للبحارة اللويين تحقيق هذا العمل وقد ساعدتهم
الرياح كما استعانوا بالجزر السحي التي عادى في ذلك الوقت وعملوا على إصلاح
ما بها من خرق وتم سحبها الى الميناء وقدر لقائدها بينبردج Banbridge وهو

اسير القلعة المظلة على البحر أن يرى سفنته وقد رست في المكان الذي كان يجب عليه أن يرسيا فيه . وبدأت افواح الشعب من عرب الدواخل والقرى المجاورة تغد على الميناء لمشاهدة مصير هذه السفينة التي حاولت المس من كرامة بحريتهم بالاعتداء على مينائهم وقلعها وكانوا كثيراً ما يستأجرون القوارب الصغيرة لعمل جولات بحرية استطلاعية حولها وقد رفع عليها علم السلاسل الاسلامية والنجمة والخلال بعد أن كان يرغرف عليها علم الامريكى واستخدمت الحكومة ما تنق من مدافعها على طهرها في اطلاق النار اعلالاً بقدم شهر رمضان ونهايته وبداية ايام عيد الفطر وقد تصادف ان كان اسرها في ذلك الوقت . والخلاصة أن أسر هذه السفينة ترك أثراً قوياً في نفوس الشعب عامة والحكومة خاصة بدرجة لا يمكن تبينها ويكنى أن يعرف أن يوسف باشا كان يسخر من وزيره الحاج محمد بيت المال ويشدد في سخريته كلها نبيه إلى ضرورة محاولة الامريكين انقاذ هذه السفينة والاستعداد لمواجهة مثل هذه المحاولة أو غيرها .

وكان لهذا الحادث أيضا صدهاء في بقية الشعوب الأوروبية وإن كانت في ذلك الوقت في شغل شاغل عه بحروب ناليون واطارها إلا أنها رأت فيه انذاراً قوياً لكل الحكومات المسيحية التي ترفض الخضوع لطلبات حكام الشمال الافريقى بصعة عامة ويوسف باشا بصفة خاصة . وكان أيضا لهذا الحادث أثره الفعال في كل بلاد المغرب اذ قابله الاهالى بفرح واستبشروا به وتناقلوه على اللسان مما شجعهم وبعث فيهم الامل قوياً بعدما شاهدوه من عمل القائد الامريكى بريل Preble مع سلطان مراكش قبل هذا الحادث مباشرة كما سبق بياؤه .

أما واشطنطون العاصمة الامريكى وشعبها الناشئ . فقد تلقت خبر هذه السفينة بحزن شديد واكتسختهم موجة من الغضب وطالب الشعب بعمل

حازم لرد هذا العار الذي لحقهم وكان هذا الشعور أقوى ما يكون لدى رجال البحرية الأمريكية أنفسهم . أما القائد العام بربل Preble الذي وكل إليه أمر هذه الحملة وتنظيمها والذي كلف يسير دج للقيام بالهجوم على ميناء طرابلس فقد وصل إليه خبر هذا الحادث وهو في طريقه إلى طرابلس من بأرجسة بريطانيا تقابل معها عند صقلية وكان حادث السفينة فيلادلفيا ، بالنسبة له ضربة قوية فهو إلى جانب ما رأى فيه من عار للبحرية الأمريكية التي يتولى أمر قيادتها في هذه المهمة قد سب له خسارة كبيرة يصعب عليه تعويضها إذ كانت هذه السفينة تمثل أكثر من ثلث قوته المحاربة كما أن كثرة عدد بحارتها المأسورين إلى جانب قائدها قد أعطى يوسف باشا فرصة ذهبية يستطيع بها المساومة في المفاوضات المقبلة واملأه الشروط التي يرغبها .

فكر بربل Preble فيما حل به من هزيمة بحرية وصمم على القيام بعمل حازم يرد إليه على الأقل كرامة بحريته المخدوشة ورأى أن يكون ذلك بتحطيم السفينة المأسورة بعد أن رأى من الصعب عليه استعادتها حتى لا تستفيد منها البحرية اللوية فيما بعد ووقع اختياره على الصابط الشاب ستيفن ديكاتور Lieutenant Stephen Decatur الذي كان يقوم بقيادة السفينة Intrepid للقيام بهذه المهمة على أن تقوم السفينة سيرن Siren بقيادة اللفتنانت تشارلز ستورت Lieutenant Charles Stewart بحراسة هذه السفينة أثناء القيام بهذه العملية وتغطية انسحابها ومساعدتها إذا تكاثرت عليها قوارب العدو . واستعد ستيفن ديكاتور لتفديد ما كلف به خير استعداد باختيار الرجال الشجعان والمواد الضرورية لمثل هذا العمل . واهجرت السفينة Intrepid من سيراكوزة في اليوم الثالث من شهر فبراير سنة ١٨٠٤ في طريقها إلى طرابلس وكان لهذه السفينة نفسها تاريخ وعلاقة قديمة بالبحرية اللوية فهيكلها الاصل كان لسفينة حربية فرنسية أسرها الانجليز في ساحل مصر إبان غزو بابليون لها وقدمتها البحرية الانجليزية هدية إلى بحرية يوسف باشا ثم استطاع هذا الضابط الأمريكي ديكاتور Decatur أن

أسرها وهي في طريقها الى القسطنطينية محملة بهدية من الجوارى للوزير الأكبر وهكذا آلت ملكيتها للبحرية الامريكية وأن تقوم بهذه المهمة .

وشاءت الظروف أن تهب ربيع قوية دفعت بالسفينة الى الشرق من ميناء طرابلس هذه المرة كذلك حتى اوصلتها الى خليج سرت . ولكن قائدها استطاع أن يتغلب على هذه العاصفة وأن يعود إلى ميناء طرابلس حيث ظهرت له المدينة في اليوم السادس عشر من شهر فبراير سنة ١٨٠٤ واستطاع ديكاتور بالطريقة التي وضعها أن يحقن حقيقة السفينة سيرن Siren باحفاء بحارتها واظهار القليل منهم على ظهرها حتى لا تثير كثرتهم شكوك رجال البحرية اللوية وأمن في هذه التغطية بالباس الحارة ملابس الماطلين حتى ظهرت السفينة كأنها سفينة مالطية تجارية تتحاهد لدخول الميناء . وعندما اقبل الليل قام الضابط الامريكى ديكاتور Decatur بمعاونة بعض رجاله بهجوم خاطف على السفينة ، فيلادلفيا ، الراسية في الميناء واشعلوا النيران فيها ونجحوا في الانسحاب سالين بعد اتمام مهمتهم هذه وعندما تباه الحراس من البحرية اللوية على صوت الانفجارات وأضواء اللهب حاولوا عبثاً اللحاق بالاعداء لما أصابهم من ذعر ولأخذهم على غرة وقد ساعد على احتراق فيلادلفيا ، ما استعمل في احراقها من مواد ملتهبة وما كان قد تبقى في مخازنها من بارود وقد ظلت تحترق لمدة ثلاثة ايام تحولت خلالها سماء المدينة إلى لون نحاسي من شدة اللهب واستمرار اندفاعها حتى أن الكثير من سكان الجهات الداخلية استطاعوا رؤية هذه النيران على مسافة بعيدة بلغت جبل غريان وجبال قرهونه .

أما لماذا لم يحاول الامريكىون انقاذ سفيتهم بدل حرقها بهذا الشكل فهذا مثار سؤال واستفهام ونقطة تصلح للمناقشة والتحليل لرجال الحرب غير أن الذى يمكننا أن نقوله أن الأوامر الصادرة للضابط البحرى الذى قام بهذه المهمة كان تنفيذها بهذا الشكل . ويبدو أن القائد الأعلى بريبل Preble الذى

اختار ديكاتور Decatur للقيام بهذه المهمة قد تأكد لديه صعوبة استعادة هذه السفينة من العدو وهي راسية في ميساته وتحت حماية بطارياته الحربية. وإذا كان الأمر كذلك فلا أقل عليه من حرقها حتى لا يستفيد منها العدو وحتى لا يكون قاذواً عاماً للبحرية الأمريكية بتبين لنا ذلك من موجة الفرع والسرور التي شملت الرجال الذين قاموا بهذه المهمة وبمجاحم فيها والتي عمت كذلك بلاد الولايات المتحدة الأمريكية حتى أن الكونجرس Congress لم يتوان في اظهار رضائه عن هذا العمل فمح ديكاتور Decatur سيف الشرف ورفاه الى رتبة كابتن .

أما في بقية الدول الأوروبية فكان لحادث حرق السفينة ، فيلادلفيا ، بعد أسرها رد فعل قوى نظر إليه الجميع على أنه مطهر من مظالم التحدى الذى يمكن أن تقع عليه الدول في المستقبل . وإذا كان نيلسون Nelson القائد البحرى الانجليزى المعروف صاحب موقعة أبى قير البحرية فى مصر وموقعة الطرف الأغر وهو الخبير بمثل هذه الأعمال وأهميتها قد قال عنه ، أنه اشجع وأجراً عمل فى العصر (١) ، فان هذا القول على كل حال يعطينا من جهة أخرى المدى الذى كان ينظر به الأوروبيون نحو بحرية لوييا فى ذلك الوقت الى حد كبير .

وعلى العموم كان فى هذه الخطة التى وضع اساسها القائد بربل Preble والتي نجح فى تنفيذها ضابطه الشاب ديكاتور Decatur بصحبة رجاله ما عكروا على اللويين فرحهم بأسر هذه السفينة الحربية الأمريكية وجعلهم يفكرون جيداً فى هذا التحدى الطاهر ويحسبون للمستقبل حسابه وسرعان ما تحقق ظنهم إذ دفع هذا النجاح الذى احرزه الأمريكيون القائد الأمريكى Preble الى المعجى الى ميناء طرابلس فى الخامس والعشرين من شهر يوليو سنة ١٨٠٤ فى حملة بحرية قوية قوامها خمس عشرة قطعة وقام بخمس هجمات متتالية على المدينة

بشكل عنيف ولكن المدينة استطاعت أن تقاوم هذا الهجوم بقلاعها وحصونها وعزيمة رجالها رغم ما أصابها من ضرر بليغ .

عند ذلك لم يجد الطرفان بداً من عقد الهدنة وعاد كل منهما يستعد من جديد لللاقة مرة أخرى . وأعطى القائد ريل Preble من وظيفته لما لحقه من تعب مرهق وكافاته حكومته على أعماله البحرية المجيدة ضد البحرية اللويبة بتقديم المدالية الذهبية إليه كما أن مجلس الكونغرس Congress قد عبر له عن شكره له ولرجال الشجعان الذين تعاونوا معه لما قاموا به أعمال مجيدة .

وفي سنة ١٨٠٥ تجدد الهجوم الأمريكى مرة أخرى على لوييا ولكنه في هذه المرة اتخذ شكل الهجوم البحرى والغزو البرى . أما الغزو البرى فكان ممثلاً في تلك الحملة البرية التى نظمها وقادها الكابتن ولیم ايتون William Eaton الذى سبق ذكره كقنصل للولايات المتحدة الامريكية فى تونس وذكر ما قام به من دور فى هذا الراع قبل استفحاله وكيف فشل فى تسويته وقد استطاع الاتصال هذه المرة كذلك ، بسيدى احمد بك ، شقيق يوسف باشا فى الاسكندرية واستغل ما كان يضره من عداوة لآخيه بسبب اغتصاب العرش منه وأعد بالاشتراك معه حملة برية هجومية على الحدود الشرقية للوييا ورغم ما عاناه ايتون من مصاعب فى اعداد حمله هذه وتسييرها فإنه استطاع بالتعاون مع البحرية الامريكية أن يكون فى التاريخ المحدد عند مدينة درنة . وهكذا تعرضت هذه المدينة لهجومين فى وقت واحد وقد قام أهلها بدفاع مجيد ضد هذا الاعتداء وزادهم فى هذا ما شعروا به من استياء من سيدى احمد بك ، لاستماتته بالكفار ، صد أخيه إلا أن هذا الدفاع لم يكن مطعماً ولم يكن على مقدرة لصرفه فى اتجاهين مختلفين فاكتمحت النفس الحريية بقيادة Lieutenant O'Bannon of the Marines فقط دعاهم بعد أن توقف الجيش البرى عن العمل لنقص فى امتداداته وذخيرته الحربية المطلوبة ولهذا لم



يكن انتصار الأمريكيين حاسماً فتنبأ الجولفتح المفاوضات بين الطرفين في ٤
يوسو سنة ١٨٠٥ خصوصاً وأن قوات الباشا قد أخذت في الوصول الى منطقة
درة لنجدة أهلها . وتم امضاء المعاهدة بين الطرفين وقد نصت فيما نصت عليه
من شروط اعفاء دولة الولايات المتحدة الأمريكية من دفع أى سنوية في المستقبل
مع عدم التعرض لسفنها البحرية وتم اطلاق سراح ينبردج وزملائه البحارة
الذين أسروا مع سفيتهم فيلادلفيا في مقابل دفع مبلغ ستين ألف دولار للباشا.

هكذا قدر للولايات المتحدة الأمريكية أن تنجح فيما فشل فيه غيرها
على مر السنين وكان لنجاحها هذا أثر كبير في تطور بحريتها الناشئة
فيما بعد حتى أصبح لها شأن آخر ولا تعالى إذا قل أن هذا النجاح هو
الحجر الأساسى الذى بنت عليه البحرية الأمريكية سمعتها والذى سار بها
إلى الأمام وما زال هناك بين الأناشيد التى يتغنى بها رجال البحرية
الأمريكية نشيد خاص يتناول أعمال بحريتهم هذه ويمجدها ويفخر بها
وما زال الأسطول البحرى للولايات المتحدة الأمريكية بصم مدمرتين
باسم ينبردج Bainbridge وباسم ديكانور Decatur تخليداً لذكرى هذين
الضابطين وأعمالهما ضد البحرية انورية وما زال كذلك من ضمن الأعياد
المرعية عند شعب الولايات المتحدة اليوم الموافق لثلاثين من شهر مايو
وهو العيد المعروف بعيد التزيين Decoration day لتربين قبور رجال خدمتهم
بالزهور ومنذ ثلاثة أعوام فقط وافق مجلس الكونجرس Congress الأمريكى
على تخصيص ذلك اليوم التذكارى كيوم للصلاة العامة من أجل دوام السلام
العالم فى كافة أنحاء العالم . ويعتبر الأمريكيون هذا اليوم من العطلات الرسمية
التي تعطّل فيها الأعمال فى الولايات المتحدة الأمريكية . وفى الصورة المقابلة
يرى المستر فيلارد Mr Villard الوزير المفوض للولايات المتحدة الأمريكية
فى لوبيا وهو يضع أكليلا من الزهور على قبور البحارة المحسة الذين فقدوا

في الحرب بين بلاده ولوبيا وقد اهتمت القنصلية الأمريكية بمدينة طرابلس إلى كشف قبورهم في عام سنة ١٩٤٩ . كما أن وحدات من الأسطول الأمريكي السادس وصلت في اليوم الثاني من شهر يوليو سنة ١٩٥٠ ، إلى ميناء مدينة درنة حيث أقام البحارة الأمريكيون في يوم الاثنين الموافق ٤ يوليو وهو يوم ذكرى عيد استقلال الولايات المتحدة الأمريكية لوحة تذكارية عند القلعة الكائنة داخل سور المدينة من الساحة الجنوبية والتي تعرف الآن باسم الحصار ، أو كما يسميها البعض ، بالقلعة الأمريكية . إحياء لذكرى جنود أمريكا الذين وقعوا عند هذه القلعة .

وخلاصة القول أنه إلى جانب النتائج الأدبية التي تحصلت عليها الولايات المتحدة الأمريكية من انتصارها على الحرية اللوبية فإن نزاعها مع لوبيا كان أقوى عامل في تمكين بحريتها فيما بعد .

أما لماذا لم تحاول الولايات المتحدة الأمريكية احتلال لوبيا في ذلك الوقت وهي المنتصرة هذا أيضاً محل سؤال واستفهام وإن كان هناك ما يبدو أن الأمريكيين قد خطرت ببالهم هذه الفكرة واستعرضوها من كل الوجوه بدليل ما أقاموه من حصون حول مدينة درنة متمثلة في تلك القلعة التي شيدوها على تل فيها وراء المدينة للدفاع إذا حاول اللوبيون استردادها وقد ذكر الرحالة بتشي Beechy (١) عندما زار البلاد في عهد يوسف باشا أنه قد وجدها مجرد أكوام من الاطلال قد أقيمت مدافعها على الأرض وقد تكون الأعمال الحربية الأمريكية في أساسها لم تبين على هذا العرض وأنها كانت مجرد حملة تآديبية ولذا فضلت عدم التماذي في مثل هذا العمل العدواني حتى لا تتورط في الاصطدام مع قوات يوسف باشا وقد كانت حتى ذلك الوقت لم

1 Beechy F. W , Beechy H. W :- Proceedings of the expedition to explore the Northern Coast of Africa, P 473. «London, 1828».

تؤكد من ضعفها العام وسهولة القضاء عليها دون بذل مجهود كبير وقد يكون ذلك أيضاً كما ذكره الرحالة بلاكييري Blaquière الذي زار البلاد عقب هذه الحوادث بمدة ليست بالطويلة وهو أن الولايات المتحدة وإن كانت قد فكرت في الاستيلاء على البلاد إلا أنها خشيت التدخل الإنجليزي والفرنسي ففصلت الانسحاب على الاصطدام معهما في ميدان التوسع الاستعماري الذي ساد القرن التاسع عشر . وعلى كل فقول المستر بلاكييري Blaquière لا يحلو من الحلقه على الأمريكيين كما يظهر لما ذكر في مناسبات متعددة في رسائله التي بعث بها من طرابلس إلى لندن أثناء زيارته للبلاد ويبدو أن الكراهية بين هذين الشعبين لم تكن قد اندثرت معالمها حتى ذلك الوقت وإلا لما لجأ المستر بلاكييري إلى الكثير من تعابير التعريض بالأمريكيين كذا وأنه مناسه في رسالة من رسائله السابقة الذكر .

وعلى العموم بقدر ما أصابت الولايات المتحدة الأمريكية من نجاح ومستقل بحري عظيم أصيبت لوييا في صميم كيائها بأزال هذه الصدمة القوية بهيبتها البحرية الأمر الذي أطمع فيها الغير وكشف ضعفها للبيان ولا سالخ إذا قلنا أن هذا الانتصار البحري الذي أحرزته الأمريكيون على البحرية اللوية كان أقوى عامل في إضعاف الدولة اللوية وبالتالي القضاء على حكم الأسرة القره مانلية بعزل آخر ولاتها لما حل بالبلاد من فوضى وتدهور مالي عام . بل أن هذا الانتصار البحري الذي أحرزته الأمريكيون قد تعدى أثره لوييا إلى البلاد الإسلامية المجاورة ولم يقتصر على لوييا وحدها وسجل بداية ضعف البحرية المغربية أمام الأععداء وقد عرفت الولايات المتحدة الأمريكية كيف تستغل نتيجة هذا الانتصار ورد فعله في بلاد المغرب فأرسلت حملة بحرية في سنة ١٨١٥ إلى مدينة الجزائر حاملة المستر ولیم شلر William Shaler كقنصل لها هناك للمفاوضة مع حكومة الجزائر وبإساعده

كل من الكابتن بينبريدج Bainbridge والكابتن ستيفن ديكاتور Stephen Decatur واستطاعت هذه الوسيلة التهديدية وما كان في نفوس أهل الجزائر من رد فعل سيء لما حدث مع يوسف باشا أن تبرم معاهدة مع حكومة الجزائر في ٣٠ يونيو سنة ١٨١٥ تم بمقتضاها العام ما تدفعه الولايات المتحدة الأمريكية من سنويات للجزائر مع استعادة كل الأثرى الأمريكيتين وهكذا لم يقتصر ما حل بالبحرية الثورية على البلاد وحدها بل تعداها إلى ما يجاورها من البلاد الإسلامية الأخرى .

...

...

...

وقد خجلت بريطانيا لهذا النجاح الباهر الذي حصلت عليه الولايات المتحدة الأمريكية وهي الناشئة الجديدة في الميدان البحري والتي لا تقاس قوتها البحرية بشيء بجانب ما لبريطانيا في هذا الميدان فتشجعت لتجريب حظها من جديد وقد انتهت الفرصة فأرسلت اللورد اكسموث Lord Exmouth (سابقاً السير ادوارد بيلو Sir Edward Pellew) بقوة بحرية كبيرة للحصول على ما هارت به الولايات المتحدة الأمريكية . وكانت وجهته تونس ومدينة طرابلس واستطاع أن ينجح إلى حد كبير في تحقيق غيته وتحصل من يوسف باشا على تعهد بالالغاء التام لاستعباد المسيحيين بل ذهب إلى أبعد من هذا وأصبح بما له من قوة تهديدية يتدخل في علاقات يوسف باشا مع بقية دول البحر الأبيض المتوسط في مثل هذا الخصوص . وفي المعاهدة (١) المبرمة بين يوسف باشا وملكة سردينيا في ٢٩ أبريل سنة ١٨١٦

١ — توجد نسخة مطبوعة في تونس ، إيطاليا سنة ١٨١٦ ومكتوبة بالألمانية ثلاث الإصالية والانجليزية والفرنسية إلى جانب للمعاهدة التي أبرمت مع كل من تونس والجزائر . وكانت هذه النسخة ملكاً للميد على القرمانيل وقد تكرم باعتدائها إلى دار المخطوطات عتبة طرابلس وقد أطلق عليها .

ما يثبت لنا جلياً هذا التدخل حيث نراه قد قام بدور الوسيط بين الطرفين بل كان هو الممثل الشرعى لحكومة سردينيا فى هذه المعاهدة والموقع عليها بالاشتراك مع المستر هانمر وارنجتون Hanmer Warrington القنصل العام لبريطانيا فى طرابلس بالنيابة عن ملك سردينيا الملك فيتوريو عمانوايل واستطاع الحصول لسردينيا على شروط ومعاملة خاصة شبيهة بتلك التى تحصل عليها ارباعا بريطانيا بل استطاع أن يلحق بهذه المعاهدة اعلاناً من طرف يوسف باشا يتضمن تعهداً بعدم استعباد الأسرى المسيحيين فى أى حرب مقبلة وتحتيم معاملتهم كأسرى حرب حتى يتم تبادلهم بالانفاق معه حسب ما يجرى عليه العرف لدى الدول الأوروبية وتم عودتهم إلى بلادهم دون دفع أى فدية.

وهكذا أيضاً تشجعت بقية الدول الأوروبية الأخرى وكانت حروب نابليون التى شغلت العالم قد انتهت فوجدت الفرصة الكافية للاهتمام بهذه الناحية لما لجنتها بحزم حتى إذا كان مؤتمر اكس لا شابيل سنة ١٨١٨ Aix La Chapelle اتفقت الدول الأوروبية على العمل سوياً بتعاضد تام فى سبيل مكافحة البحرية المغربية بما مهد فيما بعد لأن تغزو فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ لاحتلالها. وأمام هذا التعدى من جانب الأوروبيين على ما للسلطان العثمانى من سيادة أعادت الدولة العثمانية النظر فى حالة بقية بلاد المغرب واتهمزت فرصة ما آل إليه حال لوييا من سوء فى آخر عهد ولاية يوسف باشا فاستعادت البلاد من جديد لسلطانها سنة ١٨٢٥ وهكذا رال ما للبحرية اللوية من وجود بنهاية حكم الأسرة القره مانلية . وبالموقف الجديد الذى اتخذته الدول الأوروبية الاستعمارية فى القرن التاسع عشر تجاه ملاد الشمال الاقربقى .

يتضح مما تقدم أن لوييا تشغل بسواحلها نقطة هامة حساسة في حوض البحر الأبيض المتوسط وأن البحرية اللوية استطاعت بنشاطها أن تتحكم في الملاحة في حوض البحر الأبيض المتوسط كله واستطاعت أن تحتل مكانة بحرية عظيمة إلى أن فقدت تلك السيادة على أيدي الأمريكيين والدول الاستعمارية حلت تلك الدول محل اللويين في التمتع بهذه السيادة وقد فطت إيطاليا في الأعوام الأخيرة إلى أهمية الساحل اللوي واستولت عليه إلى أن انتهت سيادتها على أثر الحرب العالمية الثانية ويدرك الأمريكيون الآن هم والاعلن أهمية شواطئنا ويحاولون أن يتخذوا لأنفسهم بها قواعد بحرية تنفعهم إذا اصطدمت قوات الشرق والغرب ، وجدير بأهل البلاد ألا يحرموا أنفسهم من النشاط البحري وأن يعتنوا بالملاحة التجارية والبحرية على السواء بقدر ما تسمح لهم به إمكانياتهم والقليل مع المناورة كثير ، وللوييا غير هذا المجال البحري محيطات من الصحارى يجب عليها أن توفر لها الطرق المعبدة وأن تسير في هذا المصير إلى أحسن مما وصل إليه آباؤنا على ما نشرحه في الفصل الآتي .

المصادر

- ١ - ابن غلدون : تاريخ طرابلس العرب (طبعه القاهرة ١٣٤٩ هـ) .
- ٢ - اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (طبعة بولاق
بمصر سنة ١٣١٤ هـ ، ج ٢) .
- ٣ - النائب : المنهل العذب في تاريخ طرابلس العرب (استانبول
سنة ١٣١٧) .
- ٤ - حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث (القاهرة سنة ١٩٣٨) .
- ٥ - بعبو : المجلد في تاريخ ليبيا (الاسكندرية سنة ١٩٤٧ م) .
- James Fairgrieve . Geography and world Power — ٦
- S. Lane Poole . The Barbary Corsairs, Third Edition — ٧
- Charles Wellington Furlong ; The Gateway to the — ٨
Sahara, New-York 1909.
- Lieut - Colonel Gordon Casserly . Tripolitania, — ٩
London 1943.
- E. Blaquiére : Letters from the Mediterranean, — ١٠
vol. 11, London 1813.
- Richard Tully . Narrative of a ten years residence — ١١
at Tripoli in Africa, Second Edition, London 1817
- Michael Russell : History and Present Conditions of — ١٢
the Barbary States, Edinburgh, 1835.
- E W Bovill . Caravans of the Old Sahara, an — ١٣
introduction to the History of the Western
Sudan, London 1933.
- Sir Harry H. Johnston . A History of the Colonization — ١٤
of Africa, "Cambridge at the University Press 1913"
- F. W. Beechy, H. W. Beechy . Proceedings of expe- — ١٥
dition to explore the Northern Coast of Africa,
London 1828.
- L. Charles Feraud : Annales Tripolitaines "Publiées — ١٦
avec une introduction et des notes par
Augustin Bernard, Paris, 1927.
- R. Micacchi . La Tripolitania Sotto la Dominazione — ١٧
dei Caramanli, Rome 1936.

« تسعة أعشار الرزق في التجارة »

حديث شريف

.....

« التجارة نصف الامارة »

حديث شريف

لوييا وتجارة القوافل

أثر الصحراء في أهل لوييا - أوجه الشبه بين العبيتيين واللوميين - متى بدأ اللوييون نشاطهم البحري في الصحراء - تجارة القوافل في العهد لبيقي - في العهد الرواني - الحبل وتجارة القوافل - تجارة القوافل في العهد مري - تدوير تجارة القوافل في العهد أماني - اهتمام لغزو - تلجيت تجارة القوافل - تجارة القوافل وعركة الاستعمار في القرن التاسع عشر - القوافل التي أدت إلى القضاء على تجارة القوافل - المصاعب التي بدلتها أصبحت القوافل التجارية - وسائل ضمان نجاح تجارة القوافل - طرق تجارة القوافل وأنواعها وأهميتها كل منها - الوسائل التي - هزت تجارة القوافل - أثر تجارة القوافل في حياة البلاد.

عرفنا في الصفحات السابقة كيف لعبت لوييا دوراً هاماً في سياسة حوض البحر الأبيض المتوسط بفضل ما لها من موقع جغرافي وبفضل حسن استعداد أهلها لاستغلال ما لهذا الموقع من أثر فعال في هذا الميدان الشمالي منها . غير أن الدور الذي لعبته لوييا في الميدان الآخر الجنوبي وأعني به ميدان الصحراء لم يقل أهمية عنه إن لم يزد عليه وإذا كانت لوييا قد قدر لها أن تجدد من استطاع منافستها منافسة قوية في الميدان البحري وبالتالي الوصول إلى القضاء على ما لها من سيادة بحرية فيه فإنها استطاعت أن تفرد بالميدان الصحراوي دون أي منافس له بال من الخطورة حتى كانت لها السيادة مطلقة تامة على مر الأيام وإن ظهرت في بعض الفترات بمظهر الضعف وقد استمر الحال كذلك إلى أن جدد من الأحداث والاكتشافات البحرية ووسائل النقل ما عطل هذه السيادة وإن كانت هناك بقية ما زالت قائمة تثبت لنا ذلك الماضي المجيد لهذه السيادة الصحراوية وتدعونا إلى التفكير في أحيائها من جديد .

والعجيب أنه في الوقت الذي أساءت فيه الصحراء إلى لوييا في كثير من النواحي نجد ما قد أفادت أهلها من ناحية أخرى حيث أكتسبتهم نوعاً معيناً

من الحياة يصعب على الغير ممارستها أو الخضوع لطرفها ومن هنا جاءت لهم العلة في هذا الميدان ومن هنا كانت لهم السيادة على غيرهم من حاول منافستهم في هذه الناحية دون أن يكتسب ما يؤهله للقيام بمثل هذا الدور وهو دور كان لا غنى للبشرية عنه في ذلك الوقت وحلقة ضرورية لا يمكن تحطيتها في سبيل تطور الحضارة الانسانية في اكتشاف الطرق البحرية وما جد من اكتشافات جغرافية اخرى في العصر الحديث . وهنا أيضاً تتأكد لنا قيمة الصحراء كعامل جغرافي كبقية العوامل الجغرافية الأخرى التي ساهمت بدورها في نشأة الحضارة الانسانية وتطورها وتبين لنا فضل الصحراء في اعداد مثل اللوبيين للقيام بما قاموا به وقت أن كان الوصول الى أواسط افريقية أمراً مقصوراً عليهم لا يجرؤ أحد على محاولة منافستهم فيه .

ولوبا بموقعها الجغرافي أيضاً قد نيات لأن تكون حلقة الصلة بين غيرها من يحدها شمالاً وجنوباً فهي بشرطها الساحلي تكون الحافة الجنوبية لاقليم البحر الأبيض بمناحه ونباته المعروفين وما يترتب عليهما من قيام نوع معين من الحياة لسكانه وهي باجزائها الجنوبية الصحراوية تحدد اقليم السودان وما يليه من مناطق استوائية اخرى معروفة بانتاجها النباتي والحيواني وضرورة هذا الانتاج لشعوب أوربا بصفة عامة وأهالي حوض البحر الأبيض بصفة خاصة . ولوبا كذلك بساحلها الطويل المنحني نحو الجنوب قد أصبحت موانئها أقرب المنافذ للوصول إلى مواطن هذا الانتاج الاستوائي إذ أنها تكاد تكون خطاً مستقيماً بين مواطن الانتاج وأسواق الاستهلاك الأمر الذي سهّل حركة التجارة بين الطرفين وساعد اللوبيين على القيام بدور الوسيط بينها فعادت عليهم هذه الحركة التجارية بالآرامح الطاقة الى جانب ما اكتسبتهم من روح المغامرة وتحمل المتاعب في سبيل الوصول إلى ما يحقق لهم الأمال وفي ذلك ما يضمن لهم تخفيف ما لاقوه من مشاق وسيان الامها إذا أمعنوا النظر فيما

توصلوا عليه من أرباح طائلة .

وإذا كان الفينيقيون قد عرفوا بأقدميتهم في فن الملاحة البحرية حتى أصبحوا اسبذة لغيرهم وحتى أصبحت « الفينقة » الصفة الخاصة بكل شعب تعلم فن الملاحة وأجاد ممارسة شئونها فإنه يحق لنا أن نسمي اللوبيين بفينيقي الصحارى و « التلوب » صفة كل شعب تعلم فن الملاحة الصحراوية وأنتم ممارسة شئونها . وما أقرب الشبه بين الطرفين . فكلاهما اتخذ البحر مسرحاً لنشاطه وأعماله وإن كان بحر الفينيقيين من الماء وبحر اللوبيين من الرمال . وكلاهما اقترت أعماله بالصبر ومواصلة السعي رغم المضاعب والمتاعب . وإذا كان الفينيقيون قد اتخذوا من السواحل وجزر البحر الأبيض مشجعاً لهم على نشاطهم التجاري فإن اللوبيين كذلك قد اتخذوا من الواحات المنتشرة في الصحراء محطات لهم للاستراحة والترويح بما يحتاجون إليه في رحلاتهم وتحديد عزم السائرين منهم في الصحراء . وإذا كان الفينيقيون قد اتخذوا من البحر ثوباً شفافاً واحتموا به من أى اعتداء مفاجئ فإن اللوبيين بالمثل قد اتفوا بثوب الصحراء الشفاف واحتموا به من أى اعتداء وحافظوا به على سلامة شرايتهم الممثلة في هذه الطرق التجارية المنتشرة بطول البلاد وعرضها . وإذا كان الفينيقيون قد اتخذوا السفن المصنوعة من الأخشاب مطية لهم في رحلاتهم ولنقل بضائعهم فإن اللوبيين كذلك قد اتخذوا من الحبل سفينة لهم وما سمي الجمل بسفينة الصحراء إلا لما في رحلاته وطبيعة الأرض التي يغلب عليه قطعها من تشابه كبير مع طبيعة البحر . وإذا كان الفينيقيون قد عانوا الكثير من أهوال البحر وأمواجه وتفتنوا في طرق مقاومة هذه الاخطار فإن اللوبيين بالمثل قد عانوا الكثير من أهوال الصحراء وأمواجها المتحركة الممثلة في الكشبان الرملية وزحفها وقد تفتنوا أيضاً في طرق مقاومة هذه الاخطار بطرق لا تختلف كثيراً عما أتى به الفكر الفينيقي فالفينيقيون مثلاً كانوا في رحلاتهم يسرون بجذاه السواحل واللوبيون أيضاً كانوا دائماً لا يتعدون كثيراً عن معاطن

المياه والواحات المنتشرة حتى يستجدوا بها إذا حل بهم العطش أو التعب من كانوا لا ينتقلون من واحة إلا بعد أن يتحققوا من وصولهم إلى واحة أخرى بعد قطع مرحلة معينة من السفر وكان لهم في حصرة الواحات وبحيلها ما يرشدكم الطريق إذا صلوه كما كن لجبال الجرد وما يوجد بها من معالم أخرى فصل هداية الفينيقيين إليها إذا التمس عليهم أمر السفر ، والفينيقيون قد رسموا لمسهم طرقاً معينة يسلكونها في أسفارهم لضمان سلامتهم واسويون أيضاً قد رسموا لأنفسهم طرقاً لرحلاتهم حتى أصبحت واضحة المعالم مما سهّل أمر السفر عليهم وعلى كل من أتى بعدهم وكل من الطرفين قد اتعد من اللباس ما ساعد على العمل في السفر فالفينيقيون ارتدوا اللباس البحري بطبقة المعروف واللوبيون اتخذوا الجرد ، وقد وجدوا فيه خير معين لهم على تحقيق أغراضهم ، والمعروف أن اللوبيين قد اعتادوا في رحلاتهم التجارية عبر الصحراء ألا يرفعوا معهم خياماً حتى لا تشعلهم بحملها وحتى يستغلوا مكاتب البضائع واستعملوا بالجرد وبعض المعصى التي يسوقون بها حمالهم على إقامة ما يشبه الخيمة للاستئصال من لفتح الشمس وقت الظهيرة وفي الالتفاف بالجرد وقاية لهم من حر الصيف ويرد الرياح في أيام الشتاء وفي طياته أمكنهم أن يعملوا ، مص ما يلزمهم من أشياء يكثر الاحتياج إلى استعمالها أثناء السفر الأمر الذي لا يتفق وحفظها ضمن بضائعهم المحرومة . والفينيقيون قد عابوا الكثير من قرصة البحر بصفة عامة وقرصة الأغريق بصفة خاصة وكوايدفعور الاندوات لحية أنفسهم وكثيراً ما لجأوا إلى نصير خط سيرهم من وقت لآخر تحت ضغط التهديد أو خطر الهب والسلب والمثل عانى اللوبيون الكثير من النهب والسلب أو ما يمكن أن نسميه بالقرصنة وبالمثل أيضاً تفننوا في مقاومة هذا الخطر أما نالسر في قوافل على هيئة جماعات قد أخذت الحيلة لكل هجوم مفاجئ وإما بالعمل على استرضاء أعدائهم بدفع اتاوات معينة أو تحلصوا من كل ذلك

بتجنب مواطن الخطر واتباع طرق أخرى أكثر أمناً وسلاماً وكل من
الشعبيين أحب السفر وانتشر ما تشاء أنباء في تجارتهم وعاش في غير بلادهم وعرف
كيف يعيش في بلاد الغير وإن كانت هجرة الفينيقيين أوسع مدى وأكثر
تنظيماً بسبب البحر وتسهمه لهذه المهمة . وإذا كانت موجات الفينيقيين قد
تسببت بكثرة عن أثر الاضطراب التي هددت موطنهم الأصلي فتحلصوا منها
بهاجرة نحو الغرب وانتقلوا إلى حوض البحر الأبيض المتوسط لا سيما بعد
تحرير كل من صيدا وصور فمثل كل اللوبيون الذين سكنوا السواحل أو
الجزر القريبة من الساحل حيث كان خطر تهديد الأجنبي لهم أكثر حدوثاً
فانتقلوا ذلك بالهجرة نحو الحبوب وأوغلوا في الصحراء نحو ما حتى وصل بعضهم
إلى إقليم السودان واندخروا في أهله واستوطنا هناك وما إلى اللوبيين جماعة
محترمة في كانوا ينجحوا بما كانوا يخدمهم عند صكبير يخترق الحارة في بقية
بلاد الحاضرة

وإذا كانت طبيعة البلاد الفينيقية هي التي دفعت أهلها إلى حب
المغامرة ومحاولة كشف ما وراء الأفق كما تظلموا إلى مياه البحر فإن
اللوبيين المثل قد دفعتهم طبيعة بلادهم إلى هذا النوع من المغامرة
ومحاولة معرفة كنه الصحراء وما وراءها كما تظلموا إلى الأفق البعيد أمامهم
فلم تقف دونهم المسافات الطويلة واستهانوا بها وما رلنا إلى يوم هذا
رى اللوبي وهو يحدثك عن محبته في الصحراء أو أحد الأماكن المعصية
مشيراً إلى قرب المسافة مع أنها في الواقع تحتاج إلى ساعات وأحياناً إلى أيام
للوصول إليها . وكان أو بين في كثرة الواحات ما دفعهم وشجعهم على الانتقال
من واحة إلى أخرى بهم دائماً دون أن أمامهم لا يعيب عن نظرهم إلا ليروه
من جسد يد ولا بد أن اللوبيين قد بدأوا رحلتهم الأولى شيء من الخذر
والخوف في أول الأمر شأن كل شيء جديد وامكنهم مرغان ما أصبحوا

سادة الصحراء قد عرفوا مواعيرها ومسالكها ودروبها واحذوا لأنفسهم فيها طرقاً معينة فصلوها على غيرها لنقل تجارتهم فيما بين الساحل وإقليم السودان وهذا ما يمكن أن نفسر به صيق المساحات المزروعة في الواحات حيث تتوفر المياه بكثرة في بعضها لأن أهلها قد اشتغلوا بالتجارة والتاجر بطبيعة حرفته يستطيع جلب كل ما يحتاج إليه من غداء وملبس دون حاجة للتوسع في الزراعة حتى لا تشغله عن عمله الأساسي . وهذه المعامرات الصحراوية ولدت في نفوسهم حب الحرية والاستمالة في الدفاع عنها وبالتالي الشجاعة . وكثيراً ما حاولت الأمم التي قدر لها أن تبسط سيادتها على لوبيا أن تقضى على هذه الروح ولكن كان نتيجة مساهما الفشل لأن اللوبيين قد وحدوا في الجهات الداخلية خير ملجأ أمين لحربهم من نصف الأرض ولهذا احتفظوا بحريتهم بل وسعى الأجنبي المغير في كثير من الأحيان إلى التقرب منهم لأن في ذلك صفاء للعلاقات الأمر الذي ينطله ازدهار التجارة بين موانئ الساحل وإقليم السودان . وكان هذا أمراً ضرورياً لكل من نجح في بسط سيادته على الساحل اللوبي ولهذا كثيراً ما كانت السيادة الأجنبية مقتصرة على الساحل وعلى بعض المدن بالدلت وكثيراً ما كانت تلك السيادة اسمية على الجهات الداخلية بل أحياناً لم يعرف لها الأهالي وجوداً أو تعارضاً مع ما عودوا به أنفسهم من حرية تامة .

والخلاصة أن التقارب كان كبيراً بين الفيديقين واللوبيين وأن هذا التقارب قد سهل مهمة الاتصال بين الطرفين وجعلهما يتفهمان بسرعة ويتعاونان سوياً في ميدان التجارة على أن يتولى كل منهما من ناحية هذه المهمة بطريقته الخاصة وهكذا كان في هذا التعاون البري والبحري مساعدة كبرى في نشأة بعض المدن اللوبية وتطورها فيما بعد . وهكذا كانت هذه المدن نقط الالتقاء بين البحر والصحراء حيث تنهى إليها تجارة القوافل اللوبية البرية ليبدأ

من عندها النشاط التجارى للفينيقيين ممثلاً في قوافلهم البحرية .

...

...

...

ويصعب علينا تحديد الزمن الذى بدأ فيه اللوبيون نشاطهم الصحراوى
التجارى وإن كما نعلم بأنه قد تم على مراحل متتالية حتى وصل بهم إلى إقليم
السودان إلا أن أقدم ما وصل إلينا بخصوص محاولاتهم الأولى في هذا الباب
ما جاء ذكره في القصة التى رواها لنا هيرودوت بعد أن سمعها من بعض أهالى
مدينة قورينا عندما كان في زيارتها نقلاً عن ملك واحة آمون وسيوة عندما
كانوا في إحدى زياراتهم لمعبد الإله آمون إذ أخبرهم ملكها أن خمسة من
الشباب من أولاد رؤساء قبيلة الناسامونس Nasamones الذين كانوا يعيشون
بأقرب من خليج سرت الكبير والذين امتدت مواطنهم إلى بعض المسافة في
الداخل قد دفعهم غريزة حب الاستطلاع وروح المغامرة التى هى من طبيعة
الشباب إلى التوغل في الصحراء جنوباً وقد زودوا أنفسهم بكمية وافية من
الزاد والماء تمكنهم من قطع مسافة تزيد عما تعوده الناس في ذلك الوقت عندما
كانوا يتوغلون جنوباً ، واستمر هؤلاء الشباب الخمسة في رحلتهم الفريدة من
نوعها بالنسبة لذلك العصر وقد انعرفوا في مسيرهم نحو الغرب حتى وصلوا
بعد أيام عديدة إلى سهل به الكثير من الأشجار المحملة بالفاكهة وبينما كان
هؤلاء الشباب منهمكين في جمع الفاكهة وإدالة ما بأنفسهم من تعب انقضت
عليهم جماعة من الاقزام السود لم يكن التفام معهم من السهل على هؤلاء الشباب
لجهل كل من الطرفين بلغة الآخر واستطاع هؤلاء الاقزام حمل الشباب عبر
مستنقعات واسعة هناك حتى وصلوا بهم إلى بلدة يتكلم أهلها لغة الاقزام
أنفسهم وقد شاهد الشباب هناك نهراً كبيراً به كثير من النامسيح وهو يشق
البلدة جارباً من الغرب إلى الشرق ثم تذكر لنا هذه القصة أن هؤلاء الشبان

المغامرين قد استطاعوا العودة بسلام إلى وطنهم الأول حيث قصوا على
أهلهم وعشيرتهم ما شاهدوا وعانوا (١)

وكان ملك واحه آمون قد طن أن هذا النهر الذي وصفه الشان خمسة
في معمرتهم هذه هو نهر "بين" وقد شاركه في هذا الرأي هيروdot
نفسه لأن كل منهما في ذلك الوقت كان لا يعرف بهراً كبيراً في افرقية إلا
نهر النيل ولكن اعلب كما يبدو من سياق هذه القصة واتجاه هؤلاء الشباب
في رحلتهم واتجاه هذا النهر في مجراه أن ذلك النهر هو نهر اسجر وأن تلك
البلدة التي وصلوا إليها هي التي تعرف الآن ببلدة تمسكنو التي تكون بموقعها
حلقة الإتصال بين إقليم تصحراء و إقليم لسودان والتي أصبحت فيما بعد مركزاً
عاماً من مراكز بحارة القوافل التي تقصدها اللوبيون قوافلهم

وإذا راجعنا رواة لنا هيروdot خصوصاً الإتصال بين ساحل نوب
والأجزاء الجنوبية وتحديد طول المرحلة "الارمة من الساحل إلى فران" شت
لنا أن هذا الإتصال كان في عصره قد تم بشكل واضح وتعددت معالمه ولم
تكن ثغرة القوافل قد وصلت إلى هذا الحد الذي ذكره لنا هيروdot إلا
بعد أن مرت في أدوار متعددة من الفشل والسجح إلى أن تم لها النجاح نهائياً
وإذا كانت هذه النتيجة قد تمت قبل مجيء هيروdot بزمان طويل من المسلم
به أن المحاولات الأولى قد قامت منذ زمن بعيد يصعب علينا تحديده بالسطح
وإن كان في ظهور المدن الساحلية على يد الفينيقيين كمدن قائمة بذاتها تقصدها
الجميع ما يصلح أن نحده أساساً لمدية نشاط طرق القوافل التي لا شك أن

Hugh Murry & James Wilson Narrative of Discovery —
and Adventure in Africa, P. 40.

L. W. Bovill Caravans of the Old Sahara, P. 10. ٢

الووبيين قد بدأوا بها قبل مجيء الفيلسفيين إليهم الأمر الذي دفع هؤلاء إلى النزول إلى الساحل المولي واستغلال ما يوجد به من أسواق ساحلية تنتهي إليها تجارة دواخل القارة وبحكم هذه التجارة ومجيء الفيلسفيين تطور أمر هذه الأسواق إلى مدن قائمة بذاتها لها معالمها الخاصة .

ولاشك أن تجارة القوافل قد تطور أمرها في عهد الفيلسفيين وامت وازدهرت حتى أصبح الرؤساء المشرفون عليها وأصحاب رؤوس أموالها يقومون برحلات تفقدية من وقت لآخر وصلوا في بعضها إلى الجهات الداخلية لدراسة حالة التجارة في أسواقها الجنوبية وكان أهم هذه الرحلات ما قام به ماجو "فيمبى" حيث قام ثلاث رحلات من هذا النوع التفتيشي عبر الصحراء مما يؤيد قولنا هذا . وليس معنى هذا أن مهمة الاشراف على نقل التجارة بين ساحل لوسا والجهات الداخلية قد انتقلت من الووبيين إلى غيرهم بل ظلت الخلل على ما هي عليه رغم هذا النوع من الرحلات التفتيشية . وظل اللوبيون وسطاء بين الطرفين وظلت في حماية قسائلهم وفي مقدمتها قبائل الجرامنت من بلاد فران .

...

...

...

ولم يقتصر ازدهار تجارة القوافل على العهد الفيلسفي بل كان الأمر كذلك وبشكل أوسع في العهد الروماني بعد أن قدر للبلاد أن تخضع للسيادة الرومانية وكان لاندلروما وقد ازدهرت فيها الحياة وأصبحت عاصمة للامبراطورية الرومانية ذات العظمة والآية أن تسرف في البذخ ووسائل الزينة والترف وأن تستعين في ذلك بما تنتجه أواسط أفريقيا من ذهب وريش البعم وحيوانات مفترسة وطيور جميلة للتسلية وعبيد أشداء للخدمة وإعداد القصور فشطت حركة التجارة مع إقليم السودان . وإذا كانت أوروبا قد اعتمدت في الماضي على منحها الخاصة بها للحصول على الذهب فيها لم تعد كافية لسد ما تتطلبه الحياة

الجديدة في روما بل ولم تعد كافية لسد حاجة بقية الشعوب الأوربية الأخرى فاتجهت أنظار الجميع إلى مناجم أفريقية وذهب ساحل عانة بصفة خاصة ونتيجة لذلك زاد دخل اللوبيين كوسطاء لهذه التجارة ولم يكتف الرومان بالسياسة التي اتبعها الفينيقيون من قبلهم بخصوص هذه التجارة بل أرادوا أن يكون نصيبهم منها أوفر وأن يضمّنوا ورودها بانتظام حتى لا تنضب الحياة عندهم بأى نقص طارئ من ناحيتها فلجأوا إلى القوة الحربية لتدعيم هذا النوع من التجارة وأرسلوا قوة حربية بقيادة كورنوليس بالوس *Cornelius Balbus* عام ٢٠ ق م فتم له الاستيلاء على إقليم فزان وكان من بين الأماكن التي احتلها والتي تبين لنا مدى اهتمام الرومان بتجارة القوافل في ذلك العهد واحة غدامس *(Cydamus) Ghedames* واحة تابوديوم *Tabadium* (تابوني *Taboni* في الطريق ما بين مزدة ومرزق) وسيلابا أو سيليبا *(Cellaba or Cilliba)* المعروفة الآن بواحة زويلة في إقليم فزان واحة ريبسا *Repsa* المعروفة الآن بواحات وجرمة *Jerma * Garma* التي كانت عاصمة للجرمت في بلاد فزان .

على أن السيادة الرومانية على إقليم فزان لم تتم بواسطة هذه الحملة نهائياً بل كان فيها وفي الاستيلاء على هذه الواحات التي سبق ذكرها ما يوضح لنا مدى اهتمام الرومان في ذلك الوقت بتجارة القوافل . وقد لجأ الرومان كذلك إلى إقامة الحاميات في بعض هذه الواحات لحماية القوافل من الاعتداء إلى جانب ما في وجودها من تدعيم لسيادتهم على هذه المناطق وأقاموا الحصون والقلاع على مسافات معينة لإحكام حلقة الدفاع ضد أى هجوم معاد كما زدوا طرق القوافل بحفر آبار جديدة وأقاموا الصهاريج لحفظ المياه . ويذكر لنا التاريخ أن العرة الثالثة من لامبسا *(Lambessa)* كانت تعسكر في واحة غدامس ^(١) . وإذا

كانت بقايا هذه القلاع التي أقامها الرومان غير كافية لتدعيم هذا القول فإن مرور هذه السنين الطوال إلى جانب ما كان قد اعتاده الأهالي من الانتفاع بأحجار المباني القديمة في تشييد مبانيهم الجديدة ما يثبت أن قيامها كان محققاً بدليل ما ذكره لنا الرحالة بارث Barth (٢) في رحلته من مباني عديدة وجدها مبعثرة بطول الطريق جنوباً حتى جزمة نفسها . ومع كل هذه الاحتياطات التي اتخذها الرومان لضمان بقاء حركة تجارة القوافل وازدهارها فإنهم لم ينجحوا في ذلك إلا بسترعاء أهالي البلاد أنفسهم واتباع سياسة التفاهم ومحاولة إشراكهم في هذه التجارة بلقندر الذي يضمن لهم استمرارها وعدم خسارتها لأن هذه السيادة الرومانية كثيراً ما كانت تتأهب فترات من الضعف العام بسبب ما كان ينتاب العاصمة نفسها والامبراطورية الرومانية بصفة عامة وبسبب ما طبع عليه الأهالي من حب للحرية وضرورة المحافظة على حياتهم بالمحافظة على هذه التجارة فكانوا يشتون غاراتهم على القوافل من وقت لآخر وينهبونها بل كانوا يتجربون أحياناً ويهاجمون الخاميات في القلاع والحصون ويزلون بها الخسائر ويقطعون عنها الامدادات بالاستيلاء على الآبار ومنع العدو من الوصول إليها بل كثيراً ما كانوا يلجأون إلى ردمها بالرمال إذا أعيتهم الحيل وغلبهم العدو ورأوا أنفسهم مجبرين على الانسحاب أمام قوات العدو المترايدة .

° ° °

° ° °

° ° °

على أن تجارة القوافل اللوية في العهد الروماني قد تطور أمرها ظهور الخل في لوبيا ولاشك أن دخول هذا الحيوان إلى بلاد الشمال الإفريقي يعتبر من الحوادث الهامة في تاريخ هذا الاقليم بصفة عامة وفي تاريخ القوافل التجارية

(٢) - مكتشف جغرافي أثالي قام برحلة لحماية الحكومة النمطانية ١٨٥١ الى بحيرة تشاد

من طريق مدينة طرابلس .

صفة خاصة غير أن الباحث لا يستطيع القول بتأريخ محدد معروف يرجع إليه دخول هذا الحيوان لهذه البلاد وإن كان من المؤكد أنه قد وصل إليها من الخارج وأنه في نشأته غربت عنها وإن كان في انتشاره من شكل واسع في جميع أنحاء الشمال الأفريقي مادامع البعض إلى الاعتقاد بأن الحيوان قد نشأ في هذه الأجزاء من شمال أفريقيا كما نشأ في غيرها إن لم يكن الشمال الأفريقي هو الموطن الأصلي له وأن شمال أفريقيا قد عرفت الحيوان منذ زمن بعيد يرجع إلى عصر ما قبل التاريخ وإذا كان هناك من يعتقد أن الحيوان قد ظهر في شمال أفريقيا بمعنى العرب إليها فإن هذا القول مبالغ فيه أيضاً لأنه من الثابت أن العرب عندما أتوا إلى شمال أفريقيا قد وجدوا الحيوان معروفاً هناك ومستعمداً على نطاق كبير أما عن الموطن الأصلي لهذا الحيوان فمن المسلم به أنه قد نشأ في أواسط قارة آسيا وفي بلاد التركستان بالذات حيث كان يتجول بحرية تامة غير مقيدة واحتمل كما نعرف نوعان أحدهما له اسم واحد *Dromedary* والآخر له اسمان ووجد الأول في الجهات العربية من آسيا بما في ذلك صحراء بلاد العرب ويمتد غرباً إلى صحراء شمال أفريقيا أما الثاني فيعيش في شرق آسيا فيما وراء سمرقند والخليج الفارسي إلى بلاد الصين حتى يصل إلى الجهات الجبلية الباردة في شمال مغوليا.

ومن المرجح أن لوبيا قد عرفت الحيوان أبين حكم الرومان لها. أما فيما قبل ذلك العهد فلا وجود للحيوان فيها ويستدل على ذلك بما كتبه هيرودوت عن حيوانات لوبيا وقد قام زيارتها حوالي ٤٥٠ ق. م. إذ أنه لم يذكر احتمال من بين ما ذكره من حيواناتها كما أنه لا يجد إشارة واحدة إلى احتمال فيما وصل إلينا عن الفترة السابقة لحكم الرومان بل إن وجود الحيوان في أوائل السيادة الرومانية أمر مشكوك فيه لأن ماريوس *Marius* في حملته التي قادها ضد يوجرتا *Jugurtha* قد اتخذ من الحصان وسيلة لنقل معداته أثناء عملياته الحربية في الصحراء رغم

ما في ذلك العمل من تعب ومشقة . ويذكر المؤرخ الروماني سلوستوس Sa...stus أن المسبة الأولى التي رأى فيها الجلود الرومان أحمر لم تكن في افريقية بل كانت في آسيا أثناء حملة لوكلس Lucius الحربية عندما يدرس Mithridates كما أن المؤرخ بليني Plinius الذي قدر له أن يسافر إلى افريقية قد ذكر لنا أن الجمال تنسب في أصله إلى قارة آسيا ولهذا لم يكن ناهمل وجود في افريقية في العصور السابقة للحكم الروماني بل إن البلاد لم تعرفه إلا بعد مضي فترة من الحكم الروماني وقد أتى ذكر الجمال لأول مرة في افريقية سنة ٤٦ ق . م في موقعة ثاليس Thales عندما أتى اسمه ضمن المنتمين التي هرب بها قيصر Caesar في حربه مع Jugurtha إذا استطاع قيصر أن يفتح اثني عشرين حملاً وفي قلة عدد هذه الاحمال تدعيم لبداية ظهور الجمال كحيوان معروف في افريقية في ذلك الوقت . وقد طرأ حال كذلك وإن أحد عدد الجمال في الريدة شيئاً وثيقاً حتى إذا كانت سنة ٢٦٣ م وجدته القائد الروماني رومانوس Romanus قد فرض على أهالي مدينته لبدية امتداده بأربعة آلاف حمل لأغراضه الحربية . ويجب ألا نأخذ من كثرة هذا العدد دليلاً على وجود الجمال بكثرة في ذلك الوقت إذا كان لمدينة لبدية ظروفها الخاصة التي مكنتها من امتلاك مثل هذا العدد وأكثر منه فهي توقعها عند نهاية طريق القوافل لتجارة قنابل الجرمت بغزان فيما بين البحر الأبيض المتوسط والبيضاء كانت أكثر استخداماً لهذا الحيوان من غيرها وبالتالي كثرة وجود هذا الحيوان في مسطنتها عن بقية المشرق الأخرى ولا عجب بعد ذلك إذا سمعنا هنا لأول مرة عن الجمال في أعداد كثيرة بالسية لأي مكان آخر . وبمرور الزمن أحيد ذكر الجمال يتردد كثير أحياناً ما ذكره الكتاب في العهد الميربلي وأصبحت شاهدته واستعماله من الأمور المألوفة في ذلك الوقت .

هذا بخصوص تحديد زمن دخول هذا الحيوان في بلاد الشمال الافريقي

أما بخصوص من تولى القيام بهذا العمل فهناك احتمال كبير بأن الرومان لم يقوموا بادخاله في افريقية وإن كان يحتمل أيضاً أنهم وقد واجهتهم مصاعب النقل في هذه البلاد قد لجأوا إلى حلها بالطرق التي حلوا بها نفس المصاعب التي وجدوها في آسيا باستعمال هذا الحيوان . وإذا فرضنا أنهم قد نجحوا في حلها بطرق أخرى فإن الرغبة في تنمية الحركة الاقتصادية لا شك قد دفعتهم إلى استيراد الجمال من آسيا إلى الشمال الافريقي وليس هذا بالأمر الصعب عليهم إذ أن هجرة الحيوانات الأليفة مرتبطه إلى حد كبير بالنشاط البشرى وتنقلات الانسان الأمر الذي دفع الكثير إلى الاعتقاد بأن حيوان الحمل قد انتقل من الشرق إلى شمال افريقية على أيدي قائل زناته البربرية في هجرتها من المشرق إلى المغرب . أما إذا كانت هذه الهجرة قد تمت بتشجيع الرومان أو مساعدتهم فهذا لا يمكن القول به ولكننا نعتبر رمانه المسئول الأول (١) عن جلبه إلى الشمال الافريقي والتوسع في استخدامه هناك وذلك في العهد الروماني لشمال افريقية .

وعلى كل فإن الحمل حيوان طارىء على بلاد الشمال الافريقي وإن كانت طبيعة البلاد قد وافقت تربيته والاكثار منه حتى بدا كأنه حيوان أصلي بها ولا شك أن ادخاله في شمال افريقية يعتبر حادثاً عظيماً له خطوره ونتائج بل يمكننا أن نعتبر ذلك بداية عصر جديد في تاريخ البلاد إذ بظهوره حدث تطور كبير في حياة السكان وأعمالهم ونشاطهم التجاري لا سيما فيما يتعلق بذلك النشاط الذي ربط السواحل الشمالية بإقليم السودان ولاغراً بعد ذلك إذا رأينا العهد الروماني قد اقترن بازدهار تجارة القوافل وكثرة الثروة في البلاد وانتعاش حياة الاهالي بل أن ظهور الحمل في ذلك الوقت كان أكبر مساعد

للرومان على التوغل جنوباً ومحاولة بسط سيادتهم على الاجزاء الجنوبية الامر الذى لم يحاوله الفينيقيون من قبلهم . ولا شك أن الخل بطبيعته واستعداده الخاص قد لعب دوراً هاماً في هذا التطور كما لعب أدواراً أخرى مماثلة فيما جد من حوادث فيها بعد . ولا شك أن اللوبيين قد استفادوا كثيراً من أحوال الخل في بلادهم ولا بالبع إذا قلنا أن دخوله يعتبر انقلاباً في حياتهم الاجتماعية ومعيشتهم الخاصة وطرق تفكيرهم وبه استطاعوا استعمال ما قد وجدوه من مراعى بعيدة في جوف الصحراء لثرية حيواناتهم دون مشقة كبيرة بالنسبة لما كانوا يعانونه في السابق بل واستطاعوا استعمال ما في الواحات الجنوبية من حبة زراعية وخصوبة لم تعرف توفراً لأنسياب المياه المستمرة . أما ما استفاده اللوبيون من الخل في تخفيف متاعب السفر وريادة قدرتهم على قطع المسافات الطويلة وحمل أعباء كبيرة من المتاع والصناعات فهذا شيء مسلم به لا يحتاج الى مناقشة وإن كانت الحقيقة تستدعى تسجيل كل ذلك . والخلاصة أنه بدخول الجمل في الشمال الافريقي قد حدث تطور كبير في تجارة القوافل إذ به قلت أغلب المشاق والمتاعب التي يجدها أرباب القوافل التجارية فضلاً عن أنه فتح أمامهم طرقاً جديدة للاستغلال التجاري وآفاقاً أخرى كان لا يمكن الوصول إليها بدونهم .

وإذا كانت البلاد قد عرفت الخل في العهد الرومانى بعد أن عرفت التجارة وقامت لها طرق تربط أسواقها على الساحل وفي الداخل قبل مجيء الرومان إليها فيحق لنا أن نتساءل عن الطريقة التي كلف اللوبيون في العهد الفيليني وفيما بعده قبل مجيء الخل بنقلونها بصانئهم بين إقليم السودان والمدن الساحلية وبالعكس . لقد تأكد لنا قيام اللوبيين بهذه المهمة وبمخاضهم فيها كما تأكد لنا أن الخل قد طرأ على لوبيا بعد أن عرفت تجارة القوافل . لا نستطيع القول برأى نهائى في هذه المسألة وهى مسألة جدية بعناية خاصة من البحث

للوصول إلى نتيجة نهائية تتفق والحقيقة إلا أنه من المسلم به أن السلاقي
العصور القديمة تم تكل الحياة الصحراوية بعلب عليها كما هي عليه الآن بل إن
الشواهد والآثار الدفينة تدل على أن نوعاً آخر من الحياة قد قام فيما نسميه
الآن بالصحراء الكبري إلى أن حدث تطور فيما بعد في الحالة المناخية ولا شك
أن تلك الحياة الأولى السابقة لما طرأ على المناخ من تغيير قد سبقت إلى حد كبير مهمة
اللوميين في تجارتهم بين الساحل والداخل . ولا شك أيضاً أنهم كانوا يقومون
بهذه المهمة على مراحل مع الاستعانة بالواحات واتحدها بمحطات للاستراحة
والنزود وإن كان ذلك كله على حساب الرمن النسبة لما تطور إليه الحمار بعد
إدخال الحمل ولا شك أن اللوميين كانوا يعتمدون في نقل تجارتهم على ما كانوا
يملكونه من حيوانات أخرى كالخيل مثلاً وقد ذكر لما التاريخ أن ماركوس
كانت Marcus Cat في حملته الحربية قد اعتمد على الخيل في نقل جنوده عبر
مطقة سرت مستعيناً في ذلك بتقسيمهم إلى مجموعات أحدها في ارساط على
دفعات حتى لا يضطرب أمر مسيرها ويمكن سقيها دور عناء كبير وتزاحم على
الآبار كما أن افلاس Ophellas وإلى قورينث من قبل البطلمة قد ساعد
اجاثوكليس Agathocles طاعة سيراكوز في حربه ضد قرطاجة وسير إليه
حيشاً قوامه عشرة آلاف من المشاة وستائة من الخيالة ومائة من العربات ولم
يأت ذكر بعجم في هذه الحملة بل كان المعول على الحصان ورميله الحمر أما
قبائل الجرامنت الداخلية فقد كانت تعتمد على حيوان خاص بها قد ابدت
معامله وإن تركوا صورته مقوشة على بعض الصخور في إقليم قران.

كل هذا يدفعنا إلى القول بأن اللوميين قد كان لهم من الوسائل ما ساعدهم
على القيام بمهمة تجارة القوافل وإن كان ذلك بصورة محدودة مع كثير من
المتاعب والوقت ، النسبة لما صار إليه أمر هذه التجارة بعد إدخال الحمل في
في شمل أريقه واستغلاله في هذه المهمة استغلالاً واسعاً منذ ظهوره في لوبيا

حتى أصبح أمر هذه القوافل مربوطاً به وقد رسم معطاه معالم طارفاً في كثير من المسافات فأصبح المسافرون يسترشدون بها في رحلاتهم .

...

...

...

وبمجيء العرب الى الشمال الأفريقي وتخضوع لوريا للحكم العربي زاد انتشار الحمل في لوب . وقد كان من نتيجة أفلة هذا الحيوان على يد العرب الدخيل الحصول على نوع جيد من احمال اشتهرت به البلاد و زاد بذلك نطاق التجارة اللوية وهذا النوع الجديد هو الذي أعجب الرحمة البياشي ودعاه الى تسجيل ذلك في أحبار رحلته عندما زار البلاد فقال : « وأن عملة طرامس ناية في الحدود قد أن توجدها ، كثير شبيهة بآس ساس تريد حتى عليها بكثرة المدة فإنهم يستعملونها في سائر الأشياء حتى الخمراته والدراسه ويستعملونها عليها ويديرون الرحا فتمرت تحت على المشاي العظيمة ولذا قيل في أمثال الجميع جمل طرامس وقرنة مصرية (١) . وكان في التشابه الكبير بين اللوبين والعرب الدخيل من حيث نطاق وطبيعة الأرض ما ساعد على الاندماج بين الطرفين والاشتراك سواء في القسام بتجارة القوافل حتى ازدهرت على أيديهم ووصلوا هذا لتعود الى ميادين أخرى جديدة ما كانت قد عرفت في السابق واقترن هذا النشاط التجاري بشيء جديد لم تعرفه - مادة القوافل في السابق وهو التدوين العلي والتسجيل المواحي شط هذه التجارة والسلاسل التي وصل إليها تجار جنوباً حتى أصبحوا مدسرين إلى حد كبير هذا العصر العربي فيما وصل اليها من معلومات عن تلك السلاسل الواقعة إلى الجنوب من الصحراء الكبرى ولم يكن يحضر على مثلها في العصر القديم بهذه السهولة ولا هذا الشكل الوافي وثر مقدمة من كتب في وصف هذه البلاد المسعودي وأن حوقل والسكري والادريسي وياقوت الحموي وأن العمري وابن بطوطة وابن

خلدون وقد قام بعضهم برحلات إليها مع بعض القوافل التجارية كما أن بعضهم الآخر استقى ما وحمل إليه من معلومات عن طريق هذه القوافل وأصحابها.

كما أن ظهور الاسلام ومجيء العرب إلى شمالى افريقية أدى إلى تطور آخر في طرق تجارة القوافل فبعد أن كان معظمها يتركز في طرق رئيسية محدودة بين الساحل وإقليم السودان ظهرت للوجود طرق أخرى هامة لها خصائصها المميزة لها وإن كان بعضها معروفاً قبل مجيء العرب وقد سلكه الأقدمون من اللوبيين في ثقلاتهم الكثيرة السابقة وفي مقدمة هذه الطرق طريق الحج الذى يخترق شمالى افريقية من الغرب إلى الشرق بحذاء الساحل وهو طريق كان معروفاً في أساسه إلا أن ظهوره بشكل معين في موسم معين من السنة لغرض دينى مستمر قد صبغه بصبغة الجدة وأكسبه طابعاً جديداً ولا شك أن قوافل هؤلاء الحجاج وهم في طريقهما بين أقصى غربى الشمالى الأفريقى والأراضى الحجازية قد اقترنت بالتجارة إلى جانب تأدية فريضة الحج بل أن في كثرة عدد جمال هذه القوافل وتنوع ما كان يحمله الحجاج معهم من أشياء يدفع الإنسان إلى القول بأن هؤلاء الحجاج كانوا يقومون بالتجارة إلى جانب قيامهم بفريضة الحج. ولا شك أيضاً أن كثيراً منهم كان يستعين بهذا العمل لسد نفقات الحج بل وللحصول على أرباح مباحة إلى جانب تسديد هذه التكاليف.

وظلت تجارة القوافل اللوبية على حالها من النشاط طيلة العهد العرق حتى إذا خضعت البلاد للحكم العثمانى انتابها تطور خطير أدى إلى اضطراب شأنها كما كان الحال تماماً بالنسبة لتجارة القوافل والبضائع الشرقية على أثر ما جد من اكتشاف طرق بحرية جديدة ترتب عليها تحويل مجرى هذه التجارة عن طرقها الأولى. وكما أن تجارة التوابل والبضائع الشرقية قد تحولت عن مصر وأملا كما فى الشام إلى طريق رأس الرجاء الصالح فإن التجارة مع أواسط افريقية أيضاً بدأت تسلك طريقاً بحرياً بعد اكتشاف السواحل الغربية الافريقية وبعد أن

عرف الاستثمار الأوربي طريق التعلل في النواحي الداخلية ومع كل هذا فقد ظلت بعض موارد هذا الانتاج الأفريقي بعيدة عن أيدي الأوربيين لوقوعها في الداخل مما صعب أمر الوصول إليها على الأوربيين إلى حد ما يوجد في ساحل غانة من غابات كثيفة ومناطق موصومة بالأمراض ومماح لا يساعد الأوربيين كثيراً على تحقيق أغراضهم ولهذا كله ظل بعض تجارة القوافل يتجه شذوذاً كالمعتاد وإن عمى هذا الطريق البحري على إصعاف شأنه وإلى جانب ذلك اقترن العهد العثماني بشيء من الفوضى وسوء النظام فعجل هذا الإصعاف ويكفي لتدبير مدى اهتمام العثمانيين القليل بهذا النوع من التجارة إذا عرف أنهم أصبحوا يضطرون إلى مطلقه فإن بعد الاستيلاء عليها كسب لهم صوب عليهم سياسياً بعد أن كانت في نظر الجميع مركزاً من مراكز التجارة الداخلية والحياة الاقتصادية حتى إذا حكمت الأسرة القره مانلية استطاع مؤسسها أحمد باشا الكبير أن يرفع من شأن البلاد بحكمته وحسن سياسته وأن يتجه نظره إلى استغلال هذا النوع من التجارة وتعليم مواردها والإشراف عليها بكل حزم وعناية وكان له فيها مورد استعان به على سد ما يطلبه أمر إيشاء دولته والوقوف بها في مصاف الدول المحترمة وتحقيق أغراضه بالمر وقد سار سواه من بعده على هذه السياسة التي رسمها لهم جدهم العظيم كما ساروا حسب سياسته البحرية التي اختطها لهم والتي سبق أن رأينا بعض مظاهرها في الصفحات المنقمة.

وخلاصة القول أنه إذا كانت البحرية اللوية قد قدر لها نوع من الازدهار في العهد القره مانلي فإن الحال كذلك بالنسبة لتجارة القوافل وإن انتهت أيضاً من وقت لآخر شيء من لصعاب نتيجة لما كانت تتعرض له البلاد من أحداث سياسية خارجية متمثلة في صعد الدول الأوربية وتدخنها في شؤون البلاد أو نتيجة لاضطرابات القسطنطينية وفلاقلها في الداخل وعلى أي حال فقد كانت تجارة القوافل في العهد القره مانلي عاملاً هاماً في تكوين ثروة البلاد ويكفي أن نعرف

أن العبد الواحد في ذلك الوقت كان يباع بقيمة تراوح ما بين الثلاثين والمائة والخمسين دولاراً أسباباً (١) حسب هيئته وسنه وحسب حالة العرس والطلب. وإذا كان حاكم فزان وحده كما كان الحال في عهد واليه محمد المكنى أيام يوسف باشا القره مابلي قد بلغ إيراده الخاص من العبيد ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف عبد في السنة (٢) خلاف المقادير الأخرى من الضرائب الاستوائية فإن ذلك يساعدنا على تقدير الدخل العام لمالية الدولة بصفة عامة في العهد القره مابلي ومدى ما كانت عليه من كفاية بالنسبة لحاجات البلاد ومطالبها. بل إن محمد المكنى نفسه ما استطاع الوصول إلى وظيفة الولاية العامة لإقليم فزان إلا بعد أن تعهد ليوسف باشا برفع الأتاوة التي يدفعها للبasha من خمسة آلاف دولار سنوياً إلى خمسة عشر ألف دولار وبهذه الزيادة الكبيرة استطاع أن ينهي الأسرة الحاكمة في فزان وأن يحل محلها في عام ١٨١١ م. بل أن يوسف باش نفسه سرعان ما طالب المكنى برفع هذا المبلغ من خمسة عشر ألف إلى ثمانية عشر ألف (٣) ألف ولاشك أن الباشا لم يقدم على المطالبة بهذه الزيادة الكبيرة إلا بعد أن تأكد له وفرة ما يحصل عليه حاكم فزان من مال خاص من التجارة مع وسط أفريقيا فهو إلى جانب ما يحصل عليه من عدد كبير من العبيد كان يتقاضى دولارين أسبوعين عن كل عبد يمر بإقليمه لتقية التجار (٤) فضلاً عن أنه كان يأخذ دولاراً ونصف دولار عن بيع كل عبد بالإضافة إلى المبلغ الرئيسي (٥).

(١) Captain G. F. Lyon. A Narrative of travels in Northern Africa in the years 1881, 1819, 1820, P. 121.

(٢) المصدر السابق ص ٤
(٣) » » ص ٢٥٨
(٤) » » ص ١٩٩
(٥) » » ص ١٩٩

وفي عهد يوسف باشا اتخذت التجارة مع السودان نظاماً معيناً مع إقليم
هزان تجنباً لآى الناس وتحديداً المسئولية العامة فقد اعتبر يوسف باشا منطقة
بوجيم (Boujem) (جنوب شرق مسراته) هى المنطقة التى يتم عندها تبادل
المسئولية بخصوص تجارة العبيد فيما بين رجال سلطته ورجل محمد المكى أى
أن كل العبيد الذين كان يرسلهم محمد المكى الى الدش فى مدينة طرابلس تحت
مسئوليته يحاسب على كل واحد منهم قبل الوصول الى هذه المنطقة أما اذا قدر
لعضهم الموت أو التعرض لآى مكروه بعد الوصول الى (بوجيم) فالمسئولية
لأنقع على المكى بل كانت من نصيب رجال الباشا نفسه وبالمثل اذا أرسل
الباشا أى بضاعة الى المكى لبيعها هناك أو فى وسط أفريقيا فإن المكى كان
المسئول الأول عنها بعد مضقة بوجيم وكان فى توزيع المسئولية بهذا الشكل
حيز صلبان لتجارة القوافل وتقليل خسرها .

...

...

...

وقد اقترنت تجارة القوافل فى العهد لقره مانلى خصوصاً أيام يوسف باشا
بطاهرة جديدة كان لها أثرها الفعال فيما بعد فى القضاء على هذه التجارة بطريقة
غير مباشرة ذلك أن الدول الأوروبية الاستعمارية وقد صعب عليا الوصول
إلى أواسط افريقية من السواحل الجنوبية والعربية للقارة قد أحسبت توجه
اهتمامها إلى الساحل الشمالى لافريقية وتنافس فيما بينها للوصول إلى احسن
افريقية تلك القارة المطلة كما كانوا يسمونها وقد اشتد التنافس الاستعماري فى
القرن التاسع عشر الميلادى مما جعل مدينة طرابلس وبقية المدن الساحلية
الأخرى محطات للرحلة الأوربيت الذين يقصدون البلاد بحية التوغل إلى
داخل القارة مستعينين على ذلك بما يتيسر له من توصية خاصة من الباشا نفسه
بعد اتفاق إخفاء العرض الأساسى من رحلاتهم بشق الطرق والمعابر كالتغافل
بالكشف عن بعض البينات الضنية أو دراسة بعض الماضى الأثريه أو الرغبة

في إرضاء روح المخاطرة والمجادفة عندهم وإن كانوا في الحقيقة يقومون بالتمهيد العلى للتوسع الاستعماري متحمليين في سبيل ذلك كل أنواع المتاعب والمشاق وتعريض أنفسهم للهلاك أحياناً رغم استعانة الكثير منهم بدراسة اللغة العربية وإطهار اعتناق العقيدة الإسلامية ومراولة شعائرها على مرأى من رجال القوافل وقد كان لهم فيها أكبر معين على تحقيق رحلاتهم إذ كان الكثير منهم يرافقها في السفر ويفتطر مواسم قيامها لمصاحبتها وفي ذلك ما يحفف عليهم متاعب السفر وجهل الطرق . وهكذا ساهمت تجارة القوافل في تشييط الحركة الاستعمارية الأوروبية في القرن التاسع عشر الميلادي بطريقة غير مباشرة كما استعان بها قناصل الدول الأوروبية الاستعمارية في الحصول على المعلومات الضرورية عن الجهات الداخلية بل كان قناصل الدول الأوروبية وفي مقدمتهم قنصل بريطانيا في مدينة طرابلس يتخذون من هذه القوافل سبيلاً لبث عيونهم في الجهات الداخلية وتزويدهم بالأخبار الضرورية كما جاء ذكر ذلك في كتاب الرحالة الميجر دنهام وزميله عند ما طمع بوكرك بوحلوم^(١) Bar Bucher Book is com

في عزل حاكم فزان وتولى الحكم مكانه أيام يوسف باشا في سنة ١٨٣٢ عندما كان الكولونيل وارمington قنصلاً لبريطانيا في مدينة طرابلس وقد لعب هذا القنصل دوراً كبيراً في الجاسوسية لحساب دولته وإعداد التقارير الوافية عن البلاد الداخلية الأفريقية مستعيناً بما يصل إليه من معلومات من رجال هذه القوافل معتمداً على حسن علاقاته مع بعضهم تحقيقاً لهذه الغاية كما نجح في التقرب من الباشا نفسه وكسب ثقته حتى كان لا يرد له طلباً يتصل بمساعدة الرحالة من الانجليز وتأمين أسفارهم في الداخل صحة القوافل التجارية للباشا أو غيرها .

1 Major Dixon Denham's Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa, P 23.

وهكذا تطورت تجارة القوافل في آخر العهد القرماني وأصبحت تحمل بذور أصعافها فيما تحمله من بضائع بين ساحل لوبيا وأواسط افريقية حتى إنه لم يمض القرن التاسع عشر إلا وكانت هذه البذور قد نمت وترعرعت واستطاعت بمفعول السام القاتل أن تأتى على ثمارها الحلوة وكانت الأعوام الأخيرة من القرن التاسع عشر فترة نضال قوى بين تجارة القوافل وعوامل أصعافها متمثلة في إردياد التعلل الأوربي في الداخل والتحكم في أسواق الإنتاج هناك وتحويل معظم هذا الإنتاج إلى الأسواق الأوربية عن طريق البحر بعد أن نجح الأوربيون في إقامة بعض المحطات التجارية لهم على ساحل ييجيريا وغيرها من بلاد ساحل عانا لتكون حلقة الصلة بين الأسواق الداخلية والسفن الأوربية فصلا عن أن تجارة العبيد قد أخذت في الإختفاء بعد الموقف الإيجابي لدول أوربي منها عقب مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ واصطرار حكام الولايات الألمانية إلى بحارة هذا الشعوب الجديد نحو تجارة العبيد كسأ لود بعض الدول الأوربية وبحارة للتجار الأوربي العام الذي اتخذ من تجارة العبيد فرصة للتبديد بالحكم وفساده في بلاد الشرق ومدعاة للتدخل الأوربي هناك بسط السيادة الأوربية انقاداً لهذه النفوس الشريرة في الطاهر وتحقيقاً للغرض الاستعماري في الواقع . وهكذا شاء الأوربيون أن يروا في تجارة العبيد نوعاً من البذل والاستعباد الشرى في الوقت الذي استباحوا فيه لأنفسهم استعباد الشعوب حمة وادافتها أقصى أنواع العذاب بل وشن الحروب عليهم وسفك دماء الاف الاف من البشر في سبيل التوسع الاستعماري مع أن كثيراً من هؤلاء العبيد كان يتمتع بحرية وحياة لم يعلم بها الكثير من أولئك الذين قدر لهم أن يحضروا للسيادة الأوربية التي جاءت ترتدى ثوب الرحمة والشفقة من اجلهم فعكست على بلاد نأجها بالعبودية النامة والاستغلال الرخيص الذي يتنافى وأقل واجبات المرء نحو شعوره الانساني ولا أدل على ذلك مما رواه

الاستعداد بل K D Bell في كتبه عن واحدة الكفرة (١) حيث يذكر لنا أن العبيد الذين كانوا ملكاً لمملكة السنوسية في واحدة الكفرة وبعد أن تم تحريرهم وإطلاق سراحهم على أيدي الإيطاليين بعد احتلالهم لها سنة ١٩٣١ كانوا يتمتعون بمعاملة أكثر في طين العبودية السنوسية عما كانوا يتمتعون به أثناء الحكم الإيطالي رغم هذا التحرر ورغم إطلاق سراحهم . بل إن في استمرار بعض هؤلاء العبيد في علاقاتهم القديمة مع ساداتهم القدماء وأولادهم فيه بعد أكبر دليل على ما كان يتمتع به هؤلاء العبيد من حياة ومعاملة حسنة الأمر الذي يتناقض وما يدعيه الرأي الأوروبي العام من قول لا يتفق وهذه الحقيقة للقضاء على هذه التجارة في الظاهر وتبرير نشاطهم الاستعماري في الواقع . وإذا كان بعض الظلم ومض العسف قد وقع على هؤلاء العبيد فقد شاركهم في هذا الكثير من أحوالهم الأحرار وهكذا قصت الشعوب الأوروبية على فكرة الرق وعلى تجارة العبيد وأحلت محلها الفكرة الاستعمارية وسياسة استعمار الشعوب الخفية لا بالقضاء واعتبرت البلاد المنحلفة بها حلالاً وقسمتها فيما بينها إلى مناطق تعود ثم دفعها لشر إلى التنافس فيما بينها في استعباد الشعوب لاستغلال ثرواتها على حساب أهلها دون عن أي تقدير لهم وإن كان في ذلك تعارض تام مع ما نادى به الأوروبيون من أهداف سامية لتبرير القصاص على تجارة العبيد وهكذا أيضاً بأي التاريخ إلا أن يسجل هذه الممرات الانسانية في هذه التقليدية الجديدة التي أهدت إليها الدول الأوروبية الاستعمارية في القرن التاسع عشر لتحقيق أغراضها الاستعمارية في ثوب بحارة الاستعمار الفردي نفسه ولنا في الخطاب الذي ألقاه رئيس الوزارة الإيطالية في البرلمان الإيطالي عقب الإنذار الذي أصدرته إيطاليا إلى تركيا يوم ٢٦ سبتمبر بخصوص احتلال لوبيا ما يوضح لنا هذه السياسة الملتوية فقد جاءت الفقرات التالية ضمن خطبه : إن أوربية عربية من توس إلى مراكش تحت حماية إدارة أوربية إلا لوبيا وحدها فإنها متأخرة جداً عن الزمن فأموال العبيد ما زالت قائمة في معازي والرحال

والسما يؤخذون عنوة في أواسط أفريقية لبيعهم في هذه الأسواق (١).

هذا بخصوص تجارة العبيد أما بقية البضائع الأخرى التي كان اللويون يستوردونها من أواسط أفريقية فقد انتاب الأقبال عليها أيضاً شيء من الضعف العام في الأسواق الأوربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فهذا الريش النعام الذي كان يستعمل بكثرة كوسيلة من وسائل الريشة في السيوت وملابس السيدات والذي كانت مدينة باريس أكبر سوق له قد أخذ الناس يقلعون عن استعماله وظهرت موجة من التفكير الإنساني العام لمحاربة هذا النوع من الريشة بحجة أن في الحصول على الريش نوعاً من تعذيب طائر النعام واستمصاصوا عنه بطرق أخرى في زيشتهم . كما حدث تطور في وسائل الزينة الذهبية أدى إلى التخلي عن أشكالها مما جعل الأقبال على المذهب ضعيفاً في هذه الناحية فضلاً عما جد من تطور في سك النقود وإحلال عملة الورق محل العملة الذهبية، كل ذلك أثر في الأقبال على الذهب. كما أن أوروبا بتوسيعها الاستعماري في بلاد الشرق قد وجدت لها ميداناً متسعاً لتحقيق طلباتها منه بعد أن كادت مآجيم الذهب في وسط أفريقية أن تقرب من النفاد.

كل هذه العوامل وقد تصافرت مع بعضها كان لها أكبر الأثر في تدهور تجارة القوافل إلى أن جاء الاحتلال الإيطالي في العشرينات الأولى من القرن العشرين فكان أكبر عامل للقضاء على البقية الباقية مهالما افترن به هذا الاحتلال من اضطراب وفوضى عمت البلاد فأجمعها وامتدت بامتداد النفوذ الإيطالي إلى الداخل وقد استمرت هذه الحال لمدة عشرين عاماً حتى تعطلت القوافل عن المسير بين الساحل والجهات الداخلية وعيئاً حاولت إيطاليا بعد أن خضعت لها البلاد وبعد أن تم

لها الاستيلاء على فران وواحة الكفرة عام ١٩٣١ أن تستعيد ما كان لتجارة القوافل من شأن مضي ولو بصورة مصعرة فحددت معالم بعض طرق القوافل تسهيلا للمسافرين كما فعلت فيما بين واحة جالو وواحة الكفرة بإقامة العلامات حيث لا يوجد أى دليل لارشاد المسافرين كما أنشأت إيطاليا بعض المطارات الجوية فى بعض الواحات الداخلية لتسهيل الإشراف على هذه الأراضى الواسعة وإن كانت فى حقيقة الأمر قد اتخذت منها محصات لقواتها العسكرية لتنفيذ أغراضها الحربية فيما بعد كما فعلوا فى واحة هون وواحة الكفرة وغيرهما

ومع أن القرن التاسع عشر قد شاهد تدهور تجارة لقوافل النوبية وهى فى دور احتصارها إلا أن حالة التحسن الصينى كثيراً ما كانت تفتتح كما حدث فى السبعينات الأخيرة منه . وبشت لك هذا بمراجعة الجدول الآتى الخاص بقيمة البضائع الواردة والصادرة من إقليم طرابلس دون برقة إذ كانت تجارة القوافل فى تلك الأعوام تكون ربع التجارة العامة لطرابلس وكثيراً ما كانت تصل أرباحها إلى ٥٠ ٪ من أرباحها . (١) هذا فى الوقت الذى كانت فيه تجارة القوافل قد اصطلحت شتتها ورتة ، يساعداً التقدير العام المبين بالجدول على أخذ فكره عامة عن مدى الرخاء الذى تمتعت به البلاد أيام أن كانت هذه

السنوات	قيمة الواردات بعملة لاغدى	قيمة الصادرات بعملة لاغدى	عدد الواردات بعملة لاغدى	عدد الصادرات بعملة لاغدى
١٨٦٢ - ١٧٧١	٠٩٢٥٥٦٦٠	١٥٠١٦٥٦٠٠	٩٠٥٣٤٠
١٨٧٢ - ١٨٨١	٣٥٢٣٥٨٣٢	٤٤٨٤٥٣٢٤	٩٦٠٥٤٩٢
١٨٨٢ - ١٨٩١	٣٦٤٧٥٩٢٠	٣٥٦٤٥٧٥٥	٨٣٥١٦٥
١٨٩٢ - ١٩٠١	٤٥٦٧٥٩٦٢	٣٥٢٠٤٥٣٠٠	١٥٠٦٤٥٦٦٢

التجارة في أوج مجدها قبل أن يعرف النفود الأوربي طريقه الى الداخل وقبل أن يتحول معظم هذه التجارة إلى الطريق البحري الجديد . والجدول الآتي أيضاً يعطينا فكرة صحيحة إلى حد كبير عن الأموال الطائلة التي كانت يجنيها البلاد من تجارة القوافل وعن نوع البضائع المطلوبة في ذلك الوقت مع أن هذا الجدول أيضاً خاص بإقليم طرابلس دون برقه وتلك الجداول مستمدة من التقرير السنوي الذي قدمه قنصل بريطانيا في مدينة طرابلس لحكومته (١) وكان العاج

السنوات	قيمة المصاح بالمنصة الإنجليزية	قيمة الريش بالمنصة الإنجليزية	قيمة ذهب بالمنصة الإنجليزية	قيمة الفضة بالمنصة الإنجليزية
١٨٨١-١٧٦٢	٢٠٠,٥٠٠	١١٧,٥٠٠	—	—
١٨٨١-١٨٧٢	٣٨١,٣٠٠	١,٢٩٣,٥٠٠	٨٣,٥٠٠	٨٨,٠٠٠
١٨٩١-١٨٨٢	١٩١,٥٠٠	٩٩٩,٠٠٠	—	٩٢,٥٠٠
١٩٠١-١٨٩٢	٩٨,٨٠٠	٥٧٩,٠٠٠	—	٤٦٣,٩٠٠

يذهب إلى أسواق لندن أما الريش فكانت تصدره طرابلس إلى باريس كما كانت تصدر الجلود إلى نيويورك وأمريكا .

.....

ولكن هذه الأرباح الطائلة التي جنتها البلاد لم تكن من غير مقابل بل كثير ما دفع اللاويون في مقابلها أجسافاً أغلى مما يمكنون وما يكافحون من أجله . في كثير من هذه القوافل التجارية كان بعضهم يتعرض للهلاك وفقد المال أما المتاعب والأهوال التي كانوا يقاسونها فهي شيء عادي بالنسبة

(١) المصدر السابق المذكور

لهم قد ألفوها واعتبروها جزءاً من حياتهم الطبيعية القائمة على السفر من مكان لآخر وكثيراً ما كانت بعض القوافل تضرر الطريق خصوصاً إذا كان طريق الرحلة حديداً على أصحابها أو حدث أى تغيير فى المعالم المعروفة التى تحدد طرق القوافل وتطهرها للبيان وكانت الكدس الرملية ورحفها أكبر خطر يهدد معالم هذه الطرق ويحجبها . والرائر للصحراء يدهش لكثرة تلك المسارب المتقاطعة المتفرقة أحياناً حتى يصعب عده تحديد وجهته فيتعرض للإهلاك إذا قدر له أقل خطأ فى تحديد المسارب لئلا يجب عليه أن يسلكه بالذات وما أكثر احتمال هذا الخطأ حتى على الخبراء بمعالم الصحراء لأن عوامله كثيرة وإن احتاط أصحاب القوافل لذلك بالخبراء فى أسفارهم وبالماء الكافى فحيرة الخبراء كثيراً ما تقف دون التغلب على مثل هذه المأرق وإن استعملوا شروق الشمس وغروبها نهراً والنجوم ليلاً وهبوب الرياح فى تحديد اتجاه سيرهم . وكثيراً ما كان ينفذ الماء قبل الوصول إلى المعابر التالية فتهلك القافلة وإن نجح بعضها فذلك من المعجزات وكثيراً ما تنفق جمال القافلة وتترك عصمها على الطريق تحدد مساريه مشيرة إلى الهلاك لئلا ينتظر العير إذا قدر له أن يمر بهذا المسلك دون الاستعداد الكافى .

أما المياه بالنسبة لهذه القوافل فهى أساسية وبدونها لا يمكن لأى قافلة أن تسير ولهذا اهتموا بحفر الآبار وتحديد المسافات بينها واتخذوا من الواحات محطات لهم واستعانوا بالقرب فى حملها وتغننوا فى وسائل حماية هذه القرب حتى لا تتهرق إذا احتسكت بعض الحمل بعضها البعض ومع كل ذلك فإن حرارة الصحراء كافية فى كثير من الأحيان بإضاعة كمية كبيرة من المياه المحفوظة فى القرب لعامل الحجر أو لعامل الرشح ولهذا كثيراً ما حسبوا لهذا النقص الحساب إلا أن تقديرهم أيضاً كثيراً ما كان يحونهم فتعرض القافلة للهلاك بسبب العطش رغم عمل كل الاحتياطات اللازمة لمقاومة هذا العدو الذى لا يعرف رحمة ولا صبراً .

ومن الاخطار الكبيرة التي كانت تتعرض لها تجارة القوافل فيما بين الساحل
واواسط افريقية الاعتادات المنظمة التي تقوم بها جماعات قد احترفت هذا
النوع من الغزو ووضعت له الأسس الكفيلة بدجاحه وإن كان أصحاب القافلة
كثيراً ما يفلتون منه بفضل استعداداتهم وتجهيزهم للطرق المهددة ولكن يجب
عليه أن نعرف أن هذا الغزو الصحراوي الذي كانت تتعرض له تجارة القوافل
اللووية لم يكن نوعاً من القرصنة وإن شأها في كثير من الأوجه إذ أنه قد
نشأ بحكم ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية للصحراء حيث القتال غريزة
ملارمة لطبيعة الرجل . يعتبر الرجل العرو خليقاً بالشهامة وخاصة من حواص
الرجولة ولا يقتصر حب الغزو وتمجيده على فريق دون آخر بل يشمل جميع
وان اتخذ صوراً مختلفة باختلاف الأماكن والسكان وإن تطور أحياناً بحكم
تعاليم الدين الإسلامي وتنظيم الحياة على أسس اجتماعية جديدة لم يحل من
حسابها هذا النوع من طرق كسب العيش . ولما في تاريخ بعض المترعمين للحركة
المقاومة الشعبية للغزو الإيطالي في العصر الحديث ما يؤيد هذا الرأي إذ أن
كثيراً منهم كان من غزاة الصحراء ولكنهم فطوروا فيما بعد واتجهوا بنشاطهم
نحو العدو المغير وكان لهم في تربياتهم السابقة ما جعلهم يحاربون النصر تلو
النصر على العدو المعتدي وبذلك استطاعوا قيادة الحركة الشعبية ضد العدو
وهكذا تحول ميدان البطولة واستغلت البطولة نفسها .

• • •

• • •

• • •

هذا ونجاح القافلة كثيراً ما كان يتوقف على الخصال وعددها وقوة احتياطاتها
هني وفرتها ووجود الاحتياطي منها تسهيل لمهمة القافلة إذا تعرضت لأي طارئ
في جمالها كما أن الاعتماد على النوع الجيد المختار من الخصال يضمن سلامة وصول
القافلة في المواعيد المحددة فلا تترك التجارة ولا تقوتها الأسواق الهامة فضلاً

عن ضمان سلامة أصحابها لاسيما إذا اقترنت هذه الحال الجيدة بحبراء فنيين لهم
مقدرتهم المعترف بها في قيادة القوافل والقيام بهذه المهمة على أحسن ما يكون
أسوة بالملاحين المهرة في قيادة أى قافلة من السفن وسط البحار وكثيراً ما كان
لعضهم من المهارة التي نحف على القوافل مهمة سفرها وتشر أصحابها كأنهم
في نزهة صحراوية وكان لعضهم طرق مختلفة ورثوها عن آبائهم وتفتنوا في
اكتسابها ووسائل تحسينها حتى أصبحوا مفصلين عن غيرهم للقيام بهذه المهمة
في مقابل أجور بهظة وصلت في كثير من الأحيان إلى أخذ نصيب وافر من
أرباح القافلة المضمون لها النجاح وإذا كانت القوافل كثيراً ما تنجح في مهمتها
بالاعتماد على مثل هؤلاء الخبراء فإن الحداة الآن أيضاً فصلاً كبيراً في هذه
المهمة بما يسذلونه من جهود صوتي ومن موسيقى يساعد القافلة على السير
الحثيث ويدفع بها إلى الأمام مستحقة بالتعاب بجودة نشاطها بعدما تلاقيه
من تعب. ومؤلف هذا الكتاب لا ينس تلك الشهور التي قضاه وهو لا يزال في
المرحلة الأولى من أعوام الطفولة في صحبة إحدى القوافل وإن لم تكن قافلة تجارية
ولا ينس صوت «ابن شتوان» الذي قام بمهمة الحداة وأغانيه الحيلة ما زال
صداها يتردد في النفس إلى يومنا هذا وما زال مؤلف هذا الكتاب تدور في
خيلته صورة الأبل وأصحابها وقد اتنايتهم الدشوة من صوت الحدى وترانيمه
الحيلة واندفعت الأبل في صفوف متراصة إلى الأمام بخطوات منتظمة أشبه
بخطوات الخند في مسيرهم وهي شاخصة بعصرها متطلعة إلى الأفق مستثمرة
بما في معاني أغانيه من مستقبل باهر لها ولأصحابها. ولا عجب في ذلك فإن
لحدو الأبل أثراً قوياً في نفوسها وفي نفوس البشر لا يستطيع فهمه على
حقيقته إلا من قدر له أن يقضى فترة في صحبة القوافل.

والملاحظ أن الاعاني التي يتغنى بها الحداة كثيراً ما تدور حول تخفيف
التعاب الحاليه وتهوينها بانتظار الفرح القريب والراحة التامة كما في الاغنية
التي مطلعها .

مدى رقابك واشترى الارياح • وان شاء الله بعد الشقاء ترتاحي (١)

وكثيراً ما كان بعضها يدور حول إحدى قصص الغزو وهجوم الأعداء
على الأبل واستماته أصحابها في الدفاع عنها وانقاذها من هذا الغزو ورد العدو
مهروماً بعد الحاق الخسائر به ومن هذه الأغانى الأغنية التى مطلعها

هادول يسوها وهلبا مابوا • سود الماسم دونها تنابو (٢)

وإذا كانت قوافل الحجيج لها نوع خاص من الخداء فإن حداثة القوافل
التجارية كثيراً ما كانوا يرددون هذا النوع أيضاً فى أثناء قوافلهم التجارية لما
فى معنى هذا النوع من استئثار وتعاؤل بالناحية الدبيلة المثلة فى أحج
والقيام به واستقبال متاعه بكل صدر رحب وفى الأغنية التالية ما يوضح
هذا المعنى .

يا قطعة رقرق سرت وبرقة • يا زايرة قبر السى من شرقه

مدت حماجها وقالت سوفوا • وكره على قبر اننى بستوقو

ومن الأغنى التى جمعت بين معنى التترك بالحج والاستماته فى الدفاع عن
الأبل الأغنية التى مطلعها .

ما من حجاج بلغنى مزاره • القبر الهاشمى فى يوم عيد

(١) مع ملاحظة أن أهل لوبيا يظنون حرف لاف حاء وحرف لم مصداك هى الحال
عقد أهالى الصعيد من مصر

(٢) سود الماسم كلمة عن الأبل كى يوحى فى مقدمه إعطائها من عظام مائه سوداء ومعنى
هذا المطلع أى هؤلاء امرأة يريدون الاستلاء على هذه الأبل وسكن أهب رقصوا ذلك ووقعوا
دونها لحمايتها وتماتلوا من أجلها .

وما من طفل مجلى غيابه طاح بين في دكاك يمد

...

...

...

وتنقسم طرق القوافل الى نوعين أحدهما رئيسى والآخر فرعى . ويشمل النوع الأول الطرق الطويلة التى تقطعها القوافل فى مدد تتراوح بين الشهرين والثلاثة بل قد تصل الى أكثر من العام وهى بمثابة حلقة الصلة بين الاقاليم أما النوع الثانى فيشمل الطرق القصيرة التى تقطعها القوافل فى أيام معدودة اقصرها وهى تربط المراكز بعضها ببعض وتصل ما بين بعض الواحات المتقاربة وهى أقل شأناً من النوع الأول كما أنها محدودة الأثر باللغة إليه . ومن أمثلة النوع الأول طريق الحج الذى يمتد بحذاء الساحل الذى يدير البلاد بطول ساحلها الشمالى ويصلها بنوس غرباً وينتهى شرقاً الى مصر بعد أن يعبر برقة الى الجنوب من هضبة الجبل الأخضر دون المرور مع القوس الساحلى لشبه جزيرة برقة توفيراً للوقت وتقريباً للمسافة وهو الطريق الذى سلكته الجنود الفاطمية فى فتحها لمصر كما سلكه الجيش الثامن البريطانى أخيراً فى حربه مع دولتى المحور . الذى قطع به خط الرجعة على قلوب الجنود المحورية وهى فى تفهقها الى العرب . وإلى جانب هذا الطريق الرئيسى الشمالى المعروف بطريق الحج هناك طريق آخر يمتد من العرب الى الشرق محاذياً للطريق الأول وإن كان يقع الى جنوبه ويختلف عنه فى طبيعته . وبواسطة هذا الطريق الداخلى يمكن للقوافل السير من مدينة طرابلس نحو الجنوب الشرقى الى واحة سوكنة فواحة رلة ثم الى واحة أوجلة فواحة سيوة ومن هناك الى دلتا مصر حيث تنتهى هذه القوافل إلى مراكزها معروفة بمشة فى قرية كرداسة الواقعة الى الغرب من القاهرة وإلى مديرية الفيوم وإلى منخفض القطارة وادى النطرون ثم إلى مديرية البحيرة . وكلها أسواق للتجارة ومحطات للقوافل التجارية فيما بين وادى النيل ولوىيا . وقد لعب بعضها وما زال يلعب دوراً هاماً فى التجارة

خصوصاً تجارة الأبل التي تصدر عن هذا الطريق إلى أسواق قريبي أمابه
وكراسة بمديرية الجيزة وأبو المطامير بمديرية البحيرة . وهناك في هذه المراكز
كما في غيرها نقابا الكثر من اللوبيين الذين اشتغلوا بالتجارة مع وادي النيل
وقدر لمعظمهم البقاء هناك وإقامة مراكز تجارية ما زال بعضها على اتصال
باوروبا وأهلها خصوصاً في الأيام الأخيرة بعد طرد الإيطاليين من ليبيا
وقد صاحب ذلك تيار تقري وحركة بين وادي النيل والبلاد التونسية والملاحظ
أن هذا الطريق الأخير لا يطرقة اللوسون إلا للأغراض التجارية بعكس
الطريق الأول الذي تعال عليه صفة الحج ويفصل معظم التجار اللوبيين الطريق
الثاني توفيراً للوقت خصوصاً في فصل الشتاء حيث يهربون من بعض نهم من
الأمطار الساحلية (١) . وقد رأت أهمية هذا الطريق الأخير في عهد المقاومة
الشعبية للاحتلال الإيطالي أدعى طريقه تم فرار معظم اللاجئين اللوبيين إلى
مصر بعد أن فشلت حركة المقاومة وبعد أن سد الإيطاليون الطريق على
المهاجرين من المناطق الساحلية باستغلالهم على القفط المهمة في الطريق الأول
الساحلي . ورغم ما فيه من صعوبة أساسية لنقل البضائع فإنه كان أصعب
وآمن من الطريق الأول الساحلي . على أن هذا الطريق أشد أبطأ كثيراً
ما كان يسلكه بعض الحجاج في طريقهم إلى الحج خصوصاً أولئك الذين
يسكنون الواحات الداخلية من إقليم فران بعد أن يتصلوا به بالطريق الثانوية
الخاصة بهم كما جاء وصف ذلك فيما كتبه الرحالة فردريك هرنمان
Frederick Horneman في رحلته التي قام بها سنة ١٧٩٧ أس الحملة الفرنسية
على مصر لاكتشاف الجهات الداخلية لأفريقية بالاتجاه من الشرق إلى الغرب
في الوقت الذي كان فيه الرحالة مونجو برك Mungo Park مشغولاً باكتشاف
الأجزاء الداخلية لأفريقية أيضاً ولكن بالاتجاه المعاكس لمسير فردريك .

وقد استطاع فريدريك القيام بهذه الرحلة بعد أن التحق بمقابلة من الحجاج أثناء عودتها من الأراضي الحجازية في طريقها إلى فران وقد بدأ رحلته في اليوم الخامس من شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ بعد أن انتظر قافلة الحجاج ومن معهم من التجار في قرية كرامة الواقعة بالقرب من مدينة القاهرة إلى العرب منها في مديرية الجيزة (١) .

وإذا استثنينا هذين الطريقين الأولين فإن بقية الطرق الأولية الأخرى للوبيين تتجه من الجنوب إلى الشمال وتصل ما بين ساحل البحر الأبيض وإقليم السودان وهي في اتجاهها تسير في خطوط متوالية وإن كان بعضها يتقابل مع البعض الآخر في واحات معينة تقوم بدور الوساطة والتبادل العام بين مختلف طرق القوافل وهي في هذه الحالة أشبه بمحاط الموصلات المعروفة حديثاً في السكك الحديدية . وفي مقدمة هذه الطرق الطريق الذي يصل مدينة طرابلس بإقليم تشاد وهو من أقدم طرق القوافل التي عرفها اللوبيون إذ يرجع استخدامهم له إلى أكثر من ٢٠٠٠ سنة تقريباً وعن طريقه جلبوا محاصيل أواسط أفريقية إلى موانئ الشمال وهو يمر بعدة واحات أهمها منطقة كاوار Kaware فواحة مررق شمالاً . ومن الأخيرة إما تتجه القوافل غرباً إلى واحات فواحة غدامس شمالاً فمدينة طرابلس وإما تتجه القوافل من واحة مررق شمالاً إلى مدينة طرابلس العرب مارة بواحة سوكنة أو مارة إلى الغرب منها إلى مدينة طرابلس على البحر .

ومن الطرق الأولية كذلك الطريق الممتد من مدينة طرابلس شمالاً إلى إقليم نهر النيجر جنوباً حيث منطقة سوكوتو Sokoto ومنطقة كانو Kano ببلاد

نيجيريا ماراً بواحة غدامس وواحة عات وأير Air . أما في الباحة الشرقية من ليبيا فنجد كذلك طريقاً أولياً هاماً يصل مدينة سغازى بأقليم تشاد بالسودان ماراً ماجداية فواحة أوجلة فألى واحة الكفرة ومن هناك إلى إقليم تشاد . ويتقابل هذا الطريق في واحة أوجلة مع الطريق الأول الذى يتجه من العرب إلى الشرق محاذياً للطريق الساحلى . كما أن واحة أوجلة نفسها تتصل بواحة مرزق في وسط إقليم فران طريق رئيسى يجعل من السهل الاتصال بين سغازى والسودان العربى .

وهكذا تعددت هذه الطرق الأولية ونشئت إلى جانب المئات الأخرى من الطرق الفرعية وهكذا أيضاً تطورت أهمية بعض الواحات واكتسبت مركزاً ممتازاً في الصحراء وظهر بعضها بمظهر المدن المرودة بالصادق وسبل الراحة والاستحمام . فهذه واحة مرزق عاصمة إقليم فران حتى سنة ١٩٤٣ برغم موقعها غدير الصحرى وتأثيره على سكانها قد لعبت دوراً هاماً في تجارة القوافل الأمر الذى جعلها عاصمة لهذا الإقليم لكثرة ما يصل إليها من قوافل، وهى بمثابة البؤرة للطرق التجارية ومنها يستطيع تحار القوافل الاتصال بأى مكان يريدونه ويستطيعون يومياً أن يترودوا بأخسار القوافل الأخرى من البلاد البعيدة لكثرة ما يصل إليها من قوافل . والخلاصة أنها احتلت ما كان لواحة جرمة من مكانة خاصة في تجارة القوافل وقت أن كانت حرمة عاصمة للجرامنت في إقليم فران في العصور القديمة وهذه واحة سرركة بالمثل كذلك وإن كانت أقل أهمية من واحة مرزق فإنها ملتقى لعدة طرق رئيسية هامة فضلاً عن الطرق الثانوية الأخرى وكذلك بالمثل واحة زويلة المعروفة بكثرة الاشراف من سكانها وقد كان لهم دور كبير في حياتها الى جانب ما اشتهر واه من هدوء باللغة لبقية سكان فران كما يقرر ذلك الرحالة Lyon في كتابه (١)

G. F. Lyon A Narrative of travels in Northern Africa in the years, ١818, (١)
1819, 1820, P. 212.

أثناء رحلته التي قام بها وقد شاهد هناك بقايا مسجد يرجع إلى العصر العربي الأول وقبور هؤلاء الأشراف المدفونين بها وسمع بعض ماردده الناس عن صلاحهم وتقواهم ثم وصف قلعتها ومساجدها الثلاثة الأخرى . وقد سبقه إلى تبين أهمية موقعها وقيامها كسوق الرحالة العربي البكري في القرن الحادي عشر (١) حيث وصفها لما بناها مدينة وأنها تجمع للرفاق من كل جهة كما أنهم يفترون منها حيث تنشب الطرق منها .

وإذا كان بعض هذه الواحات قد احتللت أهميتها من وقت لآخر فإن ذلك بدون شك يرجع إلى ما كانت عليه طرق القوافل التي تمر بها من أهمية إذ كثيراً ما كان يحدث لبعض التجار أن يتجنبوا مصها بصرأ لما كانوا يترصون له من أخطار سب الحروب والقتل أحياناً فيما بين الفاشل التي تسيطر على هذه الطرق أو سبب ما كانت تستهدف له بعض الأسواق المعبئة من اضطرابات تقف دون تحقيق رغبة تجار القوافل فيحاولون الاستعاضة عنها بأسواق أخرى ومن ثم إلى سلوك طرق أخرى بل كثيراً ما كان يحدث أن تظهر للوجود بعض الطرق التي لم تكن مطروقة من قبل ولكن حاجة التجار ورعتهم في الحصول على الأرباح كانت تدفعهم إلى محاولة الاهتمام إلى مسالك جديدة تضمن لهم استمرار موردتهم التجاري ومن أمثلة هذا النوع ذلك الطريق الذي بدأ باكتشاف واحدة المكفرة التي تقع في منتصف الطريق فيما بين بنغازي وإقليم السودان الشرق والتي كان لها في موقعها الحصص وصعوبة الوصول إليها ما حماها من العرو العربي ولذا بقيت في عزلة حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي عندما استطاعت قبيلة روية *Zuwawa* (من وأحة جخرة) أن تستولى عليها

من أيدي أهل التوسعة ١٨٤٠ بعد أن أحاطت بها القوى الإسلامية من كل جانب، ولما كانت قبيلة زوية هذه معروفة بنشاطها التجاري فقد اتحدت من الكفرة محطة لها في تجارتها مع واداي والفاشر وراى في أهمية هذه الواحة كمرکز تجارى بشكل واضح عندما بنى السنوحى الكبير زاويته المعروفة هناك وعندما انتقل إليها السيد المهدي بدعوة من روية واتحد بها قاعدة لنشاط حركته الدينية وبانتقل السيد المهدي اليها يبدأ العصر الذهبي لتجارة القوافل المارة بها وقد ساعد على ذلك قيام الثورة المهدية في السودان وما اقترنت به من فوضى واضطرابات كان لها أثر كبير في الحالة التجارية في السودان اضطرب على أثرها التجار الذين يتعاملون مع واداي والفاشر والأبيض أن يتجنبوا طريق النيل أو طريق درب الأربعين اى ينتهي عند مدينة أسوط بالوجه القبلى بمصر وأن يحولوا نشاطهم التجارى إلى طريق الكفرة فأوحدت فاحداية وأحيراً إلى مدينة نمساى على البحر، بل إن القلائل التي حلت بالسودان بسبب ثورة المهدي وما سبق ذلك من نشاط الحديوى استمعىسل وإلى مصر في تجارتها لتجارة العبيد قد جعلت لتجارتهم يتجهون إلى الطرق المصرية التي تنتهى إلى الموانئ اللابية بدل أن كانت تنتهى إلى أسواق اقـامرة والاسكندرية. وما زالت واحة الكفرة تتمتع ببعض النشاط المحلي لتجارة القوافل رغم ما جسد عليها من تطور كبير قد سبق بياها وترسما الخريطة التي نشرها الأستاذ Bell في كتابه عن واحة الكفرة أن هناك عشرة طرق لتجارة القوافل تخرج منها وما زالت كل هذه الطرق مطروقة حتى يومنا هذا وإن قل عدد القوافل التي مرت بها أخيراً. ففي عام ١٩٤٣ رغم ظروف الحرب قد مرت بها خمسة وسبعون قافلة كان عدد جمالها ٢٢٥ جملاً (١) وواحدة الحموب نفسها رغم وقوعها في طريق تجارى أول ينتهى شرقاً عند وادى النيل فإنها لم

تكن قد اكتسبت قيمتها كقاعدة تجارية هامة لما في مياها من ملوحة إلا بعد ان اتخذ السيد السنوسى الكير منها قاعدة له بعد انتقاله من زاويته في البيضاء في الجبل الأخضر ببرقة . وبانتقال السنوسى الكير إليها وجدت عليها جماعات من الناس معظمهم من طالبي العلم بعد أن كانت خالية غير مسكونة (١)

...

...

...

وإذا كان اللوبيون بصفة عامة قد اشتهروا بتجارة القوافل منذ القدم فإن هناك جماعات مهم قد تخصصت في هذا النوع من التجارة بشكل واضح بحيث يتعذر على غيرهم أن ينافسهم فيه وقد عرفت تجارة القوافل قبائل الجرامنت في العصر القديم كحترفين لهذا النوع من التجارة وكسادة في هذا الميدان حتى أنه لم يكن في استطاعة غيرهم القيام بأى نشاط تجارى ما لم يشرف عليه الجرامنت ويتولوا أمر حمايته . وأهالى واحة غدامس التى عرفها العرب باسم غدامس قد كانت لهم شهرة كبيرة في هذا الميدان منذ أن عرفت التجارة طريقها بين الساحل الشمالى ووسط افريقية ، وكان لموقع واحتهم وسيطرتهم على الطريق التجارى فيما بين مدينة طرابلس وإقليم السودان خصوصاً منطقة تمبكتو أثر كبير في نشاطهم وانصرافهم إلى تجارة القوافل وجعل واحتهم محطة هامة لها وقد ساعدتهم على هذا أيضاً ما تتمتع به أهالى غدامس من ذكاء عال في هذه الناحية وأمانة خالصة هي الأساس الأول لضمان النجاح التجارى وقد استعانوا على ذلك بارسال بعضهم إلى مدينة طرابلس للاقامة هناك للاشراف على استلام تجارتهم في محطتها النهائية لضمان سلامتها ومراقبة الحالة التجارية وأسعارها وتقلباتها كما استعانوا أيضاً بوكلائهم في واحة عات وفي بقية الأسواق الأخرى الهامة بالسودان لأحكام حلقة الاتصال التجارى وليكونوا على علم بما يحدث في هذا الميدان التجارى . والحقيقة أن أهالى غدامس قد اخلصوا في عملهم وحالفهم التوفيق بهذا الاخلاص

وصعب على الغير أن ينافسهم فكانت لهم الأولوية وكانت لهم الأرباح الطائلة ولهم يرجع الفضل في تنبيه أهالى مدينة طرابلس الى هذا الميدان التجارى وعنى بهم تتلذذ الكثير من التجار الموفقين من هذه المدينة حتى امكنهم منافسة أهالى غدامس فيما بعد .

أما فى الشطر الشرقى من ليبيا فنجد بعد الفتح العربى المحاربة وهم سكان واحة جالو كما نجد قبيلة زوية وهى التى نكس واحة جخرة . وقد نشأ عن النشاط التجارى لهاتين القبيلتين انتشار عصرهما فى كل مكان امكنهم الوصول إليه . فكثير منهم يقيم فى مصر والسودان حيث يتجهون غالباً بنشاطهم التجارى وهم مقدرة فائقة مسلم بها من الجميع على تحمل متاع السفر واتقان تجارة القوافل بشكل تام . وقد كان لحياة السفر التى اعتادوها أثر كبير فى تكييف معيشتهم وقد لاحظ عليهم ذلك الرحالة فردريك هورنمان (Frederick Horneman) فذكر أن أولئك الذين يشتغلون بالتجارة يحتفظون فى العادة بثلاثة بيوت أحدها فى قرية كراسة بالقرب من القاهرة والثانى فى أوجلة نفسها والثالث فى واحة زوية أو مرزق بفران . وكثير منهم له زوجة وأولاد فى كل من هذه الأماكن بل كان بعضهم يتخذ له زوجة أثناء مدته المحبوسة (١) التى تبقاها القافلة فى إحدى المحطات لتعمله وتقوم بحاجياته الضرورية . ولهذا كثرت علاقاتهم مع الجميع بطول البلاد الواقعة فى طريقهم التجارى . وليست هذه الحياة الفريدة من نوعها بصعبة عليهم او غريبة عنهم بل أنهم قد تعودوا عليها منذ نشأتهم الأولى وعملوا على تربية أولادهم واعدادهم لها فى المستقبل كما كان الحال بالنسبة لأبائهم وأجدادهم من قبل .

وكثيرا ما كانت القوافل التجارية تعبر بجرى طريقها أمام ما يصادفها من عقبات فهذه مدينة طرابلس التى حلت محل مدينة أويا القديمة قد آل إليها ما كان

يصل من قوافل الى لبد وصراته حتى اذا حل الخراب بهما وانتعشت مدينة طرابلس على يد العرب الفاتحين انتقل النشاط التجارى بأجمعه الى الشطر العربى من لوبيا اليها بعد أن كانت كل من لبد وصراته تشاركها في هذا العمل بل بعد أن كان لمدينة لبد النصيب الأول منه . ومدينة طرابلس نفسها قد تعرضت لمثل هذا الحال وان كان ذلك لفترة قصيرة لم يقدر لها أن تطول وذلك امان الاحتلال الاسبانى لها في أوائل القرن السادس عشر اذا انتقل نشاطها التجارى الى مدينة صرته الواقعة الى الشرق منها على الهابة العربية لخليج سرت الكبير واحتلت هذه المدينة وأهلها ما كان لمدينة طرابلس من نشاط تجارى وأصبح مينأؤها حلقة القصة بين القوافل التجارية الداخلية وبين الساندة وغيرهم . والأمثلة من هذا النوع كثيرة يصعب على المؤرخ حصرها أو تتبعها في صفحات قليلة لاسيا فيما يختص بالمساطر الداخلية منها . ولكن كل هذه الأخطار لم تقف دون مسيرها وكان لها في تعدد طرقها ما ساعدها على الاستمرار دون توقف الى أن قدر لها أن تتعرض لحوادث تاريخية هامة كان لها أكبر الأثر في اصعب شأنها وهاتى في القضاء عليها شكل واضح وان كان مرلما يرى لها قيمة من لنشاط حتى في أيامنا هذه بعد كل ما مر عليها من عراقيل وأزمات مصعبة .

• • •

وإذا كانت الحياة في أوربا لم يمكنها الاستعلاء عن نوايل الشرق واتاجه وإذا كان الساندة والجنوبيون وغيرهم قد اتخذوا من بقلها من الاسواق الشرقية إلى أوربا مردأ طبعاً الارواح الضالة وإذا كانت القاهرة بأسواقها وعداد بماتجها والاسكندرويه بمخازنها واقسطاطينية كذلك بموقعها وبقية المدن الأخرى التي استمدت من هذا الموع من التجارة قد أزهت في الحياة وبلغت شأماً محترماً حتى ان حكماها استطاعوا أن يعموا حياة طيبة وان يحققوا ما صعب على غيرهم محاولة التفكير فيه فإن الاوربيين كذلك لم يمكنهم الاستعلاء عن اتاج ووسط افريقية من عبيد وذهب وريش بعام ودهن بعام وحلود وطيور حميلة

ولهذا ابصاراً كان لمدينة طرابلس وبقية المدن الاخرى التي ساهمت معها في
تجارة وسط افريقية نصيب كبير من هذا النوع من الحياة حتى ان الأوروبيين
نظروا إليها بعين الاعتبار والتقدير خصوصاً أولئك الذين تعاملوا مع أهلها
ولم تنح لهم الظروف فرصة ريارتها الأمر الذي دفع بعضهم الى الاعتقاد بأنها
مخزن للذهب والفضة وقد أقيمت مبانها من معدنها ولا أدل على ذلك من
هذه القصة التي ذكرها لنا ابن غلبون في تاريخه ، وقد أخبرني بعض الثقات من
تجار المدينة ، قل دخلت مدينة بلنسية وابتعت سوقها فسألني بعض التجار بها لما
رأى الهيئة معربة من أي بلاد المغرب أنت فأخبرته عن وطني فسألني : أيهمون
بيوت طرابلس بين الذهب والفضة أم هي كسائر الدنيا ؟ طفت أنه يسخر
من حق أقسم لي بمبودهم (١).

ولم يقتصر أثر تجارة القوافل على هذا الثراء الذي تمتعت به البلاد بل تعدى
ذلك إلى التكوين الجنسي فيها فالأما في الجهات الجنوبية منها وقد وصل
هذا الأثر جنوباً حتى اشرف على المناطق التي تسكنها العنصر الزيجية نفسها .
ولولا هذه القوافل لمكانت تلك الواحات المندثرة في الصحراء الجنوبية أحسن
ما يمش ماطق العرلة في التكوين البشري ولكن بسبب هذه القوافل التجارية
اختلط سكانها بعربهم وتأثروا به تأثرت به الجهات الساحلية الشمالية من عنصر
اجسية طارئة وإن كان ذلك بشكل محدود قبل مجيء العرب أما بعد الفتح
العربي فكان تأثير الجهات الجنوبية بالعنصر العربي بما في ذلك واحات إقليم
فران عظيماً حتى أن الدم العربي انتشر جنوباً بشكل واضح وطهرت أثره في
ملاصيح السكان ، و زال إلى يومنا هذا بعض القبائل هناك تحتفظ بانسابها العربية
وكثير من أفرادها ينتمون الى البيت النبوي الشريف وقد حملت هذه القوافل
وما حملت معها من بضائع هذه الدماء العربية ووصلت بها جنوباً الى الدودان

(١) ابن غلبون : تاريخ طرابلس الغرب ص ١٦٥ .

حيث انتشرت وامتدّت . وكذلك بالمثل فيما يتعلق بشر اللغة العربية إلى
تجارة القوافل يرجع الفصل الأكبر في سرها في الصحراء والوصول بها إلى
مشارف السودان . أما عن الأثر الديني الذي تركته تجارة القوافل فهذا شيء
واضح مسلم به إذ لولاها ما عرفت المسيحية في العصر القديم طريقها إلى الجنوب
ووصلت إلى أبعس اقليم فإن حتى إذا جاء العرب فاتحين مبشرين بالدين الإسلامي
كان التجار المرافقون للقوافل التجارية خير دعاة لهذا الدين الجديد وسرعان
ما أسس جنوباً ووجد قلوباً مفتوحة لاعتناقه وإذا كانت القوافل التجارية قد
ساعدت على نشر الدم العربي واللغة العربية بين نجاحها في نشر العقيدة الإسلامية
كان أكثر حتى أصبحنا الآن نرى الدين الإسلامي منتشرًا في جهات جنوبية
ثانية رغم ما يقف دون ذلك من مصاعب وعراقيل . وفي القرن التاسع عشر بدأنا
نجد صراعاً قوياً بين دعاة المسيحية من أوريين وغيرهم مثليين في هيئات تبهرية
منظمة ودعاة الإسلام مثليين في تجار القوافل ورغم ما استمد له المبشرون
المسيحيون من مال وقوة سياسية ووسائل أعراء لتدعيم نشاطهم هذا فإن
النتائج كانت في جانب دعاة العقيدة الإسلامية ولولا موقف الدول الاستعمارية
هناك وحولها من الهزيمة أمام هؤلاء التجار المسلمين الذين قاموا بهذه
المهمة دون كلفة ودون تخصص لكن النصر النهائي لتجار القوافل في هذه الناحية
ولساداتير الإسلامى تلك الروح السودانية . ولا شك أن نشاط حركة الدعوة
الإسلامية في الصحراء واقليم السودان في النصف الأخير من القرن التاسع عشر
يرجع الفصل الأول والأخير فيه إلى قيام الحركة السنوسية المباركة وانصراف
مؤسسيها إلى هذا النوع من النشاط بعد أن عملوا على تنقية العقيدة الإسلامية
بما علو بها بين سكان الجهات الساحلية الشمالية واعدوا بالعقيدة إلى الإسلام
الصحيح وكانت جهود السنوسيين في الدعوة للعقيدة الإسلامية الصحيحة مع
ما اقترنت به من اصلاحات اجتماعية موفقة خير درع لوقاية تلك الجهات من
الخضوع للنشاط الأوربي المسيحي بعد أن تم للدول الاستعمارية الأوربية النصر

السياسى بفصل قوة السلاح . والحقيقة أن السنوسيين ايضاً قد نجحوا كذلك فى تأخير هذا الاحتلال الأوربى بفضل نشاطهم الدينى وهم أن غلبوا أخيراً على امرهم فإن هزيمتهم لن تدوم فقد تركوا من مبادئ العقيدة التى بشروا بها هناك ما يكفى فى يوم ما تحريك أهلها وإيقاد نفوسهم للبطالية بحقوقهم المسلوبة . ولقد وجد السادة السنوسيون فى تجارة القوافل خير معين لهم على نشر دعوتهم فى الجهات الجنوبية مستعينين فى ذلك بما كان لهم من علاقات ودية نشأت بين السنوسى الكبير وسلطان واداي Wadai محمد الشريف عندما كان الاثنان يدرسان الفقه الاسلامى فى مكة فلما عاد الأمير محمد الشريف إلى بلاده وأصبح سلطاناً لواداي سنة ١٨٣٨ كان خير معين لنشاط الحركة السنوسية هناك وفيما جاوره من بلاد السودان . ولقد كان السنوسى الكبير موفقاً كل التوفيق عندما اشترى إحدى القوافل وهى فى طريقها من واداي إلى بنغازى وأعتق عبيدها وقام بتعليمهم فى الجغوب وتفهمهم للعقيدة الاسلامية الصحيحة ثم أرسل بهم الى واداي كدعاة لما تعلوه واعتنقوه فكانوا أحسن دعاة للعقيدة الاسلامية وجمع السنوسى الكبير فى دعوته نجاحاً كبيراً لم يستند فيه على القوة أو على النفوذ السياسى كما كان يفعل دعاة التبشير المسيحى فى تلك الجهات .

هذا شأن لوبيا واللوبيين يوم ان عرف أهلها كيف يستعملون بيئتهم الطبيعية وما حباهم الله به من موقع قريب وهكذا جمعوا بقوة عزيمتهم وحسن تفكيرهم بين البر والبحر ووصلوا وسط افريقية بالعالم الخارجى وحملوا إلى قلب القارة السوداء نور الحضارة المتمثل فى الدين . ولقد سار اجدادنا اشواطاً بعيدة جداً فى هذا السيل ثم حاول الاستعماريون من بعدهم أن يصلوا إلى قلب القارة من جديد وانتهوا بأن اعترفوا بأن أهل البلاد فى الشمال الافريقى أقدر منهم فى هذا المضمار وأوسع حيلة وأكثر قبولاً فهل نستطيع حمل العبء من جديد وان نضيق حيويتنا الاقتصادية والثقافية والحضارية على جيراننا البعيدين نحو الجنوب ؟

المصادر

- ١ - البكري . المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب (الجزائر سنة ١٨٥٧ م) .
- ٢ - ابن غلبون : تاريخ طرابلس العرب (القاهرة سنة ١٣٤٩) .
- ٣ - دائرة المعارف الإسلامية (المجلد الأول A D ، مادة agl bab) ، (المجلد الثاني E. K. مادة Kufra) .
- ٤ - E. W. Buxill Caravans of the Old Sahara « London 1933 » .
- ٥ - Charles We lington Furlong The Gateway of the Sahara « New York 1909 » .
- ٦ - Hugh Murry and James Wilson Narrative of Discovery and Adventure in Africa, « London 1840 » .
- ٧ - Captain G. E. Lyon A Narrative of Travels in Northern Africa, in the years 1818, 1819 and 1820, « London 1821 » .
- ٨ - Major Dixon Denham Narrative Travels and Discoveries in Northern and Central Africa in the years 1822, 1823 and 1824, « London 1826 » .
- ٩ - K. O. Bell Kufra, « Part IX, Handbook on Cyrenaica Cairo, 1944 - 1947 » .
- ١٠ - D. C. Camming The Modern History of Cyrenaica, « Part V, Handbook on Cyrenaica, Cairo 1944-1947 » .

- Oric Bates The Eastern Libyans London 1914 - vi
- The Journal of Frederick Horneman's travels, From Cairo_ vi
to Mourzouk, the capital of the Kingdom of Fezzan,
in Africa, in the years 1797 - 1798, Printed by W
Bulmer & Co. «London 1802».
- E. E. Evans Pritchard The Sanusi of Cyrenaica - vi
«London 1949».
- Diplomatic and Consular Reports, Trade of Tripoli for - vi
the year 1901 «No. 2843, Annual Series», Foreign
Office, London, July 1902».
- Diplomatic and Consular Reports, Tripoli, Report on the - vi
trade and Economic State of the Vilayat of Tripoli,
Northern Africa, During the past forty years, «No.
578 Miscellaneous Series», London 1902
- Major A. J. Cachia : Lybia under the second Ottoman - vi
Occupation, «Tripoli 1945».

فهرس موضوعات الكتاب

ص

مقدمة : بقلم المؤرخ الجليل الاستاذ عبد الحميد العبادى

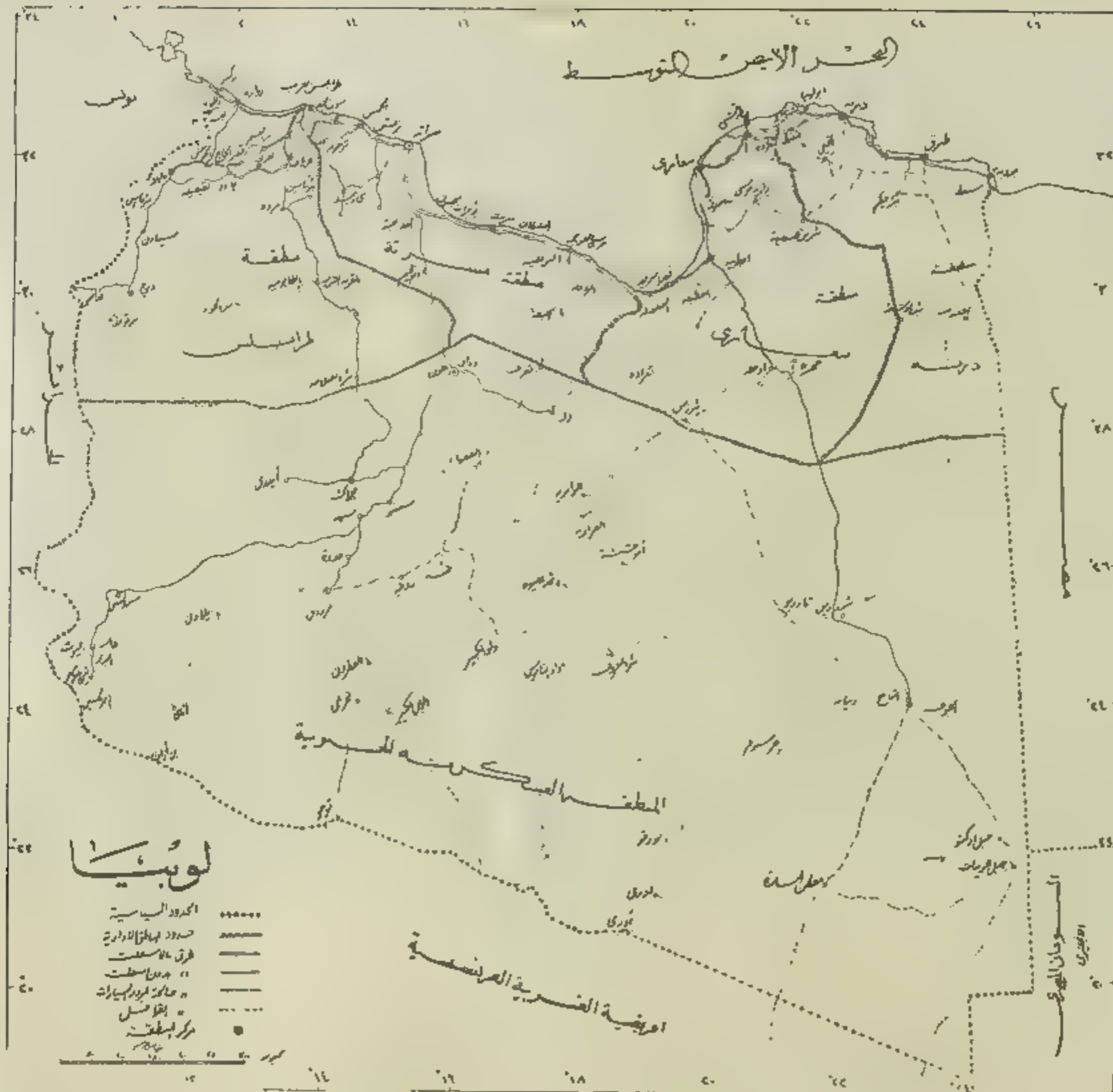
كلية الجمعية التاريخية : للدكتور محمد عبد الهادى شعيرة

مقدمة المؤلف :

لوبياء وليست ليديا	١٠
السومى الكبير	١٥
الأمس الجغرافية والتاريخية للوحدة اللوبية	٧٨
لوبياء والسيادة البحرية	١٠٩
لوبياء وتجارة القوافل	١٦٧

للمؤلف تحت الطبع

تاريخ ليبيا (الجزء الأول) من أقدم المصوّر إلى الفتح العربي



Association of Graduates in History
University of Alexandria.

STUDIES in LYBIAN HISTORY

' Historical foundations applied to the future of LYBIA '

BY

MOSHEM ABDELMAJED

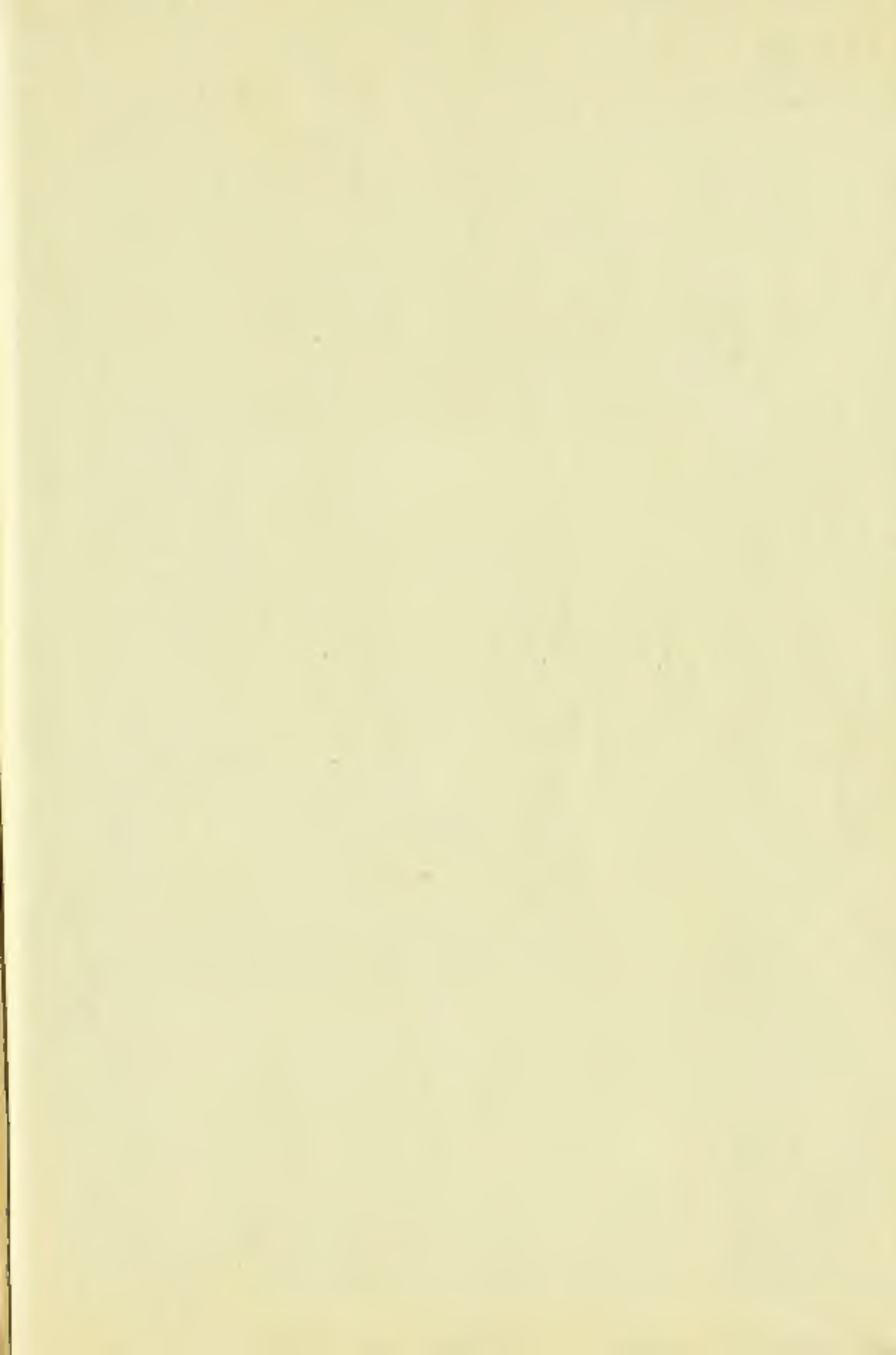
B.A in History of Alexandria Univ '

H.I.E.C. "Cairo"

ADD: NF PRESS 6 Mouna Isma
Te 2 056 Alexandria

P. T. 40

1955



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0023382120

DT
236
B33

JUL 20 1972 JAN 21 1981

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU69572003

DT224 .B3

Directed fi al-tarikh

DT
224
.B3